جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

البيئة البغدادية في نثر أبي حيان التوحيدي

عدله عوض نزال الصرايرة

رسالة
مقدمة إلى
عمادة الدراسات العليا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة
الماجستير في اللغة العربية قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، 2004م

بسم الله الرحمن الرحيم

MUTAH UNIVERSITY
Deanship of Graduate Studies

جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم(13)

إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالبة عدلة عوض الصرايرة بـــ:

"البيئة البغدادية في نثر ابي حيان التوحيدي"

استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

القسم: اللغة العربية.

	التوقيع	التاريخ	
أ.د. سمير الدروبي		2004/8/4	مشرفا ورئيساً
أ.د. جهاد المجالي		2004/8/4	عضواً
أ.د. انور ابو سويلم		2004/8/4	عضواً
د. فايز القيسي		2004/8/4	عضواً

عميد الدراسات العليا

د. ذياب البداينـــــة

MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
e-mail: dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo
http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

مؤتة – الكرك – الاردن
الرمز البريدي :61710
تلفون :03/2372380-99
فرعي 5328-5330
فاكس 03/2 375694
البريد الالكتروني
الصفحة الالكترونية

الإهـــداء

إلـــى من أحب العلم وزرعه فينا إلى من بذل الغالي والنّفيس ليرى أبناءه وقد بلغـــوا مراتب العلا، والدي حفظه الله، إلى رمز الحنان الندي والعطاء المتدفق على استـــحياء وبخجل شديد أقدم بعضا من فضلك، أمي حفظها الله، إلى من لهم في قلبي مكانة وفي نفسي منزلة وفي خاطري رعشة اعتزاز، أخواتي وأخواني، حبّا وولاء، عهدا وانتماء، جميعا أهدي هذا الجهد المتواضع.

عدلة عوض الصرايرة

شكر وتقدير

يقتضيني واجب الاعتراف بالفضل والجميل أن أنوه بالشكر والتقدير لأستاذي الجليل الأستاذ الدكتور سمير الدروبي، على ما أحاطني به من اهتمام ورعاية طيلة مراحل عملية الدّراسة والبحث.

والشكر الجزيل إلى أعضاء لجنة المناقشة على تفضلهم بقبول مناقشة هذه الرسالة وتحمل عبء دراستها وهم: الأستاذ الدكتور جهاد المجالي، والأستاذ الدكتور أنور أبو سويلم، والأستاذ الدكتور فايز القيسي، والثناء والتقدير إلى كل من ساهم في إنجاز هذه الدّراسة المتواضعة.

عدلة عوض الصرايرة

فهرس المحتويات

الملخص

البيئة البغدادية في نثر أبي حيان التوحيدي

عدلة عوض الصريراة

جامعة مؤتة، 2004

تأتـــي هذه الدراسة للتعرف إلى الملامح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمـــية والدينـــية في بغداد في القرن الرابع الهجري، من خلال ما دوّن أبو حيان التوحيدي في مؤلفاته النثرية التي وصلت إلينا.

حيـــث تـــناول الفصـــل الأول بنية المجتمع البغدادي، وعرض الفصل الثاني اضـــطراب الحالـــة السياســـية، وتحدث الفصل الثالث عن الوضع الاقتصادي وأهم موارد الدولة المالية، وتوقف الفصل الرابع عند مظاهر الحركة العلميّة والثقافية في بغـــداد. وتـــناول الفصـــل الخـــامس أهم الفرق الدّينية المنتشرة في بغداد في زمن التوحيدي.

وفوق ذلك، فإن مؤلفات التوحيدي الباقية قد كشفت لنا بجلاء عن صورة هذه البيـــئة فـــي هـــذا العصـــر، استناداً إلى مقابلة ما ورد فيها مع المصادر التاريخية والأدبية المعاصرة.

Abstract

The Baghadi Environment in the prose of Abi Hayyan Al-Tawhidi
Adla Awad Al-Sarayreh

Mu'ta University, 2004

This study aims at recognizing the social, economic, political, scientific and religious features of Baghdad in the fourth Hijri century in the prose writing of Abu Hayyan Al-Tawhidi that survived to prosent day.

The first chapter dealt with the structure of Baghdad society. The second chapter shows the aspects of political disturbance. The second chapter examines the economic situation and the main financial resources of the state. The fourth chapter expiores tye educational and scientific movement in Baghdad. The fifth chapter dealt with the main religious sect which were popular in AL-Tawyidis age. Moreover, the existing works of Al- Tawhidi reveal to us the picture of this environment in that age based on comparing what appeared in these books with contemporary historical and literary resources.

الفصل الأول

بنية المجتمع البغدادي

1.1 المقدمة:

تمـــيزت بغداد في القرن الرابع الهجري بالفوضى والاضطراب، وخاصة بعد سيطرة البويهين، حيث عاش النَّاس في ظل حكم جائر لاقـــوا منه مرَّ الهوان، وعلى الـــرُّغم من أنّ هـــذه الظروف القاسية تطور النثر العربي فيها في هذا القرن، وبدأ يشارك الشعر العربي في حديثه عن قضايا المجتمع، وتصويره للبيئة والحياة العامة ســـواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية أم دينية أم علمية، وقد أصبح الأدباء بما دونوه لنا في مؤلفاتهم شاهد عيان على جميع الأوضاع السائدة في بغداد وغيرها من الحواضر.

وكمـــا تشـــير هذه الكتابات إلى تطور وازدهار الحركة العلميّة والثقافيّة، وكأن العلم لا يزدهر ولا يرتقى إلاّ في عصور الفوضى والاضطراب السياسي.

ففـــي هـــذه الفترة ظهر الناثر العظيم"علي بن محمد بن العباس" المعروف بأبي حـــيان التوحـــيدي، صاحب المؤلفات الثريّة الغنية بمختلف أنواع العلوم والمعارف، والتي لاقت اهتماما من قبل العديد من المحققين والباحثين الذين عملوا على دراستها وتحقـــيقها وإظهارهـــا على الساحة العلميّة والثقافية في العالم العربي، فقد كان أديبا وفيلسوفا وعالما.

إنّ ما دفعني إلى اختيار موضوع البيئة البغدادية من خلال مؤلفات التوحيدي، هو إن بغداد كانت موطن التوحيدي الأول، وتعدّ من المدن ذات المكانة المرموقة في التاريخ الإنساني، فهي محج العلماء والأدباء وطلاّب العلم والأدب من جميع أرجاء العالم الإسلامي.

وتجـــد الدراسة أنّ شخصية التوحيدي نفسها لاقت اهتمام الباحثين والدَّارسين، ســـواء بدارســـة الشخصـــيّة ومـــا أحاط به من غموض، أم بدراسة مؤلفاته، وأما الدراسات السابقة فلم تكشف عن طبيعة الحياة البغدادية من خلال مؤلفات التوحيدي، فمؤلفاتـــه تطلعنا على البيئة البغدادية وما داهمها سواء في القرن الرابع الهجري أو

فــي العصــور الســابقة، راجــية أن تجــد هذه المحاولة المتواضعَة مكانة لها بين الدِّراسات التي تناولت التوحيدي والبيئة البغدادية.

ومــن الصعوبات التي واجهت الدراسة أثناء عمليّة البحث والاستقصاء تكمن فــي مؤلفات التوحيدي نفسها التي يلفها الغموض أحيانا فهي تمزج الأدب بالفلسفة، مما يصعب فهم ما وراء أسطر بعضها، كما أنَّ لغة التوحيدي كانت تميل في الغالب إلــى الجانب الفلسفي والصوفي، فهي لغة لم تخل من المقاصد والعبارات المرموزة، التــي يمكن أن يوجه التوحيدي بها نقدا لاذعا إلى السلطة في بغداد، فالرجل كما هو معلوم كان ناقدا ناقما رافضا للأوضاع السائدة في بغداد.

ومــن الصــعوبات التي واجهتني أيضا عدم القدرة على الوقوف على جميع الدِّراسات التي تحدثت عن شخصية التوحيدي الفيلسوف الأديب.

وبالنسبة إلى المنهج المتبع في هذه الدِّراسة هو المنهج التاريخي، الذي يقوم علــى ربــط نصــوص التوحيدي بظروفها التاريخية والاجتماعية السائدة في ذلك العصر، ومحاولة تفسيرها وقراءة ما وراء سطورها.

لقد ظهرت بعض الدِّراسات الحديثة التي تناولت شخصية التوحيدي ومؤلفاته ولكــن دراســتي تناولــت بغداد من خلال ما دوّن التوحيدي في مؤلفاته. ومن هذه الدراسات دراسة عبد الغني الشيخ "أبو حيان التوحيدي ورأيه في الإعجاز" ودراسة لعــبد الــرزاق محــي الديــن بعنوان "أبو حيان التوحيدي سيرته وآثاره " ودراسة لإبراهــيم الكيلانــي " أبــو حيان التوحيدي" وأخرى لإحسان عباس، ومحمد رجب السامرائي وغيرهم .

ومــن الدراســات التي توقفت عند جوانب معينة في مؤلفاته، دراسة لحبيب شــبيل وعنوانها" المجتمع والرؤية قراءة نصيّة في الإمتاع والمؤانسة" وهناك دراسة لعبد الأمير الأعسم وهي " أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات" ودراسة بعنوان " النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي" لفايز طه عمر.

ومــن الأطــروحات الجامعــية التــي ركّزت على جانب معين مما طرحه التوحيدي في مؤلفاته دراسة لوداد القاضي بعنوان " مجتمع القرن الرابع الهجري في

مؤلفات التوحيدي" عام 1969م ولم أتمكن من الحصول عليها، ودراسة لكامل العتوم وهي " نقد الشعر عند أبي حيان التوحيدي".

وقسمت هذه الدّراسة إلى تمهيد وخمسة فصول، أمّا التمهيد فقد جاء في قسمين: القسم الأول تناولت فيه بشكل موجز طبيعة الظروف التي أحاطت بالبيئة البغدادية من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية. والقسم الثاني تناولت فيه بإيجاز شخصية التوحيدي من حيث اسمه ونسبه والظروف التي كونت شخصيته، وأهم أساتذته، ومؤلفاته التي دخلت في موضوع الدِّراسة.

وعرض الفصل الأول البيئة البغدادية من الناحيّة الاجتماعيّة، وتوقف عند الفئات المسيطرة على المجتمع وطبيعة الحياة التي تعيشها كل فئة من حيث الأخلاق والعادات والتقاليد، وطبيعة وسائل اللهو والترفيه، والأطعمة والأشربة الشائعة في ذلك العصر، وتوقف عند المرأة البغدادية، وعند فئة الشطار والعيارين الذين تمردوا على واقعهم المعيشي.

وتحدث الفصل الثاني عن الأوضاع السياسية التي سادت بغداد، وكان على رأس هذه الأوضاع الخليفة والأمراء والوزراء، وتوقف عند أهم المظاهر السياسية وما ترتب عليها من مصادرات، وبروز للحركات الطائفية والانفصالية والشعوبية.

وتوقف الفصل الثالث عند النَّاحية الاقتصادية التي تأثرت بالنَّاحية السياسية، ونتيجة لتدهور الأوضاع الاقتصادية ظهر الفقر، التسول، والتطفيل، والزهد، والتصوف، وذكرت أهم الموارد الماليّة للدولة.

ودرس الفصل الرابع الحركة العلمية في بغداد، من حيث دراسة مظاهر النضج العلمي والثقافي كالمجالس العلمية الخاصة ومجالس الخلفاء والوزراء، والمناظرات والمحاورات التي كانت تجري في هذه المجالس، والتَّرجمة، والامتزاج العلمي.

وتناول الفصل الخامس الحركة الدِّينية، من حيث عرضه لأهم الفرق الدِّينية المنتشرة في بغداد وهي: السُّنَّة، والمعتزلة، والزندقة، والتشيّع، والزُّهد والتصوف، التي كانت بنظر التوحيدي من أحد أسباب انحطاط بغداد سياسيا واقتصاديا.

وأخـيرا لا يسـعني إلاّ أن أعـترف بالجميل والعرفان لصاحب الفضل في تنبيهي لجهد أبي حيان في تصويره للبيئة البغداديّة خاصة والعصر عامة، وساهم في إنجاز هذا العمل المتواضع "الأستاذ الدكتور سمير الدروبي" الذي لم يبخلّ علي بوقته وجهده وخبرته طيلة مراحل البحث، والله من وراء القصد.

2.1 بغداد في القرن الرابع الهجري

شهدت بغداد حالة من الفوضى والاضطراب السياسي، إذ خضعت في سـنة 334هـ لسيطرة بني بويه، الذين عاثوا فيها فسادا وخرابا، وعبثوا بالخلفاء المسلمين، من عزل وتولية وسمل للأعين وقتل، فأمسى الخليفة العباسي أشبه بصاحب منصب ديني، فهو يملك الاسم فقط من غير تصرف في المُلك والدّولة التي أصبحت مقاديرها بيد البويهيين *.[1]

وأخـذت أمـور الدّولة في بغداد تنهار شيئا فشيئا، وقد انتشرت في أرجائها الثورات والفتن، مثل ثورة القرامطة[2]، والعيّارين والشطّار، الذين استغلوا الظروف السِّياسية المضطربة بشن غارات النّهب والسّلب[3]، وتبع ذلك ثورات العامة التي قامت بسبب التأزم الاقتصادي الذي تمثل في موجات الغلاء التي داهمت بغداد، وارتفعت وتيرة تظلم النَّاس من البويهيين، الذين كثيرا ما كانوا يقتتلون مع العامة، ويقتل من الفريقين خلق كثير، وبسب سوء سيرة الوزراء الذين عاثوا في البلاد فسادا وخرابا، وازداد نهبهم لأموال النَّاس[4]، وكما حدثت صراعات مذهبيـّة وخاصة بين السُّنَّة والشِّيعة والحنابلة، مما أدى إلى خراب بغداد وتدهور أوضاعها[5].

وفوق ذلك كله ازداد أمر الخلافة سوءاً، حيث لم يبقَ للخليفة وزير بل أصبح لـه كاتب يُدبر اقطاعه واخراجاته، وصارت الوزارة لمعز الدَّولة الأمير البويهي الذي استولى على بغداد واستوزر لنفسه من يريد،[6] وقد غالى بنو بويه في طغيانهم و جبروتهم، ونالوا بها حتى أقرب المقربين إليهم من الوزراء.[7]

وينقل التوحيدي إلينا صورة للأوضاع السِّياسية السائدة في بغداد قائلا: "وقد بلينا بهذا الدّهر الخالي من الدّيانين الذين يصلحون أنفسهم، ويصلحون غيرهم

بفضـــل صلاحهم الخاوي من الكـــرام، الذين كانـــوا يتسعون في أمَوالهم ويوسعون علــى غيرهم من سعيـــهم [8]". وهذا الواقع المؤلم وما تبعه من فساد في العلاقات بيـــن أهله وصفه بقوله:"إنّ الدين قد أخلق لبوسه، وأوحش مأنوسه، واقتلع مغروسه وصار المنكر معروفا، والمعروف منكرا، وعاد كلُّ شيء إلى كدره وخاثره وفاسده وضـــائره... [9]" فهـــو أشار إلى انقلاب الموازين في بغداد، ونرى كذلك الامر أنّ العَّامة لم تتورع عن الخوضِ في القضايا السِّياسيَّة، كما خاضت فيها الخاصَّة.[10]

وركّـــز على حال الأمراء والوزراء، الذين يطمعون في المناصب الرسميّة، ويكيدون لبعضهم بعضاً، من خلال إشارته للمؤامرات التي كانت تُحاكُ ضدّ الوزير ابـــن سعدان أثناء وزارته، ووجه إليه الكثير من النصائح التي يحذره فيها من الذين يحيكون المؤامرات من أجل إبعاده عن الوزارة[11].

ويشير أيضا إلى ظلم وبغي بعض الوزراء الذين طار بهم جناح اللَّهو والعزف والشـــرب والقصـــف فأهملوا أمور الرعيّة، وارتكـــبوا أبشـــع الجرائم بهم دون أي ذنب[12].

ومـــن الأوضاع السِّياسية التي نقلها لنا التوحيدي في كتابة الإمتاع والمؤانسة هـــي معاناة بغداد من هجوم الروم على الثغور الإسلامية، ويرسم لنا بقلمه أثر هذا الهجـــوم علـــى العامة في بغداد، فَقَدْ أثارَ الرُّعب والفزع في نفوسهم، فتوترت بذلك أُســـس العلاقـــة بيـــن الرعيّة والخليفة ، وتصدَّع النِّظام الاجتماعي بانقسام الخاصّة والعامّـــة، واستغلال العيارين ذلك التّصدع بشن غارات النّهب والسّلب، في حين أنَّ عـــز الدَّولة كان مشغولا في مدينة الكوفة في القصف والعزف واللهو، مُعْرِضا عن المصالح الدِّينية والسياسية[13]، بهذا الحديث ينتقد التوحيدي حكّام وأمراء بغداد الذين لا تهمهم مصالح الرعيّة بقدَر ما تهمهم مصالحهم الشخصيّة.

وانعكست هذه الأوضاع على آثار الكتّاب والأدباء، الذين تأثروا بها وكان من هـــؤلاء التوحـــيدي، ونلمـــح ذلـــك جلـــيّاً فـــي مؤلفاته ومسامراته مع الوزير ابن ســـعدان الذي نقل له صورة تقريبيّة لحال المجتمع في بغداد في تلك الحقبة الزمنيّة وما تعانيه من اضطراب وفوضى في جميع النَّواحي.

ونجده يصدرُ أحكاما في رجال سياسيين اشتهروا في عصره كالصّاحب بن عباد، وابن العميد، وابن سعدان [14].

ولقد تأثرت الأحول الاقتصادية والاجتماعية بالحالة السياسية في بغداد، إذ بلغ الحــال من الشدة والضّيق، وقلّة ذات اليد، إلى تكـــرار ارتفاع الأسعار، حتى بيــع كــر[15] الحــنّطة بمائة وثلاثين دينارا، وبثلاثمائة وستة عشر دينارا، فاشتد القحط، وأكــل الــنّاس الميــتات، ووقع الفناء فيهم، حتى دُفِنَ الجماعة منّهم بقبر واحد دون غســل ولا صلاة، وروي أنَّ النّاس قد أكلت الكلاب، وصار الجراد زادا لهم، فبيع كلّ رطلٍ منه بدرهم[16]، وكما أن أحد التّجار باع في سنة 334 هـ في وقت اشتداد الغــلاء علــى معز الدّولة وهو محاصر، مقيم بظاهر بغداد من الجانب الغربي من بغداد كرا معدّلاً من الحنّطة بعشرين ألف درهم[17] كما تشير أيضا إلى أن العامّة لم تســتكن لهــذه الموجات، بل ثارت وضجّت، وتجمّعت حول باب الخليفة حتى أنها دخلــت مســجد الخليفة أثناء الصلاة، وزاحمت ممثّلي السلطة، ونهبت أيضا دكاكين الدقاقين[18].

وعانــت بغداد من فساد في الوضعين الاقتصادي والاجتماعي، ونتيجة للتباين الطبقي الذي نشأ من سوء توزيع الثروة، فنجد الخاصّة تحيا حياة الترف والنّعيم والــبــذخ[19]، فـــي حين أن العامّة تعيش حياة الضنك والشغف، وتعاني من الجوع وقلّة ذات اليد في الحصول على قوت يومها، وما يسد رمقها، ويستر عورتها.[20]

وقــد لجــأ أصحاب السلطة إلى الاعتداء على الرعيّة ومصادرة أموالها سدا لحاجــاتهم الإســرافيّة للمال، مما دعا النّاس إلى الظهور بمظهر الفاقة، وذم الزمان وأهله، والشكوى من الظلم، وظهرت الدعوة إلى التصوف والزهد والتقشف[21].

وظهــرت الحــروب الأهلــية، وغارات العيار والشطار، بسبب سوء استعمال الســلطة والإخــلال بالأمــن وســوء توزيع الثروات[22]، ومن هنا نرى أن الحالة الاقتصـــادية والاجتماعية شبيهة بالحالة السياسية، وكانت جميع الأموال بيد آل بويه، الذيــن أخذوا بزمام الأمور والتّحكم بالبلاد ورقاب العباد، فأتاحوا لأنفسهم أمر جباية

الأمـــوال، والعبـــث بالمناصب، واستغلالها عن طريق الرشوة، والتّلاعب بمقدّرات حيـــاة المواطنين[23].

و يعطيـــنا التوحـــيدي فكـــرة عن بعض الأمور الشائعة في بغداد، ومنها أن الخلفـــاء والوزراء والعلماء والأدباء والمتصوفين والعامّة ولعوا بمجالس الغناء التي انتشـــرت في أرجائها، وأشار أيضا إلى ظاهرة انتشار الجواري والغلمان وعشقهم، وإلـــى ظاهـــرة الإيمـــان بالطالع وحركة النّجوم على ما سيتضح لنا في الصفحات التالية.

ونجد في هذه الحقبة، وفي هذه الظروف المضطربة، والانحطاط السياسي، رقياً في الحياة العقليّة والعلميّة [24]، فقد نشطت الحركة الثقافيّة والعلميّة في بغداد في هـــذا القـــرن بعـــد أن تفاعلت مع الأمم الأخرى وتمازجت معها واستوعبت ثقافتها واحـــتوتها وطبعتها بطابعها، ونرى هذا النضج في حلقات العلم والأدب التي وجدت فـــي بلاطات الحكام والوزراء مثل حلقة الوزير المهلّبي، والوزير ابن سعدان، وفي دور العلمـــاء والأدبـــاء، مـــثل مجلس أبي سليـــمان المنطقي شيخ رجال الفكر في بغـــداد[25]. ويطلعنا التوحيدي على هذه المجالس والمحاورات في مؤلفاته.

وكـــان لابـــن ســـعدان منـــتدى في وزارته يجمع فيه كبار العلماء والأدباء والشـــعراء[26]، ويلمّح إلى وجود المفاخرة بين الوزراء والأمراء بما يلوذ إليهم من الأدباء والشعراء كما يفتخر ابن سعدان بجماعته قائلا "والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير، وإنهم لأعيان أهل الفضل، وسادة ذوي العقل".[27]

وقـــد نشـــطت حـــركة التّرجمة والعناية بالعلوم الفلسفية والمنطقية في بغداد نشاطا ملموسا، وذكر التوحيدي أن من أكبر فلاسفتها أبا سليمان المنطقي، وأبا علي بـــن زرعة النصراني الذي اشتهر بالمنطق وعلوم الفلسفة والنّقل إلى العربيّة، ولقد اختصـــر كـــتاب آرسطو في المعمور من الأرض، ومات ببغداد سنة 398هـــ وقال فـــيه:" إنـــه كـــان حسن التّرجمة، صحيح النّقل كثير الرجـــوع إلى الكتب، محمود النّقل."[28]

وعلــى الــرُّغم من الفوضى التي عمّت بغداد إلاّ أنّها ظلّت العاصمة الكبرى، ومحط أنظار جميع العلماء والأدباء.

3.1 أبو حيان التوحيدي ،شخصيته، ومصادر دراسته

نشــأ التوحــيدي في هذه الفترة، وفي هذه البيئة، وعاصر رقي الحياة العقلية، والتــي نشــطت فــيها الحركة الأدبيّة والعلميّة، وشهدت تنوع الثقافات والحركات الفكريّة، ونلمس هذا الرقي والتقدّم في مؤلفاته النثريّة التي وصلت إلينا، وعده بعض الباحثيــن أنه النّاطق بلسان الثقافة العربيّة في القرن الرابع الهجري، ويعدُ من أبرز كتّاب النثر العربي القديم.

واســمه"علــي بن محمد بن العباس"[29]وقيل إنه فارسي الأصل من شيراز أو نيســابور أو واســط، وزعــم بعض الباحثين إنه عربي بغدادي الأصل والنشأة وقد أمضى معظم حياته في بغداد[30]، وإن غادرها بعض الوقت لضيق الحال به متوجها إلى شيراز، ولكن أغلب الروايات تدعي بأنّه عربي الأصل وليس فارسيا، وذلك لأنّ مؤلفاتــه ليس فيها ما يشير إلى فارسيته، إضافة إلى أنّه لم يتقنْ اللُّغَة الفارسية[31]، وممــا يؤيــد عروبته تعصبه للعرب الذي يتضح من خلال رده على الجيهاني[32]، ويــرى محمــد كرد علي "إنه ليس في ثقافته أثر ظاهر للفارسية يصح للحكم على نسبه"[33].

واشــتهر بكنيــته ولقــبه، اللتين وردتا في كتاب الإمتاع والمؤانسة، ومثالب الوزيرين والمقابسات، ولم يُعثر على أيّة إشارة إلى اسمه أو اسم أبيه، أو أيّة إشارة إلى نسبه وأصله وأسرته في مؤلفاته، وعلى الرُّغم من إنه تحدث عن صنوف النّاس من عامّة وخاصّة، وملوك وسوقه، ونجد أن كنيته ولقبه قد غلبا على اسمه[34].

واختلف المترجمون له في سبب لقبه "التوحيدي" فقيل: إنّ والده أو أحد أجداده كان يبيع نوعا من التمر ببغداد، "يُسمّى التوحيد"[35]، وزعم بعض الباحثين أنه نسبة إلــى المعتزلة الذين يسمّون أنفسهم أهل العدل والتوحيد[36]. لكننا نجد التوحيدي يذمُّ المعتزلة في أكثر من موضع في مؤلفاته[37]، فكيف يمكن أن ينتسب إليــهم، فالرأي الأول هو الرأي الأرجح لهذا اللقب.

وأمّا بالنسبة إلى تاريخ ولادته التي أغفلتها كتب التّراجم القديمة، إلاّ أن رسالته التـــي أرســـلها إلـــى القاضي أبي سهل علي بن أحمد يعتذر فيها عن إحراقه لكتبه، وذكـــرها يـــاقوت في معجمه تُحدِّد سنة ولادته على وجه التقريب، فهي مؤرخة في ســـنة 400هـــ قـــائلا: "... وبعـــدُ فقد أصبحتُ هَامَةَ اليومِ أو غدٍ فإنّي في عشر التّسعين، وهل لي بَعْدَ الكِبْرة والعجز أمل في حياة لذيذة..."[38].ومن هنا نستنتج أنه ولد حوالي سنة 310هـــ، وأمّا سنة وفاته ففيها أيضا اختلاف، ولكن أغلب الروايات أجمعت بأنه توفي سنة 410هـــ على وجه التقريب[39].

ومـــثلما اختلف في سنتي ولادته ووفاته، أُختلف في عقيدته وديانته التي شكك فـــيها مـــن قبل الذين ترجموا لحياته، وألصقوا به تهمة الزندقة وسوء العقيدة وفساد الدّيـــن، إذ عـــدّه ابن الجوزي(ت597)، من أحد زنادقة الإسلام الثلاثة وهم " ابن الراوندي وأبو العلاء المعري، والتوحيدي، وشرهم على الإسلام التـــوحيدي لأنهما صـــرّحـــا وهو لـــم يصرّح."[40] وأما ياقوت فكان له رأى مخالف لذلك فيدّعي بأنه صـــوفي الســـمت والهيـــئة فيقول " فهو شيخ في الصوفيّة وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاســـفة "[41] وقـــد قال محمد كرد علي أيضا" وكان التوحيدي من آهل الباطن أي الصـــوفية "[42]، كمـــا أن تشـــربه للتصوف دفعه وحفزه إلى الحج ماشيـــا على قلة الـــزاد وانعـــدام الـــراحلة[43]، ومـــن هنا نرى أن التوحيدي كان معجبا بالمذهب الصوفي، وبعيداً عن الزندقة والاعتزال.

عـــاش التوحـــيدي فـــي كـــنف عمه الذي أساء معاملته[44] فعانى من البؤس والشـــقاء، وقلة الحيلة في الحصول على المال، وقد احترف مهنة الوراقة التي أطلق علـــيها حـــرفة الشؤم[45]، فهي مهنة شاقة، احترفها بعض العلماء والأدباء في القرن الـــرابع الهجري، ولا تَدُرُّ سوى القليل من المال، ولم يكن له مرتزق من السلطان، وحـــاول غـــير مـــرة التواؤم مع السُّلطة في بغداد وغيرها، ولكنه يعترف ويصرح بصعوبة ذلك قائلا:" وقلَّ من يجهد جهده في التّقرب إلى رئيس أو وزير إلا جد في إبعـــاده من مرامه كل صغير وكبير، هذا لأن الزمان استحال عن المعهود وجفا عن القيام بوظائف الدّيانات، وعـــادات أهل المروءات لأمور شرحها يطول"[46].

فــنراه حاول الاتصال بالوزراء كعادة الأدباء والشعراء ولكنّه فشل بذلك ولعل السـبب يعـود إلـى أنه غِرٌ لا هيئة له في لقاء الكبراء ومحاورة الوزراء، واتصل بظـروف غامضــة بالوزير أبي محمد الحسن بن محمد المهلبي (291-352 هـ) الـذي تولـى الوزارة لمعز الدولة سنة 339 هـ ، ولكنّ المهلبي غضب عليه ونفاه عـن بغـداد لسوء عقيدته[47]، وعندما تراءى له نبأ مكارم ابن العميد والصاحب بن عـبّاد مـن وزراء آل بويـه في الشرق قصدهما في بلديهما، ولكنّه لم يحظ منهما بطـائل، فقـد عرض الصاحب عليه نسخ ثلاثين مجلدة من رسائله، قدَّمها له ناظر خـزانة كتـبه، ولكن التوحيدي أبى نسخها[48]، لقد هجر بغداد من أجل التخلص من حـرفة الوراقة ورغبة في البحث عن السعادة، فيجد هذه الحرفة أمامه في الري، ما هذا الحظ السيئ الذي يطارده أينما يذهب، وعندما عاد إلى بغداد هجا الصاحب وابن العميد في كتابه "مثالب الوزيرين".

ونجد أبا حيان قد فشل في تبديل حاله من الأسوأ إلى الأحسن، ويعود ذلك إلى عـدم معرفـته بطـرق مخاطبة النّاس في المجالس العالية، واعتداده بنفسه وعلمه وثقافـته، فقد انتقل فجأة من مجالس الوراقين في السوق إلى مجالس الأدب و الثقافة عند الوزراء[49].

ونـرى جمـيع الدلائل تشير إلى أن التوحيدي من الطبقات الدُّنيا في المجتمع، ومن أسرة مغمورة ربُّ بيتها يبيع التمر[50]، ويتضح فقره وشكواه من هذا في أكثر من موضع في مؤلفاته، فقد عاش وحيدا في هذه الدُّنيا لا ولد ولا زوجه ولا صديق، وبهـذا قـال عـن نفسه بأنه فَقَدَ كل شيء في عهد مبكر، وفَقَدَ كلّ مؤنس وصاحب ومـرفق ومسعف:" فقد أمسيت غريب الحال، غريب اللّفظ، غريب النِّحلة، وغريب الخلـق، مستأنسا بالوحشة، قانعا بالوحدة" [51]، فهو دائم الشكوى والحزن والجزع، وهـاهو يسـتقبل العيد بالحزن والعذاب والآلام الشديدة، فلا يجد من يبث له شكواه، وينصر بلوه فيقول [52]:

ليهنأ العيـدَ مَنْ له وطـنُ يأوي إليه ومَنْ له سكَنُ

ومَنْ له الأهلُ والبنونَ ومَنْ بلادُه منه منــزْلٌ قَمِــنُ
لا المُفْرَدِين المُطرّدين ومَنْ يعتادُه الهمُّ فيه والحَــزَنُ .

شخصيّته :

يظهــر التوحــيدي بشخصيته الأديب الفقير ، الذي يعاني من الشعور بالخيبة والخذلان، وفقدان الأمل، فقد انتقل من محاولة الاتصال بالطبقة العليا الأرستقراطية إلــى التصــوف، والزُّهد في الدُّنيا، وهــذا الشيء يدلُّ على أنه وصل إلــى مرحلة اليأس والشؤم(53)، فيظهر على أنه"صوفي السَّمت والهيئة، رثُّ اللّباس نابي المظهر لا هيــئة له عند ملاقــاة الكُبراء، ومقــابلة الوزراء" (54)، ونجده يدعو إلى الزُّهد، ويحذِّرُ نفسه من الدّنيا ومتعها قائلا: " يا هذا أعلى الدُّنيا تعرج ؟ وفي طلبها تلجج ، وبنــيرانها تؤجــج ؟ لِــمَ هذا ؟ وكيف به ؟ أين حصافتك وبصيرتك ؟ وأين نظرك واختــبارك ؟ وأين استنباطك وفطنتك ؟... أما ترى فتنها وليس فيها معنى إلاّ وفيه مــبكى، ولا ملهــى إلاّ وعــنده مهــوى، ولا مرعى إلاّ ودونه (مَثْوَى)، أما تــرى صروفها وفي صروفها حتوفها... " (55)

ويقول زكي مبارك واصفا شخصيته:" إنّه يمتاز بشخصيتين مختلفتين بعض الاخــتلاف الأولى هي شخصية الأديب الذي يتحدث عن نفسه، وعن أشجانه، وعن عتــبه على النّاس وتبرُّمه بالحياة، والأخرى الباحث الذي ينقل الصور المختلفة كما يفهــم معاصروه ضروب العلوم والأدب، واشتراكه بالمباحثات العلميّة والمناظرات الفلســفيّة، قدّمهــا مؤرخــا بــذلك مرحله من مراحــل التّطور العقلي والعلمي في عصره" (56).

ويعــدُّ التوحــيدي مــن ذوي الشخصيات المضطربة القلقة، وصاحب مزاج سوداوي، هائماً في لُجة من المآسي والأحزان، وكان كثير التنقل والترحال والأسفار ســواء من أجل العلم أو الرزق(57). وينعته صديقه أبو الوفاء المهندس بأنه شخصية تكــاد تكــون فــريدة من نوعها بما تحمله من تناقضات وازدواجية وقلق(58)، وقال ياقوت في شخصيته "إنه سخيف اللّسان قليل الرضا عند الإساءة إلية والإحسان، الذّم شأنه، الثّلب دكانه" (59).

ومن الأدلة على مزاجه وتشاؤمه إقدامه على إحراق كتبه التي رأى أنها لا جـدوى منها، فيقول في رسالته: "على أنِّي جمعتُ أكثرها للنَّاس ولطلبِ المثالَةِ منهُم ولعقــد الرِّياسة بينهم، ولمدِّ الجاه عنْدهم ، فحُرِمت ذلك كلَّهُ" [60] فهذه هي شخصية التوحــيدي المتناقضة، التي تبحث عن النَّعيم والترف والفوز بالغنى والسعادة والجاه لان هــذه العاجلة كما يقول: "محبوبة والرَّفاهية مطلوبة ، والمكانة عند الوزراء بكل حــول وقــوة مخطوبــة، والدُّنــيا حلوة خضرة وعذبة نضرة، ومن شفَّ أملُه شقَّ عملُــه...[61] " تارة نجده يلجأ إلى اليأس والقنوط عندما تعانده الدّنيا في عدم تحقيق ما يصبو إليه فيلجأ إلى الزهد والتصوف ليهرب منها.

ثقافته :

حــوى التوحــيدي ثقافــة متنوعة ترفد من شتى العلوم والمعارف، من الأدب والــنحو والشــعر واللغــة والفقه والحديث والفلسفة والمنطق والحيوان، فهو واسع الإطلاع والمعرفة والدراية[62]، ومن أسباب هذه الثقافة المتنوعة حرفة الوراقة "نسخ الكتب" التي احترفها، وحضوره المجالس الأدبية والثقافية والفلسفية التي كان يعقدها بعض الوزراء والأدباء في عصره.

يعدّ التوحيدي من ألمع مفكري العربيّة وأدبائها في القرن الرابع الهجري ويعده آدم مــتز من: "أعظم كتّاب النثر العربي على الإطلاق"[63]ويصفه ياقوت بأنه:" فرد الدّنــيا الــذي لا نظــير له ذكاء وفصاحة ومُكْنَةً، كثير التَّحصيل للعُلُوم في كلِّ فنٍ حَفِظَــهُ، واســع الدِّرايَةِ والرِّوايَةِ" [64]. لقد جمع في كتبه أفانين مختلفة من المعرفة التــي استقاها من الكتب التي قرأها ونسخها بيده فهو لم يكن ناسخا فقط، بل كــان يعــي مــا ينســخ دارسا له[65]. فقد كان لغويا، ونحويا، وشاعرا، وفيلسوفا، وإماما للبلغاء[66].

أساتذته :

ومــن أســاتذته الذيــن درس على أيديهم أبو سيعد السيرافي الذي درس عليه الــنحو، وكذلــك علــي بــن عيسي الرُّماني، ودرس الفقه الشافعي على أبي حامد

المـــروروذي، وأبـــي بكر الشافعي، وفي آخر أيّامه حضر دروس الفلسفة والمنّطق التي كان يلقيها يحي بن عدي، وأبو سليمان المنطقي وغيرهم(67).

أهم مصنفاته:

الإمـــتاع والمؤانســـة: ألفه لأبي الوفاء المهندس، الذي طلب منه أن ينقل إليه الحديث الذي جرى بينه وبين الوزير ابن سعدان، وجمع فيه موضوعات متنوعة لا تخضـــع إلى ترتيب أو تبويب، وهو مقسّم إلى ليال مرقمة، تجمع شتى أنواع المعـــرفة والعلـــوم، مـــن نحو ولغة شعر وفلسفة وفقه وحديث و أمثال عربيّة ومترجمة من اللُّغات الأخـــرى(68).

البصـــائر والذخائـــر: ألفـــه مـــا بين 350هـــ و365هـــ ، ويقع في عشرة مجلـــدات لا تخضـــع إلـــى ترتيب، وهو عبارة عن نقولات وأخبار من عصور مخـــتلفة، ومزج فيه بين الجد والهزل، وكان ذلك أكبر ما أخذ عليه(69)، فقال له بعـــض أهـــل الشـــرف والأدب: "إنـــك جمعت بين الفضل والهزل، وبين العلم والجهل، ويعد كتاب أدب ولغة وحديث وتاريخ وتفسير (70).

الصـــداقة والصديق: نسخ وبُيّض عام400هـــ بناء على رغبة صديقه وولي نعمـــته الوزيـــر ابن سعدان، بعد أن سمع منه بمدينة السّلام كلاما في الصداقة، وسئل إثباته ففعل ذلك، وجمع فيه كثيرا ما قالته العرب، ومما قاله أهل الحكماء و الفضلاء، والأعاجم من شعر و نثر في الصديق، والكتاب يدور حول موضوع واحد وغير مقسم (71).

مثالب الوزيرين: يعدُّ تحفة أدبية ثمينة أودعها التوحيدي على حد تعبيره "نفسه الغزيرة ولفظة الطويل والقصير"، وألفه في ذم الوزيرين الصّاحب بن عباد وابن العميد، يسميه ياقوت الحموي: مثالب الوزرين، أو أخـــلاق الوزيرين(72) .

المقابســـات: وضعه بعد أن تقدَّم به العمر، ويعدّ من أهم مؤلفاته، وهو عبارة عـــن أحاديث ومحاورات فلسفية بين عدد من العلماء والفلاسفة والأدباء سمعها أبـــو حيان وسجلها ، ونلمح فيه مختاراتٍ من كتب فلاسفة المسلمين، ومن الكتب

المترجمة عن الفلسفة اليونانية وشروحها، ونجد بعضها عبارة عن دروس أملاها أبو سليمان المنطقي من كتاب أو صحيـــفة[73].

الإشـــارات الإلهـــية: كتـــبه وألفـــه في حدود سنة 381هــ، وهو عبارة عن مجموعـــة مـــن الرسائل تقوم على المناجاة والدُّعاء، ومخاطبة شخص ما، ربما يكون هو نفسه، وتتبع هذه الرسائل بناءاً متشابها في التركيب، ويقوم على ركنين أساســـيين همـــا: الدّعاء والمناجاة، إذ تبدأ الرسالة بالدعاء وتنتهي به، ويبث في ثنايا صفحات الكتاب الشكوى من الحال والزمان، ويعدُّ من الكتب الصوفيّة.[74]

الهوامـــل والشـــوامل: وهـــو عبارة عن أسئلة موجّهة من أبي حيان وسمّاها الهوامـــل، وأجوبـــة من مسكويه سمّاها الشوامل ،وتعني الهوامل الإبل السائمة ويهملهـــا صاحبها لترعى، والشوامل الحيوانات التي تضبط هذه الإبل وتجمعها، وقـــد اســـتعار التوحـــيدي كلمة الهوامل لأسئلته المبعثرة في شتى أنواع العلوم والمعـــارف وتنـــتظر الجـــواب، واستعار مسكويه كلمة الشوامل للإجابات التي ضـــبطت هوامـــل التوحيدي، وأُلف هذا الكتاب في حدود سنة 375 هــ ويشمل على أسئلة فلسفيَّة ولُغويَّة ونحويَّة وأخلاقيَّة وطبيعيَّة[75].

4.1 فئات المجتمع

تعـــددت عناصـــر السكّان، واختلفت أجناسهم وطوائفهم في العصر العباسي الثانـــي، إذ كـــان ســـكان بغداد خليطا من أجناس مختلفة، من الأتراك، والأرمن والأكـــراد والعـــرب والفـــرس، والدَّيلـــم، وهذه الأجناس فيها المسلمون واليهود والنصـــارى، فيذكر التوحيدي" أنَّ الحالَ استحالت عجما كسروية وقيصرية [76]" ومع مرور الزمن انصهرت هذه الأجناس في المجتمع البغدادي، وتأثرت بعاداته وتقاليده.

ينقســـم المجـــتمع في العادة إلى فئتين اجتماعيتين متفاوتتين، فيما بينهما تفاوتا كبيرا،وهما الخاصة والعامة، وذكر التوحيدي أن هناك طبقة تتوسطهما تسمى أشباه العامة، أو أشباه الخاصة[77]، وكان جُلّ هدفها، الوصول إلى الغنى والجاه من خلال

محاولاتهـا المـتكررة في الاتصال بالطبقة العليا، وهذه الطبقة المتوسطة أو أشباه العامة يمكن أن تكون أحسن حالا من العامّة.

ولعـل مـن المناسبات فيما يتعلق بهذا التقسيم أن نوردَ ما قاله صعصعة بن صـوحان عـندما سـأله معاوية بن أبي سفيان عن النّاس، فقال له:"خلق الله الناس أطوارا، فطائفة للسياسة، وطائفة للفقه والسُّنّة، وطائفة للبأسِ والنَّجدةِ، والآخرون بين ذلك يُكدِّرون الماء، ويَغلُون السعر.[78] " فهو يقسم المجتمع حسب المهن التي كانت معـروفة آنذاك؛ أي الفئة الأولى في المجتمع هي فئة رجال السياسة، والثانية علماء الدّين، والأخرى ذوو النّجدة والشجاعة والنخوة، وآخر فئة لعلّه يقصد بها فئة التُّجار" أصحاب السوق"، وعامّة الشعب.

وقـد سـاند أخـوان الصفا وهم معاصرون للتوحيدي هذا التقسيم مع بعض الاختلاف، فوضعوا الملوك والأمراء والخلفاء في الفئة الأولى، في حين أن موظفي الدّولـة مـن الرؤسـاء والـوزراء والكتّاب وغيرهم في فئة أخرى، وكذلك التّجار والصـنّاع وأصحاب الضياع في فئة، وتوجد فئة للأدباء وأهل العلم والورع وأهل الفضـل مـن العلمـاء والخطباء والشعراء والفقهاء والقضاة ....، وفئة مكوّنة من الدّهاقيـن، ويقولون في نهاية التقسيم: إنّ لكلٍّ فئة من هذه الفئات لها ما يميزها عن الأخرى، من أخلاق وسجايا وطبائع وشمائل ومناقب ومذاهب حميدة [79] .

ويقسـم التوحـيدي المجتمع تقسيما آخر على شكل هرمي، فيضع على رأس الهـرم الملـوك ومـن ثم التُّناء[80]، وأصحاب الضياع، وبعدها التّجار ومن ثمَّ أهل الدّيـن، والكتّاب ومن يجري مجراهم من العلم والأدب، وآخر فئة في السلّم الهرمي أصـحاب المـذاب والتطفيف، فإنهم بنظره "رجرجة بيـن النّـاس، لا محاسن لهم تذكر، ولا مخازي(مساوئ) فتنتشر" [81]، ومما سبق يتّضح أن المجتمع ينقسم حسب الرّياسات والمِهن .

ويذكـر التوحـيدي فـي موضع آخر أن المجتمع ينقسم إلى أغنياء وفقراء وأوسـاط، ويقول: "إنّ أكثر الخير مع الأوساط، وأكثر الشر مع الأغنياء" [82]، فنراه يقسّـمه على أساس مادي، في حين أن الجاحظ يقسّم المجتمع إلى فئتين اجتماعيتين

همـــا: فـــئة الخاصّة، وفئة العامّة، قائلا: "وليس للخاصّة قوة بالعامّةِ، ولا للعليّة قوة علـــى الأرذال.(83)" فيقسم المجتمع على أساس الثروة والمال، فالخاصة تمتلك المال ولا شأن لها بالعامة، وقد يكون هذا التقسيم شائعا في جميع المجتمعات والأزمان.

ومما سبق يمكن أن نستنتج الأسباب التي أدّت إلى تكوين طبقات المجتمع، وقد تكـــون "الحـــرفة" التي يحترفها الشخص من أهم هذه الأسباب، فهناك الحرف التي تـــرفع من شأن الإنسان، وفي المقابل توجد الحرفة التي تجعله في الحضيض، لقد كـــان الذين يعملون في السلطة من الوزراء والقضاة والحجّاب إلى أصغر جندي في الجيش يُعدُّون من ذوي الجاه، ويقابلون بتبجيل واحترامٍ من قبل العامة، في حين أن أربـــاب الحـــرف الصغيرة والتي تدرُّ أموالا ضئيلة تكون مبتذلة ومهانة، ونلمح هذا الشيء من خلال التقسيم الهرمي الذي قدَّمه التوحيدي سابقا(84).

والعـــامل الثانـــي هـــو"المـــال والثروة"، والذي يساهم في تحديد مستوى الفرد الاجتماعي في بغداد، فنجد الغني الذي يعيش حياة ترف ونعيم في جميع النواحي من مـــأكل وملـــبس ومسكن، ونجد الفقير يحيا حياة البؤس والشقاء، ويقول الجاحظ في ذلك: "ألا ترون أن الأموال كثيرا ما تكون عند الكتّاب وعند أصحاب الجوهر، وعند أصـــحاب الوشـــي والأنماط وعند الصيارفة، وعند البحريين، والبصريين والجلاّب "المستوردين" والبيازرة أيسر ممن ابتاع منهم"(85)،ونجد صاحبنا في عدة مواضع من مؤلفاته يقابل بين الغني والفقير(86).

والعـــامل الثالـــث هو العلم والأدب، فهما يعطيان صاحبهما مركزا متفوقا(87)، وتجعلانـــه من ذوي الطبقة الخاصة، ويقول أبو حيان على لسان أستاذه أبي سليمان المنطقـــي: إن" فضيحة حسيب لا أدب له، أشنع وأفضع من فضيحة أديب لا حسب لـــــه"(88).فهـــو يرى أن الأدب والعلم يقوّمان نفس صاحبهما، ويكمّلان ذاته؛ فعندما يشـــعر الإنسان بأن أصله وضيع فيتلافى ذلك بالعلم والأدب فيسد كل خلل به، وأما الذي يشعر بشرف والديه و حسبهما فإنه يتكل عليهما، فلا يهتم بالعلم والأدب، ونقل لنا أبو حيان جدالا بين إنسان من أنكاد السوق وبين واحد من ضربائه قائلا:" شرفك ميـــت وشرفي حي، وشرفك أخرس، وشرفي ناطق، وشرفك أعمى وشرفي بصير"

وسئل أبي سليمان عن معنى هذه العبارات فأجاب" إني بنفسي على هذه الفضائل الشريفة، وأنت بنفسك على أضدادها لا تحيا ولا تنطق ولا تبصر"[89]، وتعيش على مهنة غيرك، ويشير في موضع آخر بأنّ كثيرا من النّاس يظنّون بأنفسهم أنّهم خاصّة من ناحية العقل، وذلك لأنّهم يعتقدون أشياء ممزوجة مشوبة مختلطة[90].

لقد كان تباعد الطبقات من أبرز مظاهر الاضطراب السياسي والاجتماعي في بغداد، وبهذا تفشى الاستغلال والتّرف والبذخ في الطبقات العليا على حساب الطبقات الدُنيا، ويعبر التوحيدي عن ذلك بقوله:"فكيف اليوم وقد استحالت الحال عجماء، وملك الغنى والثراء الرؤساء العلماء، وقلّ الخائض فيما كسب زيادة، أو نفي نقيصة، وأورث عزاً وأعقب فوزاً."[91]

ويمكننا أن نقسم المجتمع البغدادي إلى فئتين هما الخاصة والعامة تشتمل الفئة الأولى الخلفاء والأمراء والوزراء والولاة والقضاة والقوّاد، أي رجال الدّولة من أكبر عامل فيها إلى أصغر موظف، كما تضمُّ أيضا خدم الخليفة وجواريه وغلمانه، وأصحاب الإقطاعات والأشراف ورؤوس التجار[92]، وأمّا فئة العامة فتشمل باقي فئات الشعب، الذين ليس لهم علاقة بالسلطة، كصغار الفلاحين والعمّال والتّجار والصنّاع والملاّك وأصحاب الحرف والرقيق، والعلماء الذين ابتعدوا عن بلاط الخليفة[93]. وفي العادة تتجمع هذه الفئة في الأماكن القريبة من المساجد وفي الطرقات العامة[94].

الخاصة :

وتمثل هذه الفئة السلطة العليا في الدّولة، وتستولي على جميع الأمور، وكان الخليفة على رأسها، فهو الذي يمتلك السلطة والمال في آن واحد، وقد أعطته التشريعات الفقهيّة حقوقا خاصة به، ولا سيّما من حيث المال والأرض، وتجبى إليه أموال الخراج[95]، من سواد العراق وأقاصي الدّولة، وكان قادرا على مصادرة الوزراء وكبار التّجار والملاّكين[96].

كان المال يتدفق على هذه الفئة، ينفقونه بغير حساب هم ونساؤهم وأبناؤهم على الطّعام والشراب واللهو، وشراء الجواري والغلمان من سود وبيض، فيحكى أنَّ خدم الخليفة المقتدر بلغ عشرةَ آلاف خصي من الروم والسودان(97).

ومن نماذج إسراف الخلفاء، التفنن في بناء القصور إذ اغتصب المعتضد منازل الـناس، مـن أجل بناء دار عـزم أن ينتقل إليها في أثنـاء مرضه (98). وكـذلك عضد الدَّولة البويـهي بنى قصرا حوى ثلاثمـائة وستون غرفـة(99)، وتحتوي هذه القصـور على أحسن الفرش والزينة والخـدم والجـواري (100).

أما الوزراء والأمراء ورجال الدّولة فإنهم لم يكونوا أحسن حالا من الخلفاء، فقد أغرقوا في النّعيم والتّرف، لايبالون بالأمانة التي بين أيديهم، ويعطينا التوحيدي فكرة عـن حـال هذه الفئة، من خلال حديثـه عن الأمير عـز الـدّولة(339هـ) الذي غـادر مقـرّ الخلافـة بغداد إلى الكوفة لينعم بلذتي الصيد والغناء، وما يتبعهما من ملذات المأكل والمشرب(101)، وينوه التوحيدي في أكثر من موضع بأنَّ بعض رجال الدّولـة سـواء مـن الخلفـاء أوالأمـراء يؤثـرون اللّذة والانهماك في الشّهوات، والاسترسـال فـي هوى النّفوس، ويصور هذا المظهر من خلال حديثة عن كسرى انوشـروان، الذي عندما تقلّد المُلك عكف على الصبوح والغبوق(102)، ولعله يقصد بهـذه الصـورة خلفـاء وحكّام بغداد، وتجنّب ذكرهم خوفا على نفسه من جَوْرهم وظلمهم .

فهـذا الوزير المهلبي الذي وزّع في ليلة من الليالي على ندمائه، وعلى جماعة كـانوا حضـورا معه، من مغنين ومُلَهين وغيرهم من الدَّراهم والثياب ما يبلغ قيمة الجمـيع خمسة آلاف دينار، ووهب لأصدقائه خمسة آلاف درهم(103). وهذا الوزير ابـن سعدان(ت 375هـ) الذي وصفه بأنه "ملك الدّرهم والدّينار، والذهب والفضة، والثـياب العزيـزة والخلـع النفيسـة، والخيل العِتاق، والمراكب الثقال، والغلمان والجواري". (104)"

أمـا الأشـراف والأغنـياء المقرّبون للخلفاء فهم يحيون حياة يعمّها البذخ والترف، ولا تقل عن حياة الخلفاء والوزراء، ويشير التوحيدي إلى أن أحد أصحاب

الخلـيفة دعا أحد المتصوفين إلى مائدته، واصفا له ما لذّ وطاب من الطّعام الفاخر، الـذي تمتلكه هذه الفئة، ولكن الصوفي يفضل الآدم على طعامه [105]؛ أي أن العامة تفتقر إلى مثل هذا الطعام. وأورد أبو حيان مظهرا آخر من مظاهر ترف هذه الفئة التـي لـم تعـرف الحرمان، ولم تكابد مشقة في الحصول على المال ولقمة العيش، ويرويه على شكل حوار جرى بين رجلين أحدهما يذمُّ الغناء ويفضل الطّعام قائلاً : "فالطّعـام الرقـيق أعجـب إلي من الغناء"، في حين أن الآخر يفضّل الغناء فقال : "قصدت إلى أرقى شيء خلقه الله وألينه على الأذن والقلب، وأظهره للسرور والفرح وأتقاه للهم والحزن فتطرب له النفس [106]".

ويُبرز لنا التوحيدي مظهرا آخر من مظاهر التَّباين الطبقي، ويفصح فيه عن مـدى الحالـة التي وصل إليها المجتمع البغدادي، ويتجلى ذلك في خبر المعلم الذي كان يُجلسُ أبناء المياسير في الظلّ وأبناء الفقراء في الشمس، ويقول:" يا أهل الجنّة إبـزقوا على أهل النّار[107]". وفي موضع آخر يؤكد بأن ذنوب الخاصة مهما كانت صغيرة أو كبيرة مغفورة ولا تحاسب عليها، فيقول:"صغار آفاته كبيرة وذنوبه جمّة" وذلك لأن "الغنى ربٌّ غفور[108]". ويشير إلى هذا المعنى من خلال الاستشهاد ببيتي عروة بن الورد[109]:

ويُلْقَى ذا الغنى وله جلالٌ   يكاد فؤاد صاحبه يطيرُ
قليلٌ ذنبه والذنب جـمٌّ   ولكنَّ للغنى ربٌّ غفورُ

وتبيـن هـذه الأبيات حقيقة ما توصل إليه التوحيدي في أن الغنى يمحو كلَّ ذنـوب أصـحابه، ويـنوه إلى ذلك أيضا في موضع آخر بقوله: إنَّ ذنوب الخاصة مسـتورة وذنـوب العامة لا تغتفر وكسرهم لا يجبر[110]، وهذا مؤشر واضح على قيمة الاحترام والتبجيل الذي تلقاه طبقة الخاصة من عامّة الشعب،على المعاملة التي تعامل بها الفئة المحرومة.

ويعقد مقارنة بين الغني والفقير في نظرتهما إلى الموت والحياة على لسان أبي سليمان المنطقي، وكانت النتيجة التي توصل إليها هي أن الغني يتشبث بالحياة ويكره المـوت؛ وذلك لأنَّ الدُّنيا والحياة حققا له السعادة، فهو يملك اللذَّة والمال والجاه التي

تعـــدُّ مـــن أسباب السعادة والحياة، وأمَّا الفقير" السيئ البخت المرحوَم المحروم" من مســـببات الحـــياة، والســـعادة يتمنى الموت من أجل التخلص "من الحسرة الخانقة، والحرقة اللازمة والحاجة الفاضحة"[111] للمال ومستلزماته.

ويعـــدُّ التوحيدي فئة أصحاب العلم والقلم من الفئة العليا؛ وذلك لأنهم في نظره خاصـــة مـــن ناحية العقل والأدب والعلم وليس من ناحية المال[112]، ونرى أن أبا حـــيان حاول الصعود إلى مرتبة الفئة العليا غير مرة، لكنّه فشل في ذلك على الرُّغم مـــن امـــتلاكه العقل والعلم والقلم البارع والمعرفة الواسعة، فهو ذو باع طويل في جميع العلوم، لكنه يفتقر إلى المال الذي يمكن أن يسانده في الحصول على ما يريد، فالمـــال يعـــدُّ أســـاس هذه الفئة وليس العلم والمعرفة، لذا نجد أناسا يمتلكون المال والـــثروة والسلطة لكنهم يفتقرون إلى العلم، ومع هذا يعتبرون من جلَّة هذه الطبقة، كما أننا نجد أناسا من جلّة العلماء والأدباء لكنّهم يعيشون في الحضيض، ونلمح هذا الشـــئ مـــع حياة كاتبنا الذي ولد فقيرا ومات فقيرا دون أن يحقق ما يصبو إليه لقلة امتلاكه المال.

العامّة

وتمثل أغلبية سكّان بغداد، ويمكن أن نحددها بأنها تضمُّ أصحاب الأعمال الحرة، الذيـــن لا ينخرطون في سلك أرباب الوظائف في الدّولة، وليس لهم دخل اقتصادي ثابت يحصلون عليه من نتاج أعمالهم.

وقـــد عـــرّفها القدمـــاء بأنها خلاف الخاصة، وسميِّت بهذا الاسم لكثرتها ولعدم إحاطة البصر بها[113]، فيقال عامّة الخلق، وكما سميت بهذا الاسم لجهلها بـــالأمور الدّينـــية العامّـــة، والتزامها صفة العموم، ولنقص في ثقافتهـــا العامّـــة[114]، كما أن العامـــي يـــتوهم أنـــه من "الخاصة، وخاصة الخاصة ويعرف سرّ الكلام وغامض الحكمـــة، وخفي القياس وصحيح البرهان"[115] ، وإنها بعيدة عن التفكير والمعرفة، واســـتخدام العقـــل،" إن قلـــت لا عقول لهم كنت صادقا، وإن قلت لهم أشياء شبيهة بـــالعقول كنـــت صادقا، إلاّ أنهم في العدد من جهة النسبة العنصريّة، والجبلّة الطينة

والفِطرة الإنسيّة " [116]و ينعتها التوحيدي بالجهل وقلّة المعرفة، فهم أناس من ناحية الخلقة والفطرة، ولكن لا عقول لهم ترشدهم إلى المعرفة.

كـان الفرق بينها وبين الفئة الأولى كبيراً جداً، فالأولى غارقة في الدّعة والنّعيم غير مبالية بالفئة العاملة الكادحة التي تعدّ أساس المجتمع وعصب الحياة فيه، ولكننا نـرى الفـئة الأولـى تغتصب ما لديها من مال وضياع وتعسف بها، وتنعتها بشتى الصـفات التي تقلل من قيمتها وشأنها ومنها: الغوغاء، السوقة، والسفلة، والرعاع، والهمج، والدّهماء، والدّاصة، وأوباش، والأنذال، والطاغون[117].

وينعتها التوحيدي بـ "دقة الهمم، وخساسة النُفوس، ولؤم الطِّباع على حال لا يجوز معها أن تكون في حومة المذكورين [118]". وبهذا نرى أن موقفه من العامة موقف ازدراء، ويقلل من شأنها في كثير من الأحيان.

وتضـمُّ هـذه الفئة في صفوفها الفئات الدُّنيا من المجتمع، من رقيق الأرض، ورقـيق الـتّجارة، وأهـل الذمّة، وأصحاب الحرف الصغيرة من الزجّاج، والحدّاد والـنجّار، والعصّـار، والنّداف، واللُّصوص، والذّعار، ومنها عناصر عربيّة وغير عربية، وإسلامية ومجوسية ونصرانية ويهودية[119].

والصفة الأساسية الملاصقة لهذه الفئة؛ هي صفة الفقر والجوع، وكثيرا ما نجد التوحـيدي يـتحدث عن هذه الصفة في مؤلفاته، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنه عـانى ما تعاني منه العامّة، فنراه يقول: "إلى متى الكسيرة اليابسة، والبقيلة الذاوية، والقميص المرقع"[120] .

فهـو يعطـي صـورة واقعية لجماعة من العامّة تجمّعت على الشط بباب الطـاق، وهـم يعلنون الرفض لواقعهم المرير، ويشكُون من غلاء الأسعار، وتهتك صاحب العيال، وقد كان جواب الوزير لهم جوابا قاسيا ومرا، ولا يمكن أن تقبله أي فئة من الشعب لها كرامة، فكان جوابه "لم تأكلوا بعد النِّخالة"[121].

ويصورها في أكثر من موضع في مؤلفاته بأنها تعاني الفقر المدقع، وشغف في العـيش، فتتسـول، وتقـف على أبواب الأمراء والوزراء سائله لقمة العيش، فيقول التوحـيدي في وصفه لها بأن أكبر همها هو الحصول على القوت: "ومن أين تظفر

بــالغذاء، وإن كــان عاجزا عن الحاجة، وبالعشاء وإن كان قاصراً بالغداء، وكيف تحــتال في الحصول على طمرَّين للستر لا للتجمل" [122]ويبدي تعجُّبه من هذا الفقير الذي لا يقدِرُ من هذه الدُّنيا إلاّ على حاجته فقط[123].

ويــبدو لنا من حديث التوحيدي أن العلماء والأدباء كانوا يعانون ما تعاني منه العامّة، من العوز وقلّة الحيلة في الحصول على المال، فهذا أبو عيسى الورّاق ينظر إلــى خادم قد خرج من دار الخلافة بجنائب تقادُ بين يديه، وبجماعة تركض حواليه، فــيرفع أبــو عيسى رأسه إلى السماء قائلا: "أوحدك جائعا نائعا، ومثل هذا الأسود يتقلــب في الخــز والــوشي"[124]. فتشير هذه الحادثة بأن خدم الخليفة يعتبرون من ضمن الفئة الأولى، وذلك لأنهم ينعمون بما ينعم به الخليفة وحاشيته.

ويذكــر قصة أخرى عن أحد رجال العلم الذي شنق نفسه بعد أن "ساءت حاله وضــاق رزقــه وقل قوته، واشتد نفور النّاس منه" [125]، فرأى أن يخلص نفسه من رتابة هذا العيش وشقاء الحياة فقتلها.

وكثــيرا مــا نجــد الفئة الأولى تزدري العامة، وتحتقرها وخاصة رأس الدولة الخليفة، وروى الثعالبي أن أحد الخلفاء طلب من وزيره أن يخرج في الصباح باكرا مــن أجــل تنفس الهواء قبل أن تلوثه أنفاس العامة [126]، ومن هذه القصة نرى أن الخلفاء ينظرون إلى العامَّة نظرة فوقية.

بــيد أنَّ العامة كانت ترفض هذا الواقع المرير بأن أعلنت الاحتجاج، والقيام بحــركات ثوريّــة ضدّ السلطة، وضد دورات الغلاء المتكررة التي تؤثر كثير على حالــتها الماديّة والمعنويّة، ولم يهمل أبو حيان هذا الجانب في مؤلفاته بل تحدث به أمــام الوزير في إحدى الليالي، وطلب منه الرفق بهذه الطائفة البائسة والحنو عليها، فما كان من الوزير إلاّ أن استجاب لطلب التوحيدي وخفّض أسعار الخبز، وقال في وصفها قائلاً: "طائفة جاهلة ضعيفة جائعة".[127]

ويتّضــح لنا مما سبق موقف التوحيدي المتذبذب من العامّة، فنجده تارة يقف إلى جانبها وينوه بها أمام المسؤولين، وتارة أخرى يكون من أنصار الخاصّة ويتمنّى أن يلتحق بهم، فمن خلال مؤلفاته نراه ينظر للعامة من الزاوية العلميّة بعد أن تحدث

عـــنها من الزاوية الاجتماعية والمثالية، وذلك لأنَّ ثقافته وعلمه ومعرَفته الواسعة قد رفعـــته مـــن صـــفوف العامّة إلى مصاف العلماء والأدباء وبمعنى آخر إلى الطبقة العلـــيا، فإذا تصدّى للحديث عنّها قال: "إنَّ التصدي للعامة خلوقة(الامتهان)، وطلب الـــرفعة بينهم ضعة، والتشبه بهم نقيصة، وما تعرض لهم أحد إلا أعطاهم من نفسه وعلمـــه وعقله ولوثته ونفاقه وريائه أكثر من يأخذ منهم ..."[128] وهو بهذا يلمّح إلى التبايـــن الثقافـــي بينه وبين العامة التي لا تفقه شيئا من العلم والمعرفة، وإلى الذين يتعاملون معها معاملة قائمة على النّفاق والرياء. وفي موضع آخر يشير إلى التباين بيـــنها وبين الخاصة التي تفهم من الإشارة، في حين أنَّ العامّة تفهم من العبارة، أي أنَّ إفهامهـــا صعب[129]، وقد شاركه ابن الجوزي في هذه النظرة قائلا: إنَّ الحديث معهـــا بالـــنحو والإعراب يعدُّ من ضرب التغفيل وإن كان صوابا، وذلك ينبغي أن يكلّـــم كل قوم بما يفهمون، والعامة لا تفهم النـــحو والإعراب[130]. فهي لا تفقه شيئاً من العلوم والثقافة كما صورها التوحيدي.

ويُحـــذِّرُ الجـــاحظ من اجتماع العامّة، لأنها في نظره إذا اجتمعت تحت إمرة شـــخص تسببت بأضرار كبيرة للدَّولة والسلطة، أمَّا إذا تفرقت وذهب كلٌّ واحد منها إلى عمله فتعمر الدَّولة بنظره[131]، وبهم تتم عمارة الدُّنيا، على الرغم من ذلك أطلق عليها لفظة الحمقى[132]، وقد أبرز التوحيدي فضائل العامّة قائلا: "لا تسبوا الغوغاء فـــإنهم يخـــرجون الغـــريق، ويطفـــئون الحـــريق، ويؤنســـون الطريق، ويشهدون السوق،"وبعبارة أخرى وهم " في هذه الدَّار عمارة لها[133]."ومن هنا يتضح أنَّه يذكِّرُ بفضـــائل العامّـــة في حضرة الوزير، ويتعاطف معها ويقدِّر مصالحها، وفي مواقف أخرى يزدريها بشتى الصفات ويقللُ من شأنها.

ولـــم يـــترك التوحيدي الحديث عن كيفية تعامل السلطة مع هذه الفئة، والتي ينبغـــي عليها أن تتعامل معها بأسلوب الترغيب تارة وأخرى بأسلوب الترهيب [134]. والابـــتعاد بهـــا عن التّرفيه والراحة؛ لأنهم "سوف يعتادون الكسل والراحة، وأن لا يجـــرئوهم فيَطلُـــبوا السَّـــرَفَ والشَّغَبَ، وألا تأذنوا لأولادهم في تعلُّم الأدب فيكونوا لـــرداءة أصـــولهم أذهـــن(أجود)، وأغوص، وعلى التعلّم أصبر؛ ولا جرم فإنهم إذا

ســادوا في آخر الأمر خرّبوا بيوت العِلْيَةِ أهل الفضائل[135]."وبهذه العبارات يصرّح بموقفـه مــن هذه الفئة التي نشأ وترعرع بين أوساطها، بدلاً من التركيز في حديثه علــى حياتها، ويطالب من الدّولة بإصلاح أمورها، والتقليل من حدّة التفاوت الطبقي الذي أبرزه انحصار الثروة في يد فئة قليلة، ولكنه يطالب بعدم تعليم هذه الفئة، لأن التعليم يمكن أن يرفع من مستوى صاحبه.

وعلــى الــرُّغم مــن موقفه المتذبذب من العامة إلا أنه سجّل لنا بعضا من أحاديثها اليوميّة وأمثالها وحكمها وأقوالها التي تتداولها فيما بينها، ونقل إلينا صورة مــن محــاورتهم وشتائمهم منها: "إنما أنت بيت بلا باب، وقدم بلا ساق، وأعمى بلا عصـــا، ونار بلا حطب، ونهر بلا معبر، وحائط بلا سقف"[136] وقد شتم رجل آخر فقال:" يا رأس الأفعى، ويا عصا المكاري ... ويا سطحا بلا ميزراب، ويا عودا بلا مضراب، ويا فما بلا ناب، وسكينا بلا نِصاب، ويا رعدا بلا سحاب، ... ويا جسرا بلا نهر، ويا قُرّا على قُر... يا ذنب الفار، يا قذرا بلا أبزار...[137]"

ومــنها أيضـــا قول أحد الأشخاص الآخر:" يا ساقط، يا هابط ...[138]وبهذه الصورة نجـد أنــه تعــايش مع العامة، وفهم نفسياتهم وما يصبون إليه من الكفاف وقضاء الحاجـــة، وكمـــا وجّــه الــنقد العنــيف إلــى السلطة من خلال حديثة عن ثوراتهم واحتجاجاتهم.

5.1 الأخلاق والعادات والتقاليد

الأخلاق

انحلت الأخلاق في بغداد، وذلك بسبب انحلال البيئة الدّاخليّة والخارجيّة المتمثلة بالحكّــام والخلفـــاء، وما كان يجري على أيديهم من المظالم والمفاسد، وعندما رأى الــنّاس فساد مرؤسيهم فسدوا هم أيضا فانحلّت أخلاقهم، فالرجل الواحد يتزوج أكثر من امرأة ويمتلك عددا من الجواري، وكان يحق له أن يصل إلى هؤلاء وهؤلاء مما يــؤدي إلـــى كثرة النّسل، وبهذا يمتلئ البيت الواحد بالدسائس والمؤامرات، وتمتلئ قلــوب الأولاد بالغيرة والحقد والكراهيّة[139]، وهذه الأمور تمثل بالبيئة الداخليّة في البيت البغدادي .

ولكــنّ أبــا حيان ينظر إلى الأخلاق من الزاوية الفلسفيّة والمنطقيّة، فيرى أنها تابعــة للمزاج في الأصل، فالإنسان الذي تغلب عليه الحرارة يجب أن يكون بنظرة "شــجاعا ســريع الحركة والغضب، قليل الحقد ذكي الخاطر حسن الإدراك"، أمّا إذا غلبــت علــيه البرودة فإنه يكون "بليدا، سهل التقبُل كثير النسيان". ويكون "صابرا، ثابــت الــرأي، صعب القبول"، إذا غلبت عليه اليبوسة[140]، كما أنه يؤكد على أنْ الإنسان يُخالق النّاس بخلق حسن[141].

يشــير التوحيدي أن الناس تتباين في الطّباع، ويظهر هذا التباين في سلوكهم، الــذي يختلف من شخص لآخر، إذ صار بعض النّاس يولع بالتبذير مع علمه بسوء عاقبــته، وبعــض الــناس يولع بالتقتير مع علمه بقبح القالة فيه، وبعضهم يميل إلى كــتمان ما يفعله ويكره أن يطلع على شيء من أمره، وبعضهم يظهر ما يكون منه ويتشنّع به[142].

ويحضُّ على الأخذ بفضائل الأخلاق، والالتزام بها، وأن يتخذ من المثال الدّيني المقــياس الــذي يرجع إليه دائماً قائلاً: "ولا خلق إلاّ ما هذّبه الدّين، ولا دين إلا ما هذّبــه الخلق [143]"، فيدعو إلى التّمسك بفضائل الدّين الإسلامي والعمل بها، والأخذ بالعمل المتمثل بالحق والعفاف والطّهارة التي أصلها بنظره النّزاهة، ويأمر بالابتعاد عــن الإسفاف والنّذالة [144]. ويرى أن الإنسان الذي صحت أخلاقه وحسنت آدابه، يصلح لخدمة الملوك، وحضور مجالس خلواتهم[145].

فيدّعــي أبو حيان بأنه يعيش في مجتمع عمّه الفساد وانتشرت فيه الفحشاء والقــيل والقال والجهل وظهر فيه الغي، وعنده أنّ مجتمعه البغدادي يأخذ من المادة مــيزان التفاضــل بيــن الــنّاس، أي يقوم على أساس "الــدّرهم والدّينار والثيــاب والضــياع والحــاشــية" [146]، ويبتعد عن الأخلاق والعبادات والتقوى، وهذا بنظره قمــة الفســاد والانحطاط الاجتماعي، ويصف بقوله: نحن في "زمان ذهب فيه نجم الحق، واجتث أصل الخير، وغار ماء الإيمان، وانمحى رسم الدين، وتناسى فيه أهله العــرف، وتلاقــوا بينهم بالنُّكْر،" [147]وذكر أيضا: "إن قلوب الناس قد فسدت، وبار العقــل، ومات العلم، وقد برح الخفاء، وغلب الجفاء " [148]. وقال أيضا في وصف

عصــره بعامــة بأنه "يُتَباهى فيه باللؤم، ويتبجّحُ بالسُّخف، ويحتج بالحَزم في البخل، وقــد تواصى النّاس بكلام الكِنْدي-لعنه الله- حيث يوصي ابنه: يابني، أما بعد فكن مع النّاس كلاعب الشطرنج، تحفظ شاهك وتأخذ شاهَهُم، فإن مالك إذا خرج عن يدك لم يَعُدْ إليك، واعلم أنّ الدينار محموم فإذا صرفته مات"[149]، وهذه فكرة عن أخلاق البيــئة البغدادية كما قدمها لنا التوحيدي، فهي عنده تقوم على التّحاسد والتّنافس، لا سيّما إذا كان المحسود قريب المنزلة من الحاسد[150].

لقــد اهتم التوحيدي بالواقع الأخلاقي، إلى جانب اهتمامه بالمثال الأخلاقي[151]، فــيرى أنّ الإنســان ضــعيف أمام الدّنيا وشهواتها، فيدعو إلى نبذها والزُّهد فيها، والــتخلّص مــن آفاتهــا وشرورها، عوضا من التكالب عليها، ولا يمكن أن يعمل الإنسان لدنياه وآخرته في آن واحد فهذا عنده ضعيف الوجه، ومحاولة الجمع بينهما أمــر مــن الصّعب تحقيقه، فالدنيا والآخرة من وجهة نظره "كالمشرق والمغرب لا يمكن أن يلتقيان" [152].

وتــتفاوت الأخــلاق فــي بغداد تفاوتا كبيرا، فمنهم من يأخذ بالأخلاق الحسنة ومــنهم مــن يــأخذ بالسيئة، [153] ومنهم من يتمادى في الضرر، ويتهافت على نيل الشــهوة، وبلــوغ اللّــذة بعد اللّذة، ولو كان ذلك بخرق الدِّين، ويبدو هذا بنظره هو "الضلال البعيد، والخراب المبين" [154].

يصــرّح فــي عدة مواضع، بأنّه يعيش في مجتمع انقلبت فيه القيّم الأخلاقيّة والموازيــن، "إذ صــار المعــروف منكرا، والمنكر معروفا"، وأصبح" الشر وسيلة والدناءة ذريعة، واللؤم حَزْما، والجود ضعفا" [155]، ويصور مجتمعه بقوله:" ما زال النّاس يعتادون التّقاذف والنِّفاق"، وفشا فيها الوشاة والدسائس التي من شأنها أن تفسد العلاقــات بيــن النّاس[156]، فبغداد في نظره فقدت الكثير من القيم الأخلاقيّة، وعلى الــرغم مــن أنَّ هــذه الأخــلاق تخص الفرد بحد ذاته، إلاّ أنَّ هذا الفرد جزء من المجــتمع، الــذي لا يصــلح إلاّ بصلاح أفراده كما هو معلوم من علامات صلاح المجتمع ، فعند غيابها يفسد المجتمع.

وتحـــدّث التوحـــيدي عن العلاقة والصداقة القائمة بين أفراد مجتمعه، فقسمها إلـــى قســـمين وهمـــا: العلاقـــة أو الصداقة الزائفة التي تقوم على الرغبة والرهبة، وتحكمهـــا المصالح الشخصيّة كصداقة الملوك وخدمهم وأوليائهم، وأصحاب الضياع والـــتّجار، والأخرى الصداقة الخالصة التي أساسها التقوى، ولا تحكمها أية مصالح شخصيّة مثل صداقة أصحاب الدِّين والورع وبعض الكتّاب وأهل العلم، قائلا بذلك:" الصـَّــداقة التي تدور بين الرغبة والرهبة شديدة الاستحالة، وصاحبها من صاحبه في غرور، والزَّلَّة فيها غير مأمونة، وكسرُها غير مجبور[157]." فيجب على أي مجتمع أن يقـــوم علـــى الصــــداقة والمـــودة ومكارم الأخلاق الحميدة، وأن يجعل منها أداة لإصلاح الفساد[158].

بـــيد أنَّ التوحـــيدي يريد بناء مجتمعٍ يقوم على الفضائل والمثل العليا والقيم الأخلاقـــيّة الحمـــيدة، ويبـــتعد عن الفساد والانحلال الخلقي، أيّ أنه يريد بناء مدينة فاضـــلة كمدينة أفلاطون والفارابي، وهذه المدينة يحظى حاكمها بسلسلة متصلة من الفضائل والقيم كالعلم والعقل والشجاعة والرَّحمة [159]والحكمة والمساواة بين النّاس، ويـــرى أنَّ الـــتطاول والتسلّط والازدراء قد فشا وبالتالي تأبى الحكمة المجتمع القائم على الفساد أو ما يكون ذريعة للفساد [160].

عانـــت بغـــداد في-عصر التوحيدي- من فساد أخلاقي، فقد عمَّ فيها التملُّق والحســـد والـــبغض والـــنِّفاق والرياء بين العامة والخاصة ويصور ذلك بقوله: "إنَّ الإنســـان وإن كان واحدا بوجه، فأنه كثير بوجه آخر، فالكثرة التي أحالت بينه وبين صـــديقه في جمهور أحواله، لولا التفرق الذي فيه والكثرة التي تتوزعه ما كنت تجد إنسانا إلاّ على هيئة واحدة، وشكـــل واحد أعني إنك كنت تجده أبدا طلـــق الـــوجه مبتسم الثغر سهـــل الخلـــق [161]..."ومن هذا المنطلق نرى الإنسان يتعامل مع أخيه الإنســـان بوجـــوه عدة ، فهو يملك الوجه الحسن والخبيث في آن واحد، وهذا النفاق والرياء منتشر في كلّ زمان ومكان.

ولعـــل التوحـــيدي يريد أنْ يصنع مجتمعا قائـــما على ركائزَ أهـــمها "الدِّين والعقـــل والعلـــم(162)"، وتعدُّ هذه الركائز بنظره عماد أيّ مجتمع وقوامه سواء في الماضي أم الحاضر ويقول(163):

عامل النَّاس بخلق رفيق   والق من تلق بوجه طليق

ويقـــف التوحيدي من البيئة البغدادية موقف البصير الناقد لهذه الأخلاق والقيم السائدة فيها، من تكالبهم على الدُّنيا وملذاتها، وإهمالهم الدِّين وأخلاقه السَّمحة.

العادات والتقاليد:

يعطيـــنا التوحـــيدي فكرة عن بعض العادات والتقاليد السائدة في بغداد، ومن أهمهـــا إيمانهم بالتنجيم والمنجمين، وكذلك الطَّالع، ونجد المصادر القديمة تفيض في الحديـــث عـــنها، وقـــد آمنت بها الخاصّة والعامّة، وكان الخلفاء يهتمون بالمنجمين ويكـــثرون منهم، ويتخذونهم من ندمائهم المقرَّبين إليهم مثل أبي معشر المنجم الذي رافـــق الخلفاء العباسين، وكانت له إصابات حسنة في أحكام النّجوم(164). وكثير ما كان يربط المنجمون الحوادث الطبيعيّة بحركة النجوم والكواكب(165).

وأصبح علم النجوم ورصد الكواكب ببغداد من العلوم المهمة، فقد وجد العديد من العلماء الذين اهتموا بهذا العلم، وأصبح مصدر رزقهم، فأقدموا على دراسة هذه الظاهـــرة، فأبـــرزوا أحكامـــا تختص بالنجوم والكواكب، تعارف الناس عليها، وقد عـــرفوا سير الكواكب وخاصة زحل والمشتري والمريخ وعطارد والشمس والزهرة وربطوهـــا بالأحداث البيئية والكونيّة (166)وعدّ هذا العلم من العلوم الطويلة والحديث فيه ذو شجون(167).ويبرز التوحيدي موقفه من هذا العلم بأن أحكامه قد تصيب أحيانا وتخطـــئ أحيانا أخرى، وأنّه علم صعب وغامض قائم على الحَدس والظن (168) فإن هذه الأمور مرهونة بيد الله سبحانه وتعالى.

وقد شاع الاعتقاد بمعرفة الطالع وربطه بأحكام النّجوم(169)، وأورد التوحيدي نمـــاذج عديدة على ذلك، ومنها ما قاله أبو سليمان المنطقي" من طريق ما ظهر لنا مـــنها"أحكـــام الـــنجوم" أنـــه ولد في جيرتي ابن نباته الشاعر، فقال لي" أبو سليمان المنطقـــي" لـــو أخـــذت الطالع، فأخذته وعرضته على علي بن يحيي، فنظر وعمل

وقّوم، فقال لنا فيما قال: هذا المولود يكون أكذب الناس، فعجبنا منه، فما طالت الأيام حـــتى ترعرع وخرج شاعرا، معدودا في أهل عصره"، وقد عدّ أبو سليمان الشعراء من زمرة المنافقين، وأكثر النّاس كذبا، وبهذا يكون قد أصاب الطالع [170].

ممـــا يجـــدر ذكره أن بعض المنجمين ربطوا مواليد الأنبياء بالسنبلة والميزان، فذكر التوحيدي أن طالع النبي _ صلى الله عليه وسلم _ الميزان، وقال عليه السلام "ولـــدت بالسّـــماك وفي حساب المنجمين أنه السّماك الراجح، وكان في ثاني طالعه زحـــل، فلـــم يكن له مال ولا عقار"[171].فيعدُّ هذا القول بأن الطالع كان معروفا في زمـــن الرسول _صلى الله عليه وسلم _ ثم خضع للتطور والتقدُّم، وأصبح علما من العلـــوم التي تدرس ويرتزق منها كثير من المنجمين، كما يشير أيضا إلى أن كوكب زحل يرتبط بالناحية المادية من المال والعقار والضياع.

وقـــال شـــيخ المنجمين:" إن الشمس أجلُّ ما تكون قدرا في ثلاثة مواضع أولها الحمل وهو شرفها، والثاني الأسد بيتها، والثالث إذا كانت في ثماني عشرة درجه من الجوزاء أوجها، وعند ارتفـــاعها في القوس يجري الماء في العـــود ويظهر العشب، وتزيد الميـــاه" [172]، أي نزول المطر وإحياء الأرض وارتدائها لباسها الأخضر.

وانتشـــر كشف الطالع بالقرآن الكريم، إذ يؤخذ القرآن ويفتح عشوائيا، ومن ثم يـــرى مـــا وقعت عين أو يد الإنسان من آياته، وشاع أيضا التَّبرك والإيمان بأدعيّة خاصـــة تعـــارف عليها النّاس في بغداد [173]. ظنا منهم أنها تفرّج الكروب وتزيل الهموم والأحزان .

وقد اشتهر ببغداد أيضا طلسم الخنافس، وأُدخل بيوتاً كثيرة ببغداد، وقيل إن أول مـــن أوجـــده أبو معشر المنّجم، وهو عبارة عن حيل الخيال يحتال بها على النّاس، ومـــنها ادّعى أبو معشر "أنه يمتلك خاتما ذا فصّين، إذا لبسه لا يتغير عليه شئ وإذا لبسه غيره ضحك، ولا يتمالك من الضّحك حتى يدعه، ومعه قلم شامي يأخذه ويكتب فـــيه وإذا أخـــذه غـــيره فلا يكتب، وعندما عملت هذه الحيل عملها، فعرف إنها من علاج الطلسمات"، فيكتسب منها بعض المال[174].

وأورد التوحـيدي بعضا من أقوال المنجمين في حركة الكواكب ومنها" الشمس إذا كانت في التاسع من الطالع دلـت على العبادة والخوف من الله، وذكر الملائكة([175]).وزعـم بعضهم أنَّ الملّة الإسرائيلية انعقدت في نوبة زُحل، وزحل صاحب يوم السـبت، قـالوا: إن زحـل دليل العطلة، وكذلك اليهود شاركتهم في الانقطاع عن الأعمـال يوم السبت. في حين أنّ الأحد للشمس، وإنّ الملّة النصرانيّة انعقدت نوبة الشـمس. وأما الملّة الإسلامية انعقدت في نوبة الزُهرة، وللزُهرة يوم الجمعة، ولها الـنظافة والزّيـنة، والتطيّب والخضب، والمسلمون يعظمون هذا اليوم، بالاغتسال، والطيـب ولبس الجديد والتوسعة في النَّفقة"[176]. ومن هنا نجد أن المنجمين ربطوا أيـام عطلة كل فرقة من الفرق الدّينية بكوكب معين، كما يبين قولهم السابق أن من العـادات الجاريـة التي حثّ عليها الدّين الإسلامي في بغداد هي تعظيم يوم الجمعة وتفضيله على باقي الأيام.

ولقـد توقف التوحيدي كثيرا عند المنجّمين وأحكامهم وتتبعهم لحركة النّجوم لمعـرفة الطالع في مؤلفاته، وبهذا يفصح بأنّها من العادات المهمّة الشائعة آنذاك، وقـد ربطوهـا فـي كثير من أمورهم اليوميّة وحوادثهم الطبيعيّة، وهي في نظر التوحـيدي علـم غـامض وصـعب، ويدخل فيه الكثير من الظن والحدس قائلا: "فالنقص قد دخله، والخلل قد شمله، وليس يجب أنَّ يوهب له زمان عزيز فوراءه ما هو أهم منه وأجدر وأرشد وأهدى[177]"

ومـن الأمـور التـي شـاعت في بغداد آنذاك زيارة القبور، وخاصة قبور الصالحين من الزهّاد والمتعبدين، وكان يطلق على قبر الرجل الذي صحَّ دينه وابتعد عـن المفاسـد والشرور اسم "كرامات" [178]، واتُّخذ قبره مكانا للزيارة والتبرك به، ظـنا مـنهم بأنـه يفرّج الكروب ويزيل الهموم، ومن القبور التي اعتاد أهل بغداد زيارتهـا قبر النُّذور، وسمي بذلك لأنه ما يكاد يُنذِر شخص نذرا إلا صحّ نذره وبلغ الـناذر ما يريد، وقيل إنَّ المدفون فيه رجل من ولد علي _ رضي الله عنّه _ فتبرك الـناس بـه، ويقصده من ذوي الحاجة لقضاء ما يريد[179]. وبعضهم اتخذ من قبور الزهاد، وكثيري العبادة من الصلاة والصوم، مُصلًّى[180].

وقـــد انتشـــر في بغداد الإيمان بالرُّقى، التي كان يكتب فيها آيات من القرآن الكـــريم فوجدت كتب العطف، وهي ما يطلق عليها اليوم "الحجاب" يكتب فيها آيات قرآنـــية خاصّـــة لذلك، وهناك رقية للمرأة إذا خافت أن تسقط ولدها، ورقية لمعرفة السارق وأخرى للرعاف [181]وغيرها. وهي بنظر التوحيدي خرافات وأباطيل، حيث نقـــل إليـــنا بعضا من أحاديث الأوائل بشأنها فعدّوها باطلة، لكنّ التوحيدي يذكر في الموضـــع نفســـه أنهـــا حق، ومن ثم يقول: "وما هي إلا كلمات تُدْخِلها النّفس على الطبـــيعة، فتُشـــغُلها بتلك الكلمات من عملها، وهذا هو عمل الرقي إذا تكررت على الإنسان"[182].

وانتشـــرت الكهانة وما يتبعها من معرفة أمور الغيب، يُعرِّفُها التوحيدي أنها قـــوة إللهـــيّة تشـــير إلى معرفة أمور الغيب سواء في الدّنيا أو الآخرة، في حين أن التنجـــيم يعـــرف أحكـــام المستقبل، ويتتبع آثار الكواكب، ويستقرئ ما بها من تلقاء نفســـه، وكلاهما قد يصيب أحيانا ويخطئ أحيانا أخرى[183]. وتبدو الكهانة بأنها قوة فـــي الـــنفس تطالع الأمور الكائنة بتخليها عن الحواس، وأمّا العرافة فهي تخبر عن الأمور الماضية، وذلك عن طريق معرفة الآثار والاستدلال منها على مؤثرّها، وتعدّ الكهانة أعلى مرتبة من العرافة [184].

وولع النّاس في بغداد" بزجر الطير وطرق الحصى وما أشبه ذلك"، وهي في نظر التوحيدي ظنون، "والصدق فيها إنما يكون عن طريق الاتفاق وفي النادر"، ولا تســـتند إلى أصل، ولا يقوم عليها دليل، وتكذب كثيرا وتصدق قليلا[185] وهي أوهام وظنون معرضة للشك.

يـــبدو أن أصـــحاب هـــذه الأمـــور يتحدثون دون دليل، أو ما يقابل ذلك فهم يـــتحدثون بمـــا يجـــول بأنفسهم وحَدسهم، وقد يصدق الحدس أحيـــانا، ويبطل على الأغلب.

يعطـــي التوحيدي فرقا بين الفأل والطِّيَرَة والعيافة، فيقال إنَّ من شأن العرب قديما عيافة الطير وزجرها، فإذا أخذت الطير جهة اليسار فتدلُّ على التشاؤم، أمَّا إذا أخـــذت جهة اليمين تدلُّ على التفاؤل، وكان العرب قديما تتبرك بالجنوب لأنها تجمع

السـحاب وتؤلفـه، وتتشاءم بالشمال؛ لأنها تفرقه وتُذْهبه، ويطلق على ذلك السّانح والبَارِح[186]، وكانت تتشاءم العرب من بعض الحيوانات والطيور والحشرات سواء مـن الأشكال أو الأصوات كالغراب والبوم والعقرب والفأر، وبعضهم يتشـاءم من المرأة والـدّار والـدّابة [187].

أمّا الفأل فهو جريان الذِّكر الجميل على اللّسان معزولا عن القصد، سواء من القـائل أو من السامع الذي يتفاءل بالقول ،فمثلا يقال للمريض يا سالم، أو المضلّ يا واجـد؛ أي لعله يجد ضالته، والمريض يتعافى من مرضه، وهي ضد الطيرة، وقد كـان الرسـول- صلى الّله عليه وسلَّم – يحبب بالفأل، وينفّر من الطيرة [188]، وفي الآيـة الكريمة: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم، إلاّ في كتاب من قبل أنّ نَّبْرَأها إنّ ذلك على الله يسير). [189].

وقـد امتاز بعض الأشخاص بصناعة الفراسة، وهي صناعة تتصيّد الأخلاق والأفعـال، بحسـب الأخـلاق والأمـزجة والهيئـات الطبيعية والحركـات التي تتبعـها، ويحتاج صاحبها إلى ثلاثة أصول حتى يحكمها في نظر التوحيدي ومن ثم يحكم بها وهي الطبائع، والأمزجة وما يتبعها،والهيئات – الأشكـال والحركـات –، والفراسـة لا تختص بالإنسان فقط بل قد تكون في الحيوان وفي الجمادات كالسيوف والسحاب[190].

وتوارثـت بغـداد هذه العادات من أسلافها حتى أصبحت قاعدة صالحة لكل زمـان ومكـان، ويؤمـن بها النّاس ويتوارثونها، لكن التوحيدي ينكرها في بعض الأحيان وهي في نظره ظنون وأباطيل.

6.1 وسائل التسليّة والتَّرفيه :

شـاع بـبغداد أنواع مختلفة من وسائل التسلية والترفيه التي يقضون بها أوقات الفراغ، ويروّحون النّفس التي تمل الكدّ والجدّ على حدّ تعبير التوحيدي.

ومن هذه الوسائل التي أشار إليّها التوحيدي لعبتي الشطرنج والنّرد اللتان شاعتا بيـن العامّـة والخاصّة، لكن الخاصّة كانت تمارسها أكثر، وهما في نظر العديد من العلمـاء والأدبـاء تعلّمان الحرب، وقوة السيطرة وشحذ اللُّب، وتدرِب الإنسان على

الـــتدبُّر والتفكـــير، وتعلمانـــه شدَّة البصيرة وقـــوة الحيلة، والقدرة على التَّصـــوّر والتَّخيل [191].

كـــان هـــناك نوع من الشطرنج يلعب في قصر الخليفة، وهو عبارة عن آلة مســـتحدثـــة تسمّى الجوارحية، وتسمى أجـــزاؤهـــا بأسمـــاء حواس الإنسان[192]، وذكر لنا ابن النَّديم مجموعة من الأشخاص الذين حذقوا بلعبة الشطرنج، وألفوا كتبا في كيفية اللّعب فيها، ويشير أيضا إلى أن العديد من الحاذقين في هذه اللعبة أصبحوا من ندماء الخلفاء، ويلعبون معهم[193].

ويقول الأزدي في حكايته، إنّ الخصمين يلعبان إلى أن يكلا، وتبدو السآمة علـــى وجوههمـــا فـــيطرحونها، ثم يعودان إليها مرة أخرى، فصوّر لنا هذه اللّعبة والأسلوب المستخدم فيها تصويرا رائعا، فيصور الخصمين وهما يتغيظان ويتشتمان، مما يعطي ذلك اللُّعبة نوعا من الحماسة والمتابعة من قبل الحاضرين، وكان كثير ما يســـتغل أحـــد الخصـــمين ســـهو الآخر لصالحه في اللّعبة، وقد تعارف الناس على مصـــطلحات ألفوهـــا بلعـــبة الشطرنج ومنها شاه، وبس وتي، وأبو الهـــول، وأبو الفـــزع[194].

ويعـــدُّ لعب الشطرنج والنَّرد وسيلة من وسائل التكسب في بغداد إذ يتبع فيها الحـــيلة والكياســـة[195]،أطلق عليها اسم "المقامرة" فقيل: إنَّ رجلاً لاعب آخر بالنَّرد فغلبه وأخذ منه عشرين ديناراً [196] .

ومـــن وســـائـــل التســـلية والترويح عن النفس التي ذكرها التوحيدي لعبة كرة الصـــولجـــان [197]، وتقوم هذه اللُّعبة بضرب الكرة من على ظهر الخيل، وكان لها ملابسها الخاصّة، وساحات خاصة أُقيمت في قصور الخلفاء والوزراء[198]، والقصد مـــن هـــذه اللعبة هو الرياضة والحركة، وبالتالي تكون مفيدة لجسد الفارس والفرس معـــاً ولا يهم إن أصاب الكرة أم أخطأها،[199] وكان اللاعبون بعد الفراغ من لعبهم يدخلون الحمام الساخن ويدلّكون، وقيل أنَّ هذه اللعبة من أصل فارسي وانتشرت بين أوساط الخاصة في بغداد [200].

وشـــاع بـــبغداد أيضا لعبة السماجة، ويقصد فيها إضحاك النّاس عن طريق الهـــزل وذلـــك باستخدام أقنعة وصور خاصة بهم، قد ولع الخلفاء بها، وجعلوا لها مقـــدّرات خاصّة، أشار التوحيدي أن أحد الرّجال كان" يحاكي المـــومسات، ويخرج فـــي أصحـــاب السماجات[201]"وكان كذلك التمثيل من إحدى الوسائل الترفيهيّة ومن المهن المنتشرة في بغداد، يعتمد على الخيال بالدّرجة الأولى[202]، ويصف التوحيدي أحـــد أشـــخاص هذه المهنة بقوله:"جاءنا بأفكوهة، وأُعجوبة، وأملوحة، وأضحوكة، وأحدوثـــــة، وألعوبـــة، كذا كلام العرب إذا جاء بما يضحك منه ويستملح ويتعجب مـــنه ويتحدث به[203]." وكانت أغلب هذه الحركات تقام على الطرقات وفي الأعياد والمناسبات [204].

مجالس القصص والسّمَر :

وتعـــد هـــذه المجـــالس إحدى وسائل التسليّة الشائعة في بغداد وخاصة فـــي أوســـاط العامـــة، ويقصد بالقاص الشخص الذي يجلس في الطرقات أو في المساجد أو الأســـواق[205]، ليعظ العامة بالمواعظ والرقائق والذّكر والزّجر، وبعضهم يروي الأحاديـــث، ويفســـر آيات من القرآن الكريم[206]، وبعضهم يروي قصصاً وأخباراً مأثورة عن السّلف [207]، وعن غزوات النبي _صلى الله عليه وسلم -من أجل العظة والاعتبار منها، وبعضهم كان يتحدث عن الفقراء ومشاكلهم وطعامهم[208].

نقـــل لـــنا التوحـــيدي بعضاً من أقوال القصاص على سبيل الاتعاض ، فمنها " المؤمن قُوتُه عقله، ومرقته سلقة، وحذاؤه فلقة، ورداؤه خِلقة "[209] .

ويـــبدو أن الهـــدف من هذه المجالس هو تزجية أوقات الفراغ بالدرجة الأولى، ومن ثمّت تثقيف العامّة، والتحريض على الجهاد في سبيل الله[210]. إذ قال أحمد بن حنـــبل "مـــا أحوج النّاس إلى قاص صدوق" [211] لقد وجد بعض القصاصين الذين ابـــتعدوا عـــن الدّين والصدق في قصصهم وحكاياتهم، ويبدو أنَّ غايتهم الأولى هي الحصول على المال، والتغلُّب على فاقة الفقر.

وقـــد وُجـــدَ قصاصون في قصور الخلفاء والوزراء وأطلق عليه " قـــاص الخـــاصـــة" [212]، وكـــان الخلـــيفة الأموي معاوية بن أبي سفيان أول من استحدث

قصـــاص الخاصـــة، حيث ولى رجلا على القصص، وذلك عند الانتهاء من صلاة الفجـــر يجلـــس القاص ويصلي على النبي _ صلى الله عليه وسلّم _ ومن ثم يدعو للخليفة ولأهله وحاشيته ويدعو على أعدائه[213].

ومـــع مـــرور الزمن ازداد عدد مجالس القصاص والإقبال عليها، وذلك لميل العامـــة إلـــى القصص والاستماع إليها، وقد وجد من أساء لهذه المجالس إذ تعرض الجهّـــال إلـــيها، وأضحت مجالا للبدع والخرافات، وخرجوا بها عن غايتها الأصلية وهـــي الوعـــظ والإرشاد، أصبحت ذات خطورة على الدِّين الإسلامي، فهي تضلل العامة من خلال القصص التي تروى بهذه المجالس، كما كان بعضهم يروي أحاديثا منســـوبة[214]، ولهـــذه الأسباب وغيرها أنكر بعض العلماء أقوالهم وحاربوهم، على الرُّغم من وقوف العامَّة إلى جانبهم[215].

ويروي ابن الجوزي بعضاً من أخبار حمقى القصاص وأمنياتهم، فمنهم من يتمـــنّى أن يخلقـــه الله أعور، ولآخر أن يكون مقطوع اليدين والرّجلين، ويشير إلى حماقتهم وجهلهم بالأمور الدّينيّة والنحويّة[216].

ومـــن أمثلة جهل القصاص قول أحدهم في دعائه "اللهم اجعلنا صعيداً زلقاً، فـــيقول الغوغاء" العامة " آمين [217]، ويؤيد التوحيدي هذا الرأي قائلاً " وليس يقف علـــى القاص إحدى ثلاثة ؛ إما رجل أبله، فهو لا يدري ما يخرج من أمِّ دماغه، أو رجل عاقل فهو يزدريه لتعرضه لجهل الجهّال، وإمّا له نسبة إلى الخاصّة من وجه، وإلـــى العامّـــة مـــن وجه، فهو يتذبذب عليه من الإنكار الجالب للهجر، والاعتراف الجالـــب للوصل، فالقاص حينئذ ينظر إلى تفريغ الزمان لمداراة هذه الطوائف[218]". فالتوحـــيدي يـــنكر هذه المجالس، ويشير إلى خروج القاص عن مهامه الأصليّة من أجل إرضاء جميع الطوائف التي يتعامل معها.

بـــيد أن ابن الجوزي يبيّن أنّ من أسباب العنف والاضطرابات الموجودة في بغداد هو وجود القصاصين الذين يحرضونهم العامة على الفتن و سفك الدّماء، ولهذا الســـبب مـــنع ألا يقـــص أحد في جامع ولا في طريق ولا يتوسل متوسل بأحد من

أصحاب الرسول صلى _صلى الله عليه وسلم _ ومن أراد التوسل قرأ القرآن، فمن خالف فقد أبيح دمه[219].

ويظهر أن التوحيدي يستهجن سلوك القاص، وينعته بالجهل والتذبذب ما بين العامة والخاصة وكأن جلّ همه الحصول على الدّرهم أو الدّينار أو الثوب.

7.1 الأعياد والمناسبات الدِّينيّة:

بكثير من المظاهر الاجتماعيّة التي يعبر فيها المسلم عن فرحه وسروره، وكان من ضمن هذه المظاهر الاحتفال بالأعياد والمناسبات الدّينية، ومنها الاحتفال بعيدي الفطـــر والأضـــحى، وذلـــك لارتباطهما بركنين أساسين من أركان الإسلام وهما: الصِّـــيام والحـــجِّ، وكـــان في بغداد آنذاك احتفالات طوال شهر رمضان، وفي أثناء خـــروج موكب الحجاج، وعند قدومهم تقام الزينة، وتضرب الطبول وتجري مراسيم الاستقبال [220].

وعند حلول شهر رمضان توزع فيه الصدقات على الفقراء والمحتاجين، وإقامة موائـــد للإفطـــار، وتضـــاء فيه المساجد والشوارع بالمصابيح طوال الشهر، وبعد الإفطـــار يذهب النّاس لصلاة التَّراويح، ومن ثم حضور مجالس الأنس والغناء[221]، وعـــند إنهـــاء الشهر الفضيل، يستعدون لاستقبال عيد الفطر، إذ بهذا العيد يخلدون للراحة، وتطلق فيه الزِّينة، وتنصب موائد للأكل والشرب، ويلبسون الثياب الجديدة، وتوزع فيه الصدقات، والكِسوة للفقراء والمحتاجين [222]، ويذهب النّاس في صبيحة العـــيد إلى المساجد لصلاة العيد، ومن ثمّ يصعد الخليفة على المنبر ليخطب بالناس وبعد ذلك يتبادلون التهاني، ومن ثم ينعمون بلذتي الطّعام والشراب، واعتادت النَّاس قبل عيد الأضحى صيـــام يـــوم عرفة[223].

وتروي لنا المصادر أن الخليفة العباسي المقتدر كان ينفق على الحجِّ أكثر من ثلاثمائـــة ألف دينار، ويفرق في يوم عرفة من الإبل والبقر أربعين ألف رأس ومن الغـــنم خمســـين ألـــف[224]، ويطلق على هذا اليوم "الحج الأكبر"، وفي صبيحة يوم الأضـــحى، وبعـــد صلاة العيد، يبدأ النَّاس بنحر الأضاحي وتوزيعها على الفقراء، ويسمى هذا اليوم "يوم النحر" وذلك لنحر القرابين والهدي، وهو آخر أيام الحج[225].

الأعياد غير الدّينية

يعـــد يوم النيروز من الأيّام التي يحتفل بها الفرس، ويشاركهم بها المسلمون، ويـــدلُّ ذلك على التّسامح الدّيني السائد آنذاك، ويقع هذا اليوم في أول يوم من السّنة الشّمسية، وفيه يتمُّ تبادل الهدايا وتقبلُ التّهاني، والخروج للتّرويح عن النّفس، واعتاد الخلفـــاء أن يقـــبلوا الهدايا من موظفي الـــدّولة، وتشعل النيــــران والشموع في هذا الـــيوم [226]، وكان الخلفاء المسلمون وذووهم يحتفلون بهذا اليوم وينفقون فيه أموالا طائلة، ويرتدون فاخر الثياب والحلي النفسية[227].

ويشير التوحيدي إلى أن لكل ملّة من الملل الأخرى أعياد خاصة بهم يخلدون فـــيها للـــراحة، ويطلقون فيها الزّينة[228]، ويشعرون بالسعادة والفرح في استقبالها، وأصـــبحت هذه الأيّام مجالا واسعا للأثرياء لتوزيع الأطعمة والحلويات على الفقراء الذين لا يتمكّنون من أكلها في بيوتهم.

8.1 المرأة:

تظهر المرأة البغداديّة في القرن الرابع الهجري كعنصر فعّال، فنجدها تشارك في جميع النشاطات الاجتماعيّة والدّينيّة والسياسيّة، وتبرز في شتى العلوم والمعارف في الفقه واللغة والحديث والشعر، ونقل التوحيدي إلينا صورة المرأة المحافظة على بيـــتها وزوجها، وصورة المرأة الماجنة، والمرأة المثقّفة والشاعرة، كما تحدث عن صـــور المضايقات التي تتعرض لها عند خروجها لقضاء حاجاتها من الأسواق، ولم يفته الحديث عن طريقة الزواج الرائجة في بغداد.

وقـــيل إنّ أفضـــل النّساء:" من كانت أطولهنّ إذا قامت، وأصدقهنّ إذا قالت والتـــي إذا غضبت حَلُمت، وإذا ضحكت ابتسمت، وإذا صنعت جوّدت، والتي تلزم بيتها، ولا تعصي بعلها، العزيزة في قومها، الذليلة في نفسها[229]". ونرى أنّ المرأة الصـــالحة هـــي التـــي تعيش مع زوجها في جميع حالاته من الغنى والفقر والعافية والمرض وتبغض الطلاق، وتقوم على راحة زوجها في حالة مرضه [230].

وتحـــدث التوحـــيدي عـــن الطريقة التي يتم بها الزواج، وذلك عن طريق الخاطـــبات أو الدّلالات، ولهذه الطريقة مخاطرها، وذلك أنّ الزوج لم يرَ زوجته إلا

بعد زواجهما، وبهذا لا يمكن معرفة عيوب زوجته أو تعرف الزوجة عيوب زوجها، فقــد كانــت مهمــة الخاطبة نقل الصفات الحسنة لكل من الرجل والمــرأة وإخفاء عيوبهما[231].

وبعضــهم يعــرف المرأة فيبعث رسولا للمرأة ينقل إليها رغبته بالزواج منها، وبعض النساء يطلبن رؤية الزوج قبل الموافقة على الزواج، وهذا الأمر لا يكون إلا نادرا [232]. وقيل في شأن الزواج من أراد أن يتزوج فعليه أن ينظر إلى والد المرأة وأخيها، فإنها "بعيانه وبين يدي أحدهما" [233].

وكانــت العادة جارية في بغداد وما زالت إلى وقتنا الحاضر أن الرجل يدفع صَّــدَاقا للمرأة عند عقد الزواج أو ما يسمى بالمهور، ويتمُّ تجهيز الفتاة عند الزواج، ويختلف الجهاز من طبقة لأخرى[234].

وإذا أراد أصدقاء الرجل معرفة جمال زوجته، يقال له في صبيحة البناء: "ما قدمــت عليه ؟ فإن قال: الصلاح خير من شئ، فاعلم أن امرأته قبيحة"[235]. و لعلّ ذلك يدل على أن الرجال لا يشاهدون زوجاتهم إلا بعد عقد الزواج.

ونقل التوحيدي صورا من المشاكل الزوجيّة، والتي تصل أحيانا إلى القاضي ليفصل بينهما، وتحدّث عن مناكاة الزّوجة لزوجها، وإلحاق الأذى به، وشتمه بألفاظ بذيــئة ومخلّــة [236]، ويقــال في وصف الحياة الزوجيّة: "فإذا كان الرجل مذكرا، والمــرأة مذكرة كابدا العيش، وإذا كان الرجل مؤنثا والمرأة مذكرة كان الرجل هو المــرأة، والمــرأة هي الرجل، وإذا كان الرجل مؤنثا والمرأة مؤنثة ماتا هزلا، وإذا كــان الــرجل مذكرا والمرأة مؤنثة طاب العيش[237]."فهذا الوصف يكشف لنا نتائج انحــراف الــرجل عــن واجبه الأصلي، وانحراف المرأة عن واجبها، فإنهما سوف يكــابدان مشــقة في مواجهة الحياة، أمّا إذا عمل كلٌ منهما في مهنته الشرعيّة فإنه سوف يهنأ عيشهما ويطيب.

وأدّت الــتطورات الاجتماعــيّة فــي بغــداد إلى خروج المرأة من بيتها إلى الأســواق، ممــا أدى إلى تعرضها إلى المضايقات من قبل بعض الرجال، ونقل لنا

التوحـــيدي صـــورا مـــن هذه المضايقات[238]، لـــذلك فإنه ينبغي لـَزوم المرأة في بيتهـــا كما أمرها الشرع في ذلك [239].

وممـــا يجـــدر ذكـــره أنَّ بعـــض النِّساء برزنَ في عدة مجالات، ومنهنَّ من اشـــتهرن بـــالعلم والمعرفة، وكان لبعضهن مجالس تعقد للوعظ والذِّكر، ومنهن من أجـــادت قـــول الشعر والكتابة، وبعضهن شاركت في المجالات السياسيّة [240]، وقد جوّز بعض الفقهاء أن تتولى المرأة القضاء[241].

ونجد المرأة التي برز نشاطها في الغناء، وشاركت الجواري في هذه المهنة، وقـــدَّم التوحـــيدي إحصائيّة بعدد النّساء اللواتي أجدن الغناء في بغداد وبلغ "مـــائة وعشـــريـــن حرة [242]، مقارنة مع الجواري اللواتي بلغت أعدادهن أكثر من ذلك، ولكنْ لم تبلغ الحُرة الشهرة التي وصلت إليها الجارية في مجال الغناء.

والـــدَّارس لشخصية التوحيدي يرى أنه لم يعرف المرأة زوجا أو أمّاً، ولكنه عـــرفها جاريـــة أو عشيقة، لهذا نجده يستهجن المرأة ويقلل من شأنها في كثير من المواضـــع، ويركّز على الصور المجونية والجنسية التي تقوم بها المرأة، ولم يركِّز كثـــيرا علـــى صـــورة المـــرأة الـــبغدادية الحسنة، ومن ثم يظهرها بحالة الضعف والاستكانة تارة، وتارة أخرى يظهرها بحالة القوة وتتغلبّ على الرجل في كثير من المواقـــع، لكنه على الأغلب يركّز على صورة المرأة السافرة التي نراها في مجالس الـــرجال ترقص وتغني دون أي تحرج، كما إنَّها لا تتورع عن فعل أي منكر مخلّ بالدّيـــن والأخـــلاق، ويطلق على هذا النَّوع من النِّساء "النِّساء الرُّعن" وبعضهنَّ لا يتورعن عن شرب الخمر، ولمَّح التوحيدي إلى فساد أخلاقهن في عدة مواضع[243].

ويقال إن المرأة الصالحة كالغراب الأعصم؛ وهو أبيض الرجلين، وقيل: "لا يكـــاد توجد" [244].فهذه العبارة تدُلُ على ندرة النساء الصالحات في ذلك الزمن على حدِّ تعبير التوحيدي.

ولـــم يفتْ التوحيدي التلميح لبعض وسائل الزّينة المستخدمة في بغداد في تلك الفـــترة والتـــي تـــزيد من جمال المرأة وبهائها وروعتها، ومنها الحلي والجواهر، والأصباغ التي بها تخفي بعض عيوبها وتزيد من حسنها كطلاء للوجه والشعر[245].

9.1 مجالس اللّهو: الجواري، الغناء، الحانات.

كـــان للإمـــاء والجواري دور مهم في رفاهية المجتمع، ولا سيّما النـــابهات منهـــنّ، إذ نجـــد الشاعرة والأديبة، والمغنيّة التـــي تُحيي مجـــالس السمر والطّرب واللهـــو وتعمـــل على جلب قلوب الرجال وأموالهم، وبعضهن يلعبن دورا مهما في الـــتاريخ، وخاصـــة فـــي المجتمع العباسي، فنجد منهن من تقوم بالأعمال السياسية "والإدارة في الدّولة" ومنهنّ أصبحن أمهات الخلفاء والسلاطين.

انتشـــر فـــي بغداد العديد من الجواري اللواتي يجلبن عن طريق الحرب أو البيع، أو الهبة[246]، إذ شاع ببغداد سوق يطلق عليه سوق الرقيق أو النّخاسين.[247] فالـــنخاس هو الذي يجلب الجواري من مختلف البـــلدان من الفرس والروم والبربر والصـــقالبة صـــغارا وكـــبـــارا، ويربونهن على ما تقتضيه مواهبهن، و يقـــومون بتعليمهـــنّ بعـــض المهـــن التي تزيد من ثمنهن، وتجعلهن مرغوبات لدى النّـــاس وخاصة الطبقة العليّا، وكلمة الجارية في العادة تطلق على المرأة غير المسلمة [248].

وتخـــتلف أثمـــان الجواري باختلاف أجناسهنّ، والفنون التي يجدنها، إذ يعدُّ الجمـــال من الشروط الأساسية للجاريّة [249]، ولقد كان النخاسون يشترون الجواري بأثمـــان زهـــيدة ثـــم يبعـــثون بها إلى بيوت خاصة لهن يطلق عليها بيوت "القيان" لإعدادهـــن من حيث المظهر الخارجي، وتثقيفهن بالأدب والشعر، وبعضهنّ يتعلمنّ فـــنون تدبـــير المـــنزل، إلى جانب تلقينهنّ أصول المجالسة والمنادمة، وكانت هذه البيوت تلقى إقبالا شديدا من النّاس الذين يقصدونهـــا لمشاهدة الجواري، والاستمتاع بغنائهن [250].

ومن مميزات النّخاس أنه يرغب في زيارته، كمـــا يقصده الخلفاء والأمراء، ويُـــزار ولا يُكلّـــف الزيارة، ويُوصل ولا يُحْمَلُ على الصّلة، ويُهدى إليه ولا تقضى مـــنّهُ الهديّة[251]، وممّا يبدو أنّ مهنته كانت تنحصر في عرض جواريه أمام الزبائن ليتمكّـــنوا من إقـــامة علاقات معهن، ومن ثمّ يكشف عن مواهـــب جـــواريه [252]، وقدراتهن الإبداعية في شتى المجالات.

وكانــت الجاريــة تتفنــن في اللَّعب بألباب الرجال، ونصب أشراكها باللَّحظ والتَّبســم وإظهـــار الشــوق، فمنهــنّ من يجذبــنَ الرجال بجمـــالهنَّ وعذوبـــة حديــثهنَّ [253]، وكان منهن البيضاء والحمراء والسمراء والزنجيّة[254] .

وقــد اهتم الخلفاء باقتناء الجواري، خاصة ذوات الحسن والجمال والطرب، وكان بعضهم يعشق الجارية ويتزوجها، وإذا أنجبت منه الولد سمّيت أمُّ الولد وبهذه الحالــة تمــتاز الجارية ببعض الحقوق، ومن أهمها تحريم بيعها أو إهدائها ومن ثمّ تحصل على الحرية بعد وفاة سيّدها [255].

وقــد جدت وظيفة القهرمانة في قصور الخلفاء والوزراء، وهي الجارية التي تكــون مســؤولة عــن شؤون القصر، وعن الجــواري والقيان الموجودات بقصر الخلافــة [256]، ومنهن من أفرد لإحياء مجالس الشراب واللَّهو[257].

وكثــيرا مـــا تجمـــع البــيوت البغدادية ما بين الحرائر والجواري، سواء أكان أصــحابهن مـــن الميسورين أم الفقراء، ويكون مجال عمل بعضهن داخل الدور في الخدمـــة المنزليّة من تقديم الطعام وصنعه[258]، ولصاحب الجارية الحق بالتّصرف بها كيفما شاء من الزواج أو البيع أو منحها لأحد الرجال.

والممعــن فــي مؤلفات التوحيــدي، يــجده يُكثر من الحديــث عن قصص الجــــواري ومجونهـــــن ولهوهن، وفساد أخلاق بعضهن، كما يشير إلى أن بعض الجــواري اشــتهرن بالأدب، كالجارية المسماة فنن:"وهي جارية أديبة، كانت مـــن آدب الجــواري فـــي زمانها"[259]، وبعضهن يجدن الكتابة وقول الشعر، ومنهن من يجيد الغناء بأنواعه المختلفة، وفنـــون الإيقاع والعزف على الآلات الموسيقيّة [260].

ذكــر التوحيدي أنّ من أهل زمانه من عشق جاريته فينكحها، وبعضهم ينفق أموالا طائلة على جاريته، ومن القصص التي ذكرها أنّ رجلا هوى جاريته، فلامه أبوه وأخرجه من المنزل فقال الرّجلُ لأبيه[261]:

تبدَّلتْ من قلبــي المودَّة بالبُغْضِ وصُيِّرَتَ بعد القُربِ منه إلى الرَّفْضِ
وكان الهوى غضــاً فلمـــا ملكتــهُ تقصَّف غصنُــاهُ وحـــالَ عن الغَضِّ
فإنْ أُك قد أُخرجتُ عن دارِ بغضةٍ فليسَ بكفَّـــيْ مُخْرِجي سَعَةُ الأرضِ

فقال له والده : إن أقلعت عن هذا قبلتك، فقال لأبيه:

تُراني تاركاً لــلــّـ ـــه ما أهــوى لما تهوى

أنا أشهد أنَّ الحـُ ـــبَّ من قلبـــي إذاً دَعْوَى

ومـــن هذا المنطلق نجدُ الكثيرِ من الرجال من تغلَّب عليه حبّ جاريته ويترك من أجلها الأهل والأصدقاء.

وقـــد أشـــار التوحيدي إلى كثير من الرجال الذين كانوا يترددون إلى سوق النخاسين وبيوت القيان، من أجل المتعة، وإزجاء أوقات الفراغ معهنّ، ولعقد مجالس الشراب والاستمتاع بسماع الغناء.

وبيّـــن التوحـــيدي أنّ الجاريّـــة التي يموت صاحبها عنها تباع في الميراث، وبعضـــهن تبقى وفية لصاحبها حتى بعد وفاته[262].وكان بعض العوام الذين يمتلكون الجواري يبيعونهن عند الحاجة الماسة للمال[263] .

وغدت مهنة تعليم الجواري وتربيتهن بابا من أبواب الرزق، الذي يدرُ أموالا طائلـــة، ولهـــذا راجت هذه المهنة، وانتشرت دور القيان في أرجاء بغداد، فأصبحت هـــذه الدور مجالا واسعا لعرض الجمال والمتعة، كما تخرِّج الجواري اللواتي لمعن بمختلف المجالات، في الأدب والشعر والغناء والسياسة والمجتمع[264] .

ولـــم تقتصـــر إدارة هـــذه الـــدور على الرجال فقط بل كان للنساء دور في إدارتهـــا، وكـــان لهنّ القيان اللواتي يعرضنهنّ للزبائن، وتستقطب الكثير من ذوي الجاه والسلطان، للاستمتاع بمجالس الأنس والشراب[265].

فقـــد وصـــف الجـــاحظ الجارية بأنها تعاشر مجموعة من الخلعاء والمجّان، وتعيش حيـــاة ليس فيها ذكر للعفـــاف والأخلاق[266] وقيل: إنّ الجارية البغدادية لا تعـــرف الـــودّ أو الحـــبَّ، ولا تعرف إلاّ الـــدّرهم والـــدّينار علـــى حـــدٍّ تعبيـــر الأزدي[267]، فهي لا تعرف الفقير ولا تهتم به.

ويرســـم التوحـــيدي صـــوراً كثـــيرة لمختلف الجواري الماجنات اللواتي لا يتورعن عن عمل أيّ منكر أو فحش على مدى صفحات كتابه البصائر والذخائر ولا يســـعفني المجـــال لذكر هذه الصور التي أسهمت في نشر الفساد الأخـــلاقي فـــي

بغداد[268]، ويصف التوحيدي الجارية على لسان أعرابي قائلا:" ناصعة اللون، جيدةُ الشَّطْب، نقيَّة الثَّغْر، حَسَنَةُ العين والأنف، ظريفة اللِّسان، واردةُ الشَّعر، طويلة العنق"[269].

وما نلمسه من خلال مؤلفات التوحيدي أنّ رجال بغداد يفضلون الجواري على النساء الحرائر، وجعلوا يتهادونهن كما يتهادون الأشياء الثمينة، فالمرأة الحرة لا تتكشف أمام الرجال غير المحارم، في حين أنّ الجارية تبيع نفسها في مقابل المال والجواهر، واستطاعت بدهائها أن تصبح أما لأولاد الخلفاء وحظيَّة للملوك [270]، ويذكر التوحيدي أنّ رجلا برتبة الأمراء اشترى جارية بثلاثين ألف دِرهم مُعزِّية[271].

ولم يقتصر الاهتمام بالجواري فحسب بل تعداه إلى الاهتمام بالغلمان وعشقهم، حيث وجد في بغداد خمسة وتسعون غلاما جميلا يغنون للنَّاس، وأنّه كان بها صبي موصلي مغن،"ملأ الدّنيا عِيّارة وجسارة، وافتضح أصحاب النّسك والوقار بوجه الحسن، وثغره المبتسم، وحديثه الساحر، وطرفه الفاتر، وقده المديد، ولفظه الحلو"[272]،ومن هذا المنطلق انتشر الفساد الأخلاقي الذي عمَّ أرجاء بغداد، وتحدث التوحيدي في الليلة الثامنة عشر من كتابه الإمتاع والمؤانسة عن قصص مجون بعض الجواري.

مجالس الشراب "الحانات ".

انتشرت الحانات في بغداد، بعد أن كان أول عهدها في باب الكَرخ، ومن ثمّ انتشرت في البساتين، وعلى ضفاف نهر دجلة[273]، وأسرف أهلها في الاستعداد لها من [1]أزهار وفاكهة، وصحاف وأنوار، وأمّا الذين كانوا يتحرجون من الذَّهاب إلى الحانات فيعملون مجالس مشابهة في بيوتهم وحدائقهم، يحضرها مجموعة من ندمائهم المقربين إليهم، كالخلفاء والوزراء والقضاة وغيرهم من رجال الدَّولة، فقد أمّنوا لأنفسهم جواً من المرح واللهو، وكان يدور في هذه المجالس زيادة على مسببات المتعة الأحاديث الأدبيّة والمسامرات الطريفة من مثل مجالس الخليفة الراضي[974].

وتخـــتص إدارة هذه الحانة وصناعة الخمور وبيعها بالنّصارى واليهود "أهل الذمَّـــة "وتضـــمُّ عـــددا من الجواري والقيان من مغنيات وراقصات وغلمان، الذين يضـــفون علــيها جــوا من المرح اللهو والمجون والتهتك[275]، وكلُّ هذه الأمور لا تقتصـــر علـــى الحانة فقط بل تعدتها إلى مجالس الشراب الخاصّة، التي يصطنعها رجال الطبقة العليا.

ومـــن الألفـــاظ التـــي استخدمت في هذه المجـــالس: الخمر والرّاح والقهوة والشـــراب [276]، وذكـــر التوحيدي بعض الحانات مثل: درب السلق، ودار القطن، والكـــرخ، ودرب الزعفران، وباب الطاق، والرصافة، وقد عرف البغداديون أصنافا عديـــدة مـــن الخمـــور، مـــثل "الخمرة العراقيّة، والسورية، والبابلية، والصريفينية (شـــراب صـــرفين) والشقيق، والعتيق، والحريق، والعندم، والياقوت،" [277]. وينقل إلينا أبياتا شعريّة تصف شدة ولوع النَّاس بالخمر ومجالسه وهي من قول أبي إسحاق الصّابي[278]:

مازِلتُ في سُكْري ألمّعُ كفَّها وذراعَها بالقَرْصِ والآثـــارِ
حتى تركتُ أديمها وكأنّمـــا غُرس البنفسج منه في الجُمّارِ

وولع الخلفاء بعقد مجالس اللهو والشراب في قصورهم وذلك للتّرويح عن النَّفس التـــي بـــدأت تكـــلّ الجـــد، وأثقلـــتهـــا الهمـــوم السياســـيـــة التي تحيـــط بالخليفة والخـــلافـــــة[279]، ولا يمكن أن تعقد مجالس الشراب دون أن يرافقها مجلس للغناء فهمـــا تقريـــبا مرتبطان مع بعضهما، ويورد التوحيدي خبرا عن إسحاق الموصلي بشـــأن هـــذا الأمـــر:"ما جُمِّشَتِ الـــدُّنيا من شرب النبيذ، ولا عوتبتْ بـــأظرف من الغناء"[280].

ومـــن صـــور اهتمام الخلفاء والوزراء بمجالس الشراب والإنفاق عليها أموالا هائلـــة، إنفاق المتوكل على مجلس شرابه الذي أمر خدمه أن يكون كل شيء أمامه أصفر في يوم من الأيام، وأن يوضع الشراب في أواني من ذهب، والجواري يلبسن ثيابا صفراء، أما الخليفة الراضي الذي كان يشرب في مجلس مليء بالفاكهة الحسنة

الفاخـــرة، وأمر أن يطرحوا له في المجلس ريحانا، وعند الفراغ من الشراب يُنتهب ما في المجلس من قبل الخدم[281].

ومن مظاهر اهتمام الوزراء بهذه المجالس، أنّ جماعة من الكُبراء وكان من بينهم جملة من القضاة ينادمون الوزير المهلّبي، ويجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين علـــى إطـــراح الحشـــمة والتبسط في القصف والخلاعة، وما فيهم إلاّ ابيض اللّحية طويلهـــا، وعـــند تكامل الأنس ويطيب المجلس ويلذُّ السماع يأخذهم الطرب، ويضع الوزيـــر فـــي يد كل واحد منهم كأس ذهب وزنه ألف مثقال ،مملوءا شرابا قطربليا، فـــيغمس لحيـــته فيه بل ينقعها فيه نقعا حتى تتشرب أكثره ،ويرش منه على بعض ويرقصـــون أجمعهـــم [282]، وهـــذه الـــرواية تدلُّ على إنّ القضاة لا يتورعون عن الشراب وسماع الغناء، والاهتمام بهذه المجالس.

ويـــبدو أنّ لهـــذه المجـــالس خدماً يقومون عليها، ويطلق عليهم الشّرّابين أو السّـــقـــاة، ويـــــروي التوحـــيـــدي بيـــتا من الشعر يجمع فيـــه الشراب والشرب والساقـــي [283]:

فكأنها وكأنهم وكأنهُ قمرٌ يدور على النّجوم بشمسِ

ويلمح التوحيدي إلى أن الإسلام حرّم الخمور، ومنع بيعها وانتاجها، ويستشهد بذلـــك بقول الرسول– صلى الله عليه وسلّم –:"لا يدخل الجنّة عاق، ولا مكذّب بقدرٍ ولا مُدْمن خمر[284]."

ونقـــل أيضا حوارا بين شريك بن عبدالله ويحيى بن عبدالله الحسن البصري، عـــندما اجتمعا بدار الرّشيد بشأن النّبيذ هل هو حرام أم لا، فقـــال يحي لشريك:" ما تقـــول فـــي النّبيذ ؟ قال حلال، قال شربه خير أم تـــركه، فقال يحي بل شربه، قال فقلـــيله خير أم كثيره ؟ قال بل قليله، قال: ما رأيت خيرا قط إلاّ والازدياد منه خير إلا ّخـــيرك هذا فإنّ قليله خيرٌ من كثيرهُ". ويقال في هذا المعنى أيضا:"إنّ من شأن الشـــراب مـــن غـــير الإفراط المؤدّي بإكثاره إلى النّوازل، لتعديل الطبائع، وإيثار المنافع، ونفي الخلاف"[285] ويلمح إلى فوائد الشراب عند الاعتدال بشربه، أمـــّا إذا أكثر الشخص من تنـــاوله فإنـــه يؤدي إلـــى التّهلكة، وتفريق العقل.

ويقـــول فـــي موضـــع آخر على لسان شريك أيضا:"اشربْ منه (النّبيذ) ما وافقَــكَ، ودَعْ مـــنه ما جَنَى عليك، وذُمَّهُ إذا ذَمَّ النّاس، ولا تَنْصُرْه فَبِئْس المنصورُ والله" [286]. والنّبـــيذ فـــي رأي بعـــض النّاس أنه يذهب الهم والحزن، ومن هنا لا يتورعون عن شربه في المنازل والطرقات.

الغناء:

يعـــدّ الغـــناء لغـــة النُّفوس، وترجمة للعواطف والمشاعر، ولا يتوفر إلاّ إذا ابتهجـــت الـــنُّفوس واستقرّت، ومن هذا المنطلق نجدها تحتاجه وتشتاق إليـــه، ومن المعـــروف أن الأذن تعتاد لسماع الموسيقى والألحان، ومن ثم يقوم الإنسان ببعض الحركات اللاشعورية طربا له.

وكثـــيرا ما يأتي الغناء مرادفا للشراب وللجواري، ويعدُّ من الملذات الحسيّة، فـــيقال: "إنّ أُمَهات الدُّنيا أربع: لذّة الطَّعام، ولذّة الشَّراب، ولذة النكاح، ولذّة السَّماع، واللّـــذات الـــثلاثة لا يتوصل منها إلاّ بحركة وتعب ومشقة، ولها مضار إذا استكثر مـــنها، ولـــذة السَّماع قلّت أم كثرت صافية من التّعب، خالصة من الضرر"، ونظم الشاعر في هذا المعنى[287]:

وجدت رئيسة اللّذات	أربعـــة إذا تحســـب
فمنـــها لَـــذة المنَـــكـــ	ـــح والمطّعم والمشّرب
ويبقـــى بعدها أُخرى	من الصوت الذي يطرب
وهذه قد تفيد النَّـــفـــ	ـــس إبهاجا ولا تنصب

ويـــبدو أنّ موقـــف التوحـــيدي من الغناء كموقفه من كثير من القضايا التي شـــاعت فـــي بغـــداد، فقد كان مثار اهتمام الكثير من النَّاس بين المفكرين والأدباء والعلمـــاء والخاصّـــة والعامّة، وذهب التوحيدي إلى أنّ موضوع الغناء كان مجالاً للجـــدل بيـــن المحرّمين والمحللين، إذ أباحه فريق وحرمه آخر، كل فريق منهم يُبَّن حجته بذلك[288] .

لـــم يتـــناولْ التوحـــيدي هذه الظاهرة بحدِّ ذاتها أو أنها ظاهرة كانت منتشرة بـــبغداد فـــي القـــرن الـــرابع الهجري، بل إنه تناول أثر هذه الظاهرة على النَّفس

وانفعالاته، وكأنه رجل موسيقي يعرف الألحان وصناعة الغناء، فنراه يصف طرب البرَدَانيّ على غناء عَلْوَة جارية ابن عَلُّوية في درب السِلْق، إذا رفعت عَقِيرتها فغنّت أبيات السَّروِي[294]:

بالورد في وَجْنتيْك مَنْ لطمك ومَنْ سَقاك المُدَام لِمْ ظلَمكْ ؟

يشـــير بـــأن الصوفيّة الذين انقطعوا عن الدّنيا وملذاتها لم يسلموا من سماع الغناء، فهذا فهيم الصوفي "يضرب بنفسه الأرض ويتمرّغ في التّراب، وهاج وأزبد، وتعفر شعره عند سماعه غناء جارية ابن المغنّى (نهاية) إذا غنّت" :

استودعُ الله في بغداد لي قمراً بالكرخ من فلك الأزْرار مَطلعُهُ

وَدَّعتُــه وبــودّي لو يُودِّعُني صَفْوُ الحياةِ وأنـــي لا أُودِّعُــه

وكذلـــك طـــرب أبو الوزير الصوفي القاطن في دار القطن على صوت" قلم القضــيبية وهــي نسبة(إلى القضيب الذي توقع به) "إذا تضاجرت في استهلالها، وتذكرت شجوها الذي قد أضناها وأنضاها وسلبها منها وأنساها إيّاها"، وطرب ابن غــيلان علـــى تَرْجِـيعات "بلور" جارية ابن اليزيدي المؤلِّف بين الأكباد المحرقة، والمحســـن للعيون الباكية والقلوب المتصدعة وغيرهم ممن وصفهم التوحيدي بقلمه البارع [295]. وهذه الانفعالات التي رسمها التوحيدي ما هي إلاّ انفعالات لا إرادية لا يشـــعر بهـــا الإنسان، كما إن جميع النّاس في بغداد على اختلاف مذاهبهم وطبقاتهم يسمعون الغناء ويتفاعلون معه.

ويؤمـــن التوحيدي بضرورة التـــلاؤم بين النّص المغنـــى واللّحن والصوت المـــؤدى[296]، ويـــنقل عـــن أبي سليمان المنطقي قوله:" إنّ الصورة اللّفظية فهي مســـموعةٌ بالآلة التي هي الأذن، فإن كانت عَجْماءْ فإنها حُكم، وإن كانت ناطقة فلها حُكـــم ،وعلى الحالين فهي بين مراتب ثلاث إمّا أن يكون المراد بها تحسين الإفهام، وإمّـــا أن يكـــون المراد بها تحقيق الإفهام موقوفة على خاصٍّ مالها في بروزها من نفس القائل، ووصولها إلى نفس السامع، ولهذه الصورة بعد هذا كلّه مرتبة أخرى إذا مازجها اللّحن والإيقاع بصناعة الموسيقار فإنها حينئذ تُعطى أمورا ظريفة أعني أنها

تلــذّ الإحســـاس[297]. "ويستدعي الغناء الكأس والطاس، ويروّع القلب الطّبع وينعم البال.

ويذكـــر التوحيدي مجموعة من المغنيات اللواتي اشتهرن بالغناء منهن حبّابة جارية أبي تميم، وروعة جارية ابن الرّضىّ، وظلوم جارية أبي سعيد الصائغ [298]، وغيرهـــن. ومن ثمّ قدّم إحصائية هو وجماعة في الكرخ عن عدد المغنين والمغنيات مـــن الجـــواري والحرائر والغلمان في بغداد، فكان عدد الجواري المغنيات أربعمئة وســـتين جارية في الجانبين، وبلغ عدد الحرائر مئة وعشرين حرة، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور، يجمعون بين الحذق والحسن والظرف، ويقول:"هذا سوى ما كنّا لا نظفـــر بـــه، أو نصل إليه لعزته وحرسه ورُقبائه، وسوى ما كنّا نسمعه ممن لا يـــتظاهر بالغناء وبالضرب إلاّ إذا نشط في وقت، أو ثمل في حال، وخلع العِذار في هـــوىً قد حالفه وأضناه، وترنّم وأوقع، وهزّ رأسه، وصعد أنفاسه، وأطرب جلاّسه وكشف عندهم حجابه، وادّعى الثقة بهم[299]."

ومـــن هـــذا الحديـــث نرى أنّ الغناء شاع بين العامة والخاصة وبين الأدباء والعلماء والصوفيّة والقضاة، ويؤيد ذلك قول عبد الكريم الرازي (أبو زرعة المتوفي 264هـــ): "ما سمعت أذني شيئا من العلم إلاّ وعاه قلبي، وإني كنت أمشي في سوق بغـــداد فاســـمع من الغرف صوت الفتيـــات فأضع إصبعي في أذني مخافة أن يعيه قلبـــي[300] " لقد عرف الغناء إقبالا من الناس لا نظير له، فدخل كلّ بيت وكل قصر ببغداد، لهذا وضع ابن زرعة إصبعه في أذنه خشية أن يعي الغناء المتدفق من نوافذ المـــنازل، ويذكـــر التوحيدي أن أستاذه الفيلسوف الكبير وشيخه أبا سليمان المنطقي وابـــن غيلان -وهو من كبار الأعيان-، والقاضي أبو حسن الجرجاني كانوا محبين لسماع غناء بعض الجواري [301].

ومـــن الجـــواري اللواتي أجدن الغناء والنّواح حبّابة جارية أبي تمام، يصفها التوحـــيدي بقوله:" وكانت في النّواح واحدة لا أخت لها والناس في العراق يتهالكون علـــيها، وقـــد اشـــتراها رجل من خرسان بثلاثين ألف درهم، وكان لها أخت تدعى

صبابة، وهذه حسب رأي التوحيدي قد زلزلت بغداد بوقتها في الحسن والجمال وحذقها الصنعة، وكانت مدار حديث النّاس في بغداد[302].

والجارية التي تجيد الغناء يزداد ثمنها، في حين أن الجارية التي لا تجيد الغناء لا يزيد ثمنها على خمسة آلاف درهم [303]، وعلى الرغم من كثرة الجواري ببغداد إلاّ أنه لم يشتهر منهن سوى المغنيات.

ولم ينس أبو حيان الحديث عن درجات الغناء، سواء ما يختص بصوت المغنين أنفسهم، فمنهم من" رق صوته، وأطرب سماعه ودام صوابه، وحسنت أداته." أمّا الغناء وأفضله "ما كان في وصف شجي، أو تذكّر سكن، أو نعت شوق، أو شكوى فراق" [304]. وكان الغناء آنذاك بالشعر العربي السهل، قريب المعنى، رقيق الكلمات، سائغ اللفظ والوزن [305]، وأمّا معانيه فإنها تدور في معظمها حول العشق والغرام، والهجر كما وصفه التوحيدي، وقيل: إنّ "أحسن الغناء ما أفهم السامع وأطرب الخاشع [306]."

ويقول التوحيدي على لسان أبي سليمان المنطقي إن" النفس تطلب الغناء اللّطيف والصنف الشريف، وذلك لأنّ الموسيقا حاصلة في النّفس، وموجودة فيها، وإذا صادف موسيقار طبيعة قابلة، ومادة مستجيبة، وقريحة مؤاتية، وآلة منقادة، أفرغ عليها تأييد العقل والنّفس لبوسا مونقا وتآليفا معجبا[307] " فالغناء من مستلزمات النّفس التي تتعب من الجِدّ أحيانا، وترى بالغناء الحاذق والموسيقى الجيّدة وسيلة للترويح عنها، فالنفس تبسط الدّم في العروق عند السرور والفرح .

فالموسيقار الذي يجيد صناعته في نظر التوحيدي، ولديه القدرة على وزن الحركات المختلفة في الآلة، "فتارة يخلط الثقيلة بالخفيفة، وتارة يجرد الخفيفة من الثقيل، وتارة أخرى يرفع إحداهما على صاحبتها بزيادة نقرة، أو نقصان نقرة"، فيؤثر على سامعيه ويجذب انتباههم إلى متابعة حركات يده على الآلة الموسيقية.[308]

ومـــن الآلات الموســـيقيّة الشـــائعة في بغداد في تلك الحقبة ،المزامير والعود والطـــبل والطنـــبور والأوتار وغيرها من الآلات التي تحرك النفس ومزاج البدن، وذلك لأنّ المزاج والنفس متلازمان ويؤثر أحدهما على الآخر[309].

ومـــن هـــنا نجـــد أنّ المجتمع البغدادي كان شغوفا لسماع الغناء الذي أصبح ضـــرورة مـــن ضرورات المجتمع والحياة، ورأوا فيه وسيلة ترفيهية تذهب الحزن والهـــم عن النفس، فلا نكاد نجد بيتاً يخلو من جارية مغنيّة أو صبي مغن أو مجالس للســـمر واللهو، وكان الغناء مرافقا لهذه المجالس، ويعدُّون لها إعدادا خاصا، وربما كان الندماء يتناقشون في أنواع الشراب وقول الشعر، إلا أن الرقص والغناء كان له النصيب الأكبر فيها

10.1 الأطعمة والأشربة :

شـــاع في بغداد العديد من الأطعمة والأشربة، سواء أكانت عربيّة أم أعجمية أخذتهـــا العـــرب عـــن الفـــرس والروم وغيرهم نتيجة لاختلاط والتمازج. وبعض الأطعمـــة تكون بسيطة ورخيصة الثمن، فتداولتها العامة، وبعضها الآخر كان غالي الثمـــن ومعقـــد التركيب، إذ يدخل في تركيبه العديد من التوابل والمطيّبات وتخصُّ الطـــبقة العليا، والنوع االآخر يطلق عليه الطعام الشعبي يتداوله النّاس على مختلف مســـتوياتهم الاجتماعـــية والاقتصاديّة، ونلمح أنّ المأكولات تبّرز التباين الطبقي في فئات المجتمع البغدادي[310].

وســـجلّت لـــنا مؤلفـــات التوحيدي العديد من هذه الأطعمة وخاصة في كتابه "الإمتاع والمؤانسة"، حيث أفرد الليلة الحادية والثلاثين، والثانية والثلاثين للحديث في "أمـــر المُطْعِميـــن والطَّاعِمين الذين يهشون عند المائدة"، ويحث على الممالحة في الطّعـــام وقرى الضيف، والاستعجال في تقديم الطّعام له، ويروي مقولة عن السلف تحـــث علـــى ذلك بقوله: "العجلة من الشيطان إلاّ في خمسة مواضع، فإنّها من سُنَّة الرســـول – صلّى الله عليه وسلّم– إطعام الضيف إذا حل، وتجهيز الميت إذا مات، وتـــزويج الـــبِكر إذا أدركـــت، وقضاء الدّين إذا حل، ووجب التوبة من الـــذنب إذا وقـــع[311]." وتحدث عن البخل والبخلاء الذين يفضلون الطّعام الذي يمسك الرمق،

وقـيــل إنّ السخاء والبخل فـــي الطّعـــام[312]، ويذم البخيل وينفّر منه فيقول: "من ضــاف البخيل صامت دابته،وأمِن من التخمة"، وفي موضع آخر يذكر مقولة مرويّة عــن أم البنين –وهي أخت عمر بن عبد العزيز "لو كان البخل طريقا ما سلكته ولو كان ثوبا ما لبسته ولو كان سِراجا ما استضأت به".[313] "

ويذكر التوحيدي بعضا من آداب الطّعام، وطريقة الأكل، فمنها عند الدّعوة إلى الطّعــام ينبغــي الذهــاب مــبكرا، وإذا أكل فعليه الأكل بثلاثة أصابع وهي الإبهام والســبَّابة والوسطى، وإذا شرب أن يبقي بقية في الإناء، وكذلك يجب غسل الأيدي قبل الطعام وبعده، وأن يبدأ ربُّ البيت بالتقدُّم إلى الطعام لئلا يحتشم أحد [314].

أطعمة الخاصة "الخلفاء ورجال الدولة "

عــادة مــا تكون أطعمة هذه الطبقة معقدة التركيب والصنع، إذ تحتوي على العديــد مــن التوابل، ويطلق عليها اسم "الأباريز" فهي تعطي الطعام الطعم الطيّب، ويقــدّم التوحيدي صورة لإحدى موائد هذه الفئة، التي تحتوي على ما لذّ وطاب من الطّعــام، ويرسم لنا صاحب هذه المائدة، أنه "ضخم الخوان (المائدة)، كثير الطّعام، وافر الرغيف، وكان معجبا بإجادة الألوان، واتخاذ البدائع والطرائق والغرائب على مائدتــه، وكانت تحتوي على ضرب من الحلوى لا تعرف إلاّ به، وكان خبزه الذي يوضع على المائدة الرغيــف من مكوك دقيق"[315].

وهــذا أبو عمر الشاري صاحب الخليفة، يدعو أحد رجال الصوفيّة إلى الطّعام واصــفا له مخــتلف أنــواع الأطعمــة الفاخرة قائلا:"انهض بنا نتغدى، فإنّ عندي مصوصــا وهلاما، وبقيّة مطبخة، وشيئاً من الباذنجان البورانيّ البائت المخمّر[316]." وقــدّم الصــابي وصفا رائعا لمائدة الوزير ابن الفرات، الذي كان يدعو كلّ يوم إلى مائدته جماعة من كتّابه "ويقدّم إلى كلّ واحد منهم طبقاً فيه أصناف الفاكهة الموجودة فــي ذلك الوقت ،ثمّ يجعل في الوسط طبقاً كبيراً يشتمل على جميع الأصناف، وكل طــبق فــيه ســكين يقطــع بها صاحبه ما يحتاج إلى قطعة من السفرجل والخوخ والكمــثرى، "ويــأخذ ابــن الفرات يحادث القوم ويباسطهم وما تزال ألوان الأطعمة

توضـــع وترفع أكثر من ساعتين، ومن ثمّ ينهضون إلى مجلس آخرَ ليغسلوا أيديهم، والفرّاشون قيـــام يصبون الماء عليهم "[317].

وممّـــا سبق نرى أنّ موائد الخاصة تعمر بشتى أنواع الأطعمة ومن أكلاتهم كُـــبُود الدّجاج المسمن، وصدور البط بماء التفاح، وماء حبّ الرُّمان والتوت الشامي وهـــم لا يأكلون من الدجاج إلاّ الصدور، وكذلك الفراريج والجِداء المسمّنة أكثر ممّا تـــتخذه هـــذه الطبقة على موائدها[318].وذكر التوحيدي أنّ الهرائس والرؤوس طعام الســـلاطين، ويسمى الرأس "عُرسا" أو "الجامع " أو"الكامل" وذلك لما فيه من الألوان الطيّـــبة العجيـــبة ذات الطعوم المختلفة، ويعدُّ الجدي زينة المائدة، وجُعل كالخاتمة والعافية وعلامة الفراغ[319] .

ومـــن المـــآكل الأخرى التي نقلها لنا التوحيدي والتي تعدُّ من تزايين المائدة وهي الجوزيات والخل والبقل والجبن والزيتون، ويتخذون الخبز الحواري الذي يعدُّ من أجود أنواع الخبز على الإطلاق، ويصنع من الدقيق المصفى[320]. وأمّا السّكباج فقد كان من ألذّ المأكولات التي تقدّم في الصيف والشتاء، ويتكون من اللحم المطبوخ مـــع الجـــزر والـــباذنجان، فهـــي تشفي القلـــوب من السّقام، ويقـــال مخ الأطعمة السّكبـــاج [321].

ويعدُّ دهن اللوز والجوز، واللوزينج المعمول بالفستق من أكلات الأثرياء، فقد كـــان أحد الأثرياء ينفق على جام من اللوزينج خمسون درهما وخمسة دنانير [322]. وكذلـــك الزيرباج التي تصنع من قطع اللّحم السمين والحمص، ويطرح عليها الخل وبعـــض الســـكر واللـــوز[323]، والجواذب التي تصنع من واللحم والأرز، والأرز الـــرّيان من اللبن تعدُّ من الأكلات المعروفة لدى هذه الفئة، والمضيرة أيضا تعدّ من طعام هذه الفئة وتتكون من اللحم الذي يطبخ باللبن[324] .

وجـــرت العـــادة بين أفراد هذه الفئة أكل الحلوى بعد الطعام، وعرفت بغداد أنواعـــاً مختلفة من الحلوى، وكان قوامها الشهد والعسل والسكر والتمـــر[325]، ومن أشـــهر أنواع الحلوى الفالوذج الرّيان بالعسل، ويعدّ من أشهى أنواع الحلوى ويصنع مـــن شهد النَّحل، والدقيق والماء[326]، ويروي لنا التوحيدي رواية عن أبي الحارث

جميــن، عندما سأل عن الفالوذج فقال: "لَوددْتُ أنّه وملَكُ الموتِ اعتلجا في صدري، والله لــو أنّ موسى لقي فرعونَ بفالوذجةٍ لآمَنَ، ولكنه لقيه بالعصا"[327]، ويقول ابن قتيبــة: "إنّ الفــالوذج حلواء يسوى من لُبُّ الحنطة"، ويعدُّ الفالــوذح المصري من أحسن الأنــواع وقــد أشتهر بجودتـــه[328].

ومــن أنــواع الحلــوى الشائعة في بغداد أيضا اللوزينج المعمول بالفستق، وحلــوى المــربــى، والقطــائف المقلــية، والخبــيص المعمول من الدّهن والسكر والزّعفران [329].

كان النبيذ بشتى أنواعه الشراب الرئيس لهذه الفئة، ويتناول بعد الطّعام لتنعش شــاربها، ومــن أنــواع النبــيذ الشائع في بغداد نبيذ الدُّوشاب، ويعدّ "النبيذ الحديث الصــافي أوفــق للكــبد، والعتيق أوفق للمعدة، ومن شرب العتيق فليقطع فيه التفاح والسفرجل "[330]، إضافة إلى الماء البارد المثلّج، والألبان التي تأخذ من الإبل والغنم والبقر، والفُقّاع (وهو شراب يتخذ من الشعير يُخمَّرُ حتى تعلوه فُقّاعاته).[331]

وقــد كــان لأفــراد هذه الطبقة طبّاخون مهرة ولهم إلمام وحذق بفن الطبخ، ويصــور لــنا التوحيدي طباخاً حاذقاً يدعى(نوحاً) تصويراً رائعاً ، فيقول:"إنه كان عــنوان الــنعمة وترجمان المروءة ، وأحذق أهل صناعته ، وأبينهم فضلاً، وأذكاهم نــاراً، وأطيبهم يداً .. ومُعَبٌّ للموائد، مُلْبِكٌ للثرائد، مع كل حارٍّ وباردٍ، وكأنَّ مائدته ريــاضٌ مزخــرفةٌ، أو برودٌ مفوّقة، مرتِّبٌ للألوان ، منظف للخِوان ، لا يجمع بين شــكلين، ولا يُوالي بين طعامين ، ولا يغرف اللونَ إلاّ وضدَّه، يُنضجُ الشّواء ويُحكم الحلواء، ويُخالفُ بين طعام الغداء والعشاء، يكتفي باللحَّظة، ويفهم بالإشارة "[332] .

أطعمة الفقراء "العامة ":

كانــت أطعمــة العامّــة فقيرة الدَّسم، وتتألف من الشواء المنتشر في الأسواق، والســمك الذي يكثر شوكه، ولحم البقر الغليظ التي تنهش كما تنهش الفهود، وتؤكل كمــا تأكل السباع، وبالعادة يكثرون من تناول الخضار والحبوب من العدس واللُّوبيا والأرز[333]، وبعضهم يأكل خبزاً قفاراً؛ أي لا شيء تأكل معه، أو خبيزاً؛ أي فطيراً يابساً، ويصف أبو حيان طعام الفقير قائلاً: "مرقتهُ سلِقَه، وغذاؤهُ عُلقة، وخبزتهُ فلقة،

وســمكتهُ شلقة؛ أي كثيرة الشوك"، وخبزهم الخشنّكار[334] المصنــوع من الشعيــر أو الأرز[335].

وكثيرا ما تأكل العامة الجراد، الذي يعدّ من الأطعمة التقليدية بالنسبة لهم، ويباع مطــبوخا في أسواق بغداد من قبل باعة خاصة به[336]، كذلك الجبن والخبز يعدُّ من أكلاتهــم المشــهورة، وقد سئُلَ رجل من العامة ما تشتهي؟ فقال :نشيش مقلي بين غلــيان قــدر على رائحة شواء، وذكر الخطيب البغدادي أنّ رجلا أشتهي بقلا منذ ثلاثين سنة، والهِندِبَا أو الهِنْدباء (وهي نوع من أنواع البقول يُطبخ ورقه) منذ ثماني عشــرة ســنة ولم يقدر على شرائها، ويصف التوحيدي أن موائد الفقراء لا تحتوي علــى بقل ولا خل.[337] والواقع أنّ العامة لا تعرف الكثير من الأطعمة، وتكتفي بما يسدُّ رمقها، وحاجتها اليوميّة، ولا حاجة لها بالتفنن بأنواع الأطعمة.

وأمّا حلوها فهو التمر، والحلاوة المدلوكة باليد، وهي من اللذائذ عندهم، ويروي التنوخــي قصــة عــن الخليفة المقتدر الذي ذهب بنزهة إلى بستانه، وعندما تأخر طعامه، أكل من طعام الملاّح الذي كان بصحبته في القارب، كان هذا الطّعام يتألف من قطعة من السمك الجيّد المملّح، وأرغفة سميذ جيّدة، المطبوخ من الدقيق الأبيض، وبعــد أن فــرغ مــن الطّعام طلب الحلوى، فأجابه الملاّح نحن لا نعرف الحلوى، فاستغرب الخليفة ذلك، وقال:ما ظننت أنّ في الدّنيا من يأكل طعاما بلا حلوى، فقال الملاّح إنّما حلوانا التمر والكسب "التمر المجفف" ولكنّ الخليفة رفض هذا النوع من الحلوى[338].

ويعــدّ الباقليّ من أكثر الأكلات التي تستهلكها العامّة، ويباع مطبوخا إذ بلغ ثمن ما يباع منه كلّ يوم ستين ألف دينار[339]، وهو أيضا من طب الجياع على حد تعبير التوحــيدي وتطبخ وحدها بعد أن تقشّر[340]، وتباع الهريسة في الأسواق و تعدُّ من الأكــلات الشــائعة، وهــي فــي نظر التوحيدي من طعام السوقيين والسفلة. [341] ويصــرح في موضع آخر أنها من أطعمة الخاصة، وتصنع من اللّحم السّمين والماء والحنطة [342].

وكانت العصيدة والثريدة من المآكل المعروفة لدى أهل بغداد، وأحسن أنواع الــثريد الدّكــناء، أي الكثــيرة التوابل وشديدة الخلط، والموسّعة زيتا[343]، قال أعرابي في وصف الثريد[344]:

ثريدة محمــومــه في صَحْفَةٍ مَكمومَهْ

قد أُلحِفَتْ رُقــاقــا وجُلّلــتْ عــراقــا

وتــتكون الثريدة من المرق واللّحم، وقد قيل لأعرابي أي الطعام أحبُّ إليك؟ فقــال:" ثــريدة دكناء من الفلفل، رقطاء من الحمص، لها حِفافين من اللّحم، لها جناحيــن مــن العُراق"[345]، أمّا العصيدة فهي تعمل من التمر والسكر والعسل، ومن أشهر أنواعها في بغداد العصيدة المنصوريّة والبرمكيّة[346].

وقد اطلعنا التوحيدي على لائحة من الأطعمة الشائعة في بغداد في تلك الفترة الزمنــيّة، ولــذا نجــده يحثُّ على الرفق بالفقراء والضعفاء، مستعينا بجملة من أحاديث الرّسول صلى الله عليه وسلّم ومنها: "من كان له ظهر فَلْيَعِدْ على من لا ظهر له، ومن كان لــه زاد، فَلْيَعِدْ علــى مــن لا زاد له، حتى رأينا أنَّه لا حق لأحد منّا فــي الفضل [347]."

11.1 الشطار والعيارون:

الشــطّار والعــيارون فـئة اجتماعــية من عوام النّاس، تمردت على واقعها المعيشــي المتدهور، واتخذت من السلّب والنّهب وقطع الطرق، حرفة تكسب منها لقمة العيش.

وتعني كلمة الشطّار في اللُّغة البعيدون، ويقال شَطَرَ: لتباعده عن قومه وقيل فلان شاطر أي بعيد عن الاستواء، وهو الذي أعيّا أهله، ومؤدبه خبثا[348] .

إذن فالشطّار هم الذين انفصلوا عن أقوامهم وذويهم، لكثرة مشاكلهم ومكرهم وخبثهم المتكرر، مما حدا بأهلهم لنبذهم وعدم احترامهم.

فــي حيــن إنّ كلمــة العيّار تعني رجلا كثير المجيء والذهاب في الأرض، وكثــير الــتّطواف والحركة، ويتّصف بالذكاء، وقيل إنّ العرب تمدح العيّار حينا،

وتذمه حينا آخر، فتمدحه عندما ينشط في طاعة الله تعالى، وتذمه عندما ينشط في ارتكاب المعاصي[349].

أطلـــق المؤرخون على هذه الفئة كلمة فتيان، وهي مأخوذة من الفتى، والفتى لا يكذب ولا يقترف ذنبا، ويحفظ الحرم، ولا يهتك ستر امرأة، بينما هذه الجماعة لا تـــتورع عن فعل المنكر والحرام ويسمون طريقتهم هذه فتوة [350]، والفتوة في نظـــر التوحـــيدي هـــي المروءة وإظهـــار الجدة(الحدة)، والكرم والجود والعفة وسائـــر خصال النّفس التي تصلح لكلٍّ زمان ومكان. [351]

وكـــان أول ظهورهـــذه الفـــئة علـــى مسرح الأحداث في نهاية القرن الثاني الهجـــري، وأوائـــل القـــرن الثالث الهجري، عند حصار بغداد أيـــام النزاع بين الأميـــــن والمـــــأمون [352]،فقـــد ذكر الطبري: "أنّ الشطار قد آذوا الناس أذى شديدا، وأظهروا الفسق، وقطع الطريق، وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطرق، وكـــانوا يجـــتمعون فيأتون القرى ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وهم لا ســـلطان يمنعهم ولا يقدر على ذلك منهم لأنّ السلطان كان يعتز بهم [353]." فهذه الجماعـــة كانت تقوم بالسطو على شكل جماعات منظمة، ولا يتحاشون عن فعل أي مـــنكر، وكما أنّ السلطان يستند عليهم في أوقات الشدة والحروب للدّفاع عن المدينة[354].

فحركـــتهم فـــي كثير من الأحيان كانت موجهّة ضد السلطة والحكّام والتّجار الميســـورين[355]، الذيـــن يعملـــون على إيذاء الرعيّة، وأخذ ما لديهم من أموال، وإقامة القتل والظلم .

ومـــن عياري بغداد ابن حمدي العيار الشهير الذي أعيا السلطة البغدادية، وتجمعـــت حـــوله لصوص بغداد وعياروها، فكوّن لنفسه عصابة منظّمة، ويعلل ســـبب ســـلوكه هـــذا المسلك ما فعله رجال الدّولة في الرعيّة، من ارتكاب أبشع الجـــرائم فـــي حقهـــا، فابن شيرازد الكاتب كان يصادر أموال النّاس، ويفقرهم، ويســـجن الغنـــي ولا يخرجه من حبسه إلاّ وهو لا يهتدي إلى شيء غير الصدقة،

وغـــيره الكثـــير من رجال الدَّولة الذين يأخذون الضياع والدور والعقـــار، وربما يتجاوز ذلك إلى الحُرم [356].

من حسنات بعض هذه الفئة أنهم لا يتعرّضون للنساء والفقراء والتّجار الذين لا يـــتجاوز رأس مـــالهم الألف دينار[357]، بل كانوا يعمدون إلى نهب الحوانيت والأســـواق وبـــيوت الأغنـــياء لصالح الفقراء، وهم بهذا يظنون أنَّهم ينتقمون من الطبقة العليا، وهذا العمل دفع العامة إلى التعاطف معهم والإعجاب بهم[358] .

والمتتـــبع لحـــركة الشُّـــطار يجدها حركة ثوريّة تنهض في أوقات الضعف والتخلخل السياسي، إثر الفتن التي تحدثها السنّة والشيعة، وإثر عزل خليفة أو قتله أو تعييـــن غـــيره [359]، وفي أوقات غلاء الأسعار وانعدام القوت، يستغلون هذه الظـــروف لشن غارتهم وإشعال النِّيران في أسواق المدينة، ونهب الأغنياء علنا وصراحة بالنهار والليل، ويقتلون من يقاومهم[360] .

ويرســـم لنا التوحيدي هذه الفئة الثوريّة في ثنايا مؤلفاته، وهو بهذه الصورة يـــنقد الأوضاع السياسية والاقتصاديّة السائدة في بغداد آنذاك، ويبيّن مدى تأثيرها علـــى عامـــة الشعب، فهو بهذا يريد نقد حكّام وخلفاء وأمراء بغداد، الذين اهتموا بمصالحهم الشخصيّة على حساب مصالح السلطة والشعب التي أودعها الله سبحانه وتعـــالى أمانة في أعناقهم فهم "خلفاء الله على عباده " وكما يريد تذكير هذه الفئة بالفقـــراء الذين يحيون حياة البؤس والشقاء، فالشطار من عامة الشعب، ومن هذه البيئة الفقيرة، ظهروا لتحسين أوضاع الفئة الشعبيّة الفقيرة، والتّمرد على السلطة، يقول التوحيدي:" لو كان لنا خليفة أو سائس لم يفض هذا الأمر على هذه الشناعة [361]".

ومن الصور التي قدَّمها استغلال العيار والشطار فرصة انشغال النّاس بغزو الرّوم في سنة 361هـــ على الثغور المجاورة لبغداد، بإعاثة الفساد والإغارة على بـــيوت الـــناس والمَحَـــال الـــتِّجارية، مســـتخدمين أسلحتهم الخاصة من السيوف والسكاكين وغيرها، والخلفاء والأمراء لاهون لا مبالاة لهم بالأحداث التي تجري ببغداد وغيرها من الأمصار الإسلاميّة [362].

ويبدو أن هذه الفئة شكّلت لنفسها عصابات منظمة عسكرياً تحت إمرة شيخ أو رئـــيس، يـــنظّم أمـــرهم ويشـــرف علـــى أعمـــالهم، وكان لديهم قضاة يفضون الـــنزاعات[363]، وقد أشار الجاحظ إلى أحد هؤلاء القضاة وهو "أبو الفاتك قاضي الفتيان"[364].

ويعـــدّون حرفـــتهم هـــذه حرفة مشروعة لأن ما يأخذونه من أموال التُّجار الأغنـــياء زكـــاة تلك الأموال التي أوصى الإسلام بإعطائها للفقراء والمحتاجين، ويعـــدون أنفســـهم القوة الرئيسة التي تدافع عن هؤلاء الضعفاء من ظلم وتعسف الحكّـــام، وبالتالـــي أصبحوا الطّليعة الأساسية للطبقات الشعبية المكافحة، وأرباب المهـــن والصـــناعات، فأنهم ينطلقون من اعتبار أنفسهم أصحاب قضيّة يدافعون عنها، وإنّ الرفض للأوضاع السياسيةّ والاجتماعية هو شعارهم الذي اتخذوه لهذه الحركة[365].

ومـــن هـــذا المـــنطلق أصبحت هذه الفئة مصدر قلق للسلطة، مما حدا بابن شـــيرازد القـــائد التّركي أن يعقد مع ابن حمدي اتفاقا لم يسمع بمثله قط، فقد خلع علـــيه وأثبته برسم الجند مقابل أن يدفع ابن حمدي في كل شهر لابن شيرازد مما يســـرقه خمســـة عشـــر ألـــف دينار، وكان يـــأخذ منه المبلغ بمقابـــل وصولات رسميّة[366] وهذا الأمر يوّضح مقدار عجز السلطة أمام هذه الفئة.

والممعـــن بهذه الحركة يجد أنهاً سبب معظم الفتن والاضطرابات التي تحدث فـــي بغداد بين السنة والشيعة، فهي تضمُّ السني والشيعي، وكثيرا ما يحدث بينهما مـــناورات ومناوشـــات بسبب التعصّب للمذهب، ويؤيد ذلك قول ابن الجوزي في حـــوادث ســـنة 392هـــ "إنّ أمر العيارين ازداد ببغداد وكان من بينهم من هو عباسي وعلوي ..."[367].

ويصـــف التوحـــيدي هذه الفئة بأنهم " رهط ليس لأحد فيهم منهم أسوة ولاهم لأحـــد قـــدوة، لغلـــبة الباطل عليهم، وبعد الحق عنهم، ولأنّ الدّين لا يلتاط بهم، والفـــتوة التـــي يدّعونها بالاسم لا يحلون بها في الحقيقة، وكيف تصلح الفتوة إذا

فارقــت الدّيـــن، وكيف يستقر الدِّين إذا فارقته الفتوة [368]."وهم عنده بعيدون عن الفتوة والدّين وذلك لغلبة الباطل عليهم.

ومن أبرز هؤلاء الشطّار الذين أشار إليهم التوحيدي "ابن كرويه وأبو الدُّود، وأبــو الذُّبـــاب، وأسود الزُّبد، وأبو الأرَضة، وأبو النَّوابح"،ويصور الغارة التي شـــنت مـــن قبل هؤلاء تصويرا مؤثرا في النَّفس قائلاً :"وكل ما كان غريبا بديعا عجيـــبا شـــنيعا حصـــل لنا من العيارين " و"شنّت الغارة، واتصل النَّهب، وتوالى الحـــريق حـــتى لـــم يصل إلينا الماء من دجلة." ويتبع قوله بأنه لم يسلم من هذه الغـــارة، فقـــد اكتسحوا منزله، وسلبوا ما فيه من أمول وثياب وأثاث، وما كان قد ادخـــره مـــن تراث العمر، وأنهم جرّدوا السكاكين على جاريته يطالبونها بالمال، فقـــتلوها ودفنـــت مـــن يومهـــا، وبهذا أمسى صاحبنا وحيدا لا يملك شيئا فيقول: "أمسيت وما أملك مع الشيطان فَجْرَة، ولا مع الغُراب نَقْرَة [369]."

ويرســـم صورة للمجتمع الذي تعيشه هذه الفئة مستخدما الألفاظ المتداولة في هـــذا المجـــتمع الفاســـد، والتي تدلُّ على مقدار فضاعة أمرهم وقوتهم وشجاعتهم ومباهاتهم في ارتكاب أفضع الجرائم، فهم بلا أخلاق، ويمثل لنا هذه الصورة على شـــكل محـــاورة حدثـــت بين أربعة من الشطار وهم "صحناه، وحرملة، وغزوان وطفشـــة " وكان معهم غلام أمرد هو سبب هذه المحاورة والمفاخرة، إذ يريد كل واحـــد مـــن هؤلاء أن يضم هذا الغلام إلى جماعته، فتقدموا إلى شيخ منهم، فقال الشـــيخ: ليذكر كلٌّ واحد منكم ما فعله وما يقدِرُ عليه حتى أخبر هذا الغلام فيصير إلـــى مـــن أحـــبَّ فتقدم كلٌّ واحد منهم وذكر ما فعله وما يستطيع أن يفعله، فكان صـــحناه أول المتقدّميـــن فقـــال :"... أنا الحرب الزبون، أنا الجمل الهائج... أنا ســـرادق التضريب، أنا بوق الحروب، أنا طبل الشعب." أمّا حرملة فقال :" ...أنا أسســـت الشـــطارة، وأنا بوبت العيارة..."وأمّا غزوان فقال:"... أنا إيوان كسرى، حولتُ المجالس والمطابق، وقطعت أكباد الخلائق..." وقال طفشة:"أنـــا قتلت ألفا وأنـــا فـــي طلـــب ألف ..."[370] نلاحظ مما سبق أنهم يفتخرون في عمل المنكر والأعمال التي تسيء للنّاس.

وتعــدّ هــذه الفئة من أحد الأسباب الرئيسة فيما أصاب بغداد من انهيار وما نــزل بساحتها من تدهور في جميع النواحي في تلك الحقبة الزمنية فإنهم أرهقوا بغــداد بشطارتهم، وفرضوا سيطرتهم عليها، وكانت السلطة كثيرا ما تستعين بهم ضد الغزوات الخارجية في إعادة الهدوء إلى بغداد المضطربة بالفتن، ومثال ذلك استعانة ابن رائق _ أمير الأمراء في بغداد _ بالعيارين على أبي الحسن علي بن محمد البريدي، فما كان من العيارين إلاّ أن فتحوا السجون وعظم أمرهم، مما عدّ ابن رائق الاستعانة بهم خطأ عظيما، وكان ذلك في حوادث سنة 330هـ[371] .

وعلــى الــرغم من شناعة ما ارتكبوه ببغداد، إلا أنهم يتصفون بعدة صفات حســنة ومــبادئ أخلاقية تقرّبهم من العامة وتتعجب من أمرهم، فقد بلغوا درجة عظــيمة فــي الصبر وتحمل الأذى، حتى إنّ أبا هيثم العيّار ضُرب من قبل أمير المؤمنيــن ثمانــية ألــف سوط وصبر عليها كلّها[372]، فهذا الأمر يشير إلى شدّة تحملهــم الأذى والصبر عليه حتى ضُرب بهم المثل، وهم لا يتورعون في الدّفاع عــن الضــعفاء والمرأة، ولا يتعرضون لصغار التّجار فكان جلّ هدفهم السلطة ورجــال الدّولة والأغنياء المثرين، والتغلُّب على التباين في المستوي الاقتصادي الذي أوجدته السلطة بين فئات الشعب[373]

ومــن كــرم أخلاق ابن حمدي العيار إذا قطع الطريق لم يتعرضْ لأصحاب البضــائع القليلة التي تكون دون الألف، وإذا أخذ ممن حاله ضعيفة قاسمه عليه، فــترك شــطر مالــه فــي يديه[374]، ويدلّ على أنهم ظهروا للتَّغلب على واقعهم الاجتماعــي السيئ، وأن الحكومة هي التي أجبرتهم على سلوك هذه الطريقة في كسب المعاش.

ويذكــر التوحيدي قصة عن أحد عياري بغداد الذي ألجأته الظروف القاسية إلــى الهــروب إلى الشام بعد هذه الحادثة ألا وهو أسود الزُّبد :"فمن غريب مما جرى أنّ أسود الزُّبد كان عبدا يأوي إلى قنطرة الزّبد ويلتقط النوى ويَستَطعمُ من حَضَرَ ذلك المكان بلهوٍ ولعب، وهو عُرْيان لا يتوارى إلاّ بخرقة ... ومضى على هــذا دهر، فلمّا حلّت النَّفرة، أعني لمّا وقعت الفتنة، وفشا الهرج والمرج، ورأى

الأســود مــن هو أضعف منه قد أخذ السَّيْف وأعمله، طلب سيفا وشحذَه، ونهب وأغــار وســلب، وظهر شيطان في مسك إنسان...، ويشير التوحيدي إلى حسن أخلاقــه مع شره ولعنته أشترى جارية من سوق النَّخاسين بألف دينار ولمّا رأى إعراض الجارية عنه، وطلبها منه ان يبيعها، فما كان منه إلا أن أعتقها وأعطاها ألــف ديــنار بحضرة القاضي ابن الدقاق عند مسجد ابن رغبان-غربي بغداد - فعجــب الــنّاس مــن نفسه وهمته وسماحته على الرُّغم من الصفات القبيحة التي اتصف بها(375).

ومــن الصــفات الأخــرى التي ذكرها الجاحظ عن العيارين الزُّهد في حبّ النســاء، والابتعاد عن سماع الغناء والموسيقى، وشرب الزبيب المطبوخ وينبغي أن يشــربون عِوضــا عنه نبيذ التمر(376). وكان بعضهم يتّصف بالعلم والأدب، وأحاديــثه تــنمّ عن فهم وأدب أيضاً، وبعضهم يروي الشعر ويفهم النحو، ويتزيّا بزي الأمراء(377)، فإنهم بهذه الصفات سواء اللصوصية أو الحسنة يقتدون بأعمال وســلوك حكّــامهم بانتهاب أموال النَّاس واغتصاب حقوقهم، وكانوا يقطنون بغداد التــي كانت مسرح الأحداث السياسية والاقتصادية، ومحط أنظار الدول العظمى، فجميعها تطمع بأن تحتلّها وتسيطر عليها.

ويصــف لباسهم وهيئتهم قائلا:"وترى أحدهم يضيق الأكمام، ويحلُّ الأزرار، ويفتل السِّبال ويمشي متحاملا (378) ".

الفصل الثاني

الوضع السياسي

اجتاح بغداد العديد من الفتن والاضطرابات، التي أقلقت أمنها وطمأنينتها، وقــد بدأت بغداد تنهار وتضعف، بعد وفاة المكتفي بالله ، وتولى بعدهُ المقتدر بالله فــي سنة 295 هــ. وهو ابن الثالثة عشرة من عمره، حيث أفضى أمر الخلافة إلى والدته الروميّة شغب، التي استولت على جميع الأمور من عزل وتولية، لكنها امرأة لم تستطع السيطرة على جميع الأمور سواء الخارجيّة أم الداخليّة، ممّا أدى إِلــى عــزل ولدها مرتين، ومن ثم سقط قتيلاً في إحدى المعارك التي خرج فيها للقتال، وتعدُّ هذهِ أول مرة يخرج فيها المقتدر للقتال [379].

وأخــذت الدَّولة تنهار، وأُمور الخلافة تزداد سوءاً، وأسباب الضعف تتوالى وتتداعى حتى سيطر بنو بويه على عاصمة الخلافة العباسيّة "بغداد" وبذلك قُضي علــى أمــر الخلافة ولم يبقَ للخليفة غير الاسم فقط، أمّا أمور الخلافة فأصبحت جميعها بيد أمير الأمراء البويهي، فبيده عزل خليفة وتولية غيره.

ولعل من أهم الأسباب التي أدَّت إِلى ضعف الخلافة وانهيارها ميل الخلفاء إِلى اللهو والمجون، والولع بالغلمان والجواري[380]، واهتمامهم بأمورهم الخاصّة علــى حساب أمور الرعيّة ومصالح السلطة، وشيوع الرشوة وانتشار الفساد في أركــان السلطة مما ساهم في إضعاف الدّولة العباسيّة[381]، وعدم المحافظة على كيان الخلافة.

ويبدو من خلال المصادر العربيّة القديمة، أن بغداد في هذا القرن – القرن الرابع الهجري _ قد تفشّى فيها الإرهاب السياسي، والصراع المذهبي، إذ كثرت الفتــن بيــن السُّنة والشّيعة وكثر التنكيل، وشاعت المؤامرات بين المسؤولين عن الســلطة، سواء الخلفاء، أو الأمراء،أو الوزراء،وقد تصل الأمور أحياناً إِلى القتل بأبشع الصّور، والتمثيل بالجسد.

ومّمــا يجــدر ذكــره أن التوحــيدي أعطى صورة تقريبيّة لما كانت عليه الأوضــاع السياســية فــي بغــداد، والتي يمثلها الخلفاء والسلاطين، والوزراء

والأمـــراء، وما كانوا عليه من ضعف واستكانة، وبعضهم اتَّصف بضعف الخُلق وانعدام الأمانة، وهذا الشيء دفعهم إلى التنكيل ببعضهم، وارتكاب أبشع الجرائم، من أجل الوصول إلى مطامحهم الشخصيَّة في السلطة.

ويتناول هذا الفصل وضع كل من الخلفاء والسلاطين والوزراء والأمراء، وبعضـــا من مظاهر التدهور السياسي، ومنها المصادرات والشعوبيّة، والحركات الانفصـــالية والطائفية التي انتشرت ببغداد آنذاك، ولمحَّ إليها أبو حيان التوحيدي، وإن لم يتناولها بشكل مفصل.

1.2 الخلفاء والسلاطين :

قـــدَّم التوحيدي فكرة عامة عن وضع هذه الفئة في بغداد، إذ كانت المصدر الرئـــيس في نظره لما شاع في بغداد من اضطرابات وفتن، وذلك بسبب التنازع فيما بينها على السلطة، وقد أخذ هذا التنازع والصراع شكلاً دموياً يثير في نفس البشـــريّة الاشـــمئزاز والخوف، مما حدا بالتوحيدي أن يقول: "قد بلينا بهذا الدهر الخالـــي مـــن الدّيانين الذين يصلحون أنفسهم ويصلحون غيرهم بفضل صلاحهم الخـــاوي من الكرام الذين كانوا يتّسعون في أحوالهم، ويوسّعون على غيرهم من ســـعيهم، وكـــانوا يهتمون بذخائر الشكل المعجل في الدُّنيا، يحرصون على ودائع الأجر المؤجل في الأخرى، ويتلذذون بالثناء، ويهتزون للدعاء، وتملكهم الأريحيةُ عـــند مسألة المحتاج..."[382]ويشير إلى أن بغداد بخاصة والعصر بعامة، خلا من الحكّام "الذين إذا ولوا عدلوا، وإذا ملكوا فصلوا،... وإذا انفقوا واسوا"[383]،ويتبع حديـــثه بذكر فضائل الخلفاء القدامى الذين كانت نقائبهم بنظره ميمونة ونقيّة، وأن مـــن شـــيمهم الصـــفح والمغفرة قائلاً:" وكانوا يرجعون إلى نقائب ميمونة وإلى ضـــرائب مأمونـــة وإلـــى ديانات قويّة، وأمانات ثخينة، وكان لهم مع الله أسرار طاهـــرة، وعلانـــية مقـــبولة، ومع عباد الله معاملة جميلة ...[384]" وأن الملك أو الخليفة الحق في نظره هو الذي يملك رقاب النَّاس بالمحبة [385].

وينبغـــي علـــى الخلفاء والحكّام الإئتمار بأمر الله تعالى في سياسة خاصته وحاشـــيته أولاً، ومـــن ثمّ رعيته، والاقتداء بنبيّه- صلى الله عليه وسلّم- والسّلف

الصّـــالح مـــن الخلفـــاء الراشدين[386]، وأن يتحلّى بعدة فضائل، من أهمها بنظر التوحـــيدي، العفة التي بها تقوّم القوة الشهويّة التي تنازع أي إنسان وليس الملوك فقـــط، ومن ثمّ تقويم القوة الغضبيّة، وأن يتّصف بالحلم والعفو عند المقدرة، فعليه أن يســـتعملها كمـــا ينبغـــي وعلى من ينبغي، ويجب عليه التحلي بالعقل الذي به تســـاس الدّول والملل، والعدل الذي به تستغزر الأموال، وتعمر الأعمال، وتصلح الـــرجال، وعليه تحمّل الأذى، والصبر على الشدائد والمصائب، وأن يتخلص من أربعة خصال، ألا وهي: الكذب، والبخل، والحسد، والجبن الذي يجعل من أعدائه أن يستكينوا به [387].

ومـــن الأمور الأخرى التي ينبغي أن يأخذ بها العلم، الذي هو ثمرة العقل وفيه يستبصر فيما يأتيه، ويأمن الزلل في قضاياه وأحكامه، ويتزيّن به في عيون العامّـــة والخاصّة، وقد قيل: "إذا خلا الملك من العلم، كان كالفيل الهائج، لا يمرّ بشـــيء إلا خـــبطه، ليس له زاجر من عقل، ولا رادع من علم"[388].فهذه صورة ذات دلالـــة واضـــحة علـــى الخليفة الذي يتّصف بالجهل ويخبط بجلهه كل شيء جمـــيل يراه ويلمسه، ولا يقصد بهذا العلم المعرفة بغوامض العلوم الاغراق بها، بـــل الثقافة التي بها يمكن أن يفاوض أرباب العلم والأدب؛ أي يأخذ من كل علم طرف، ومن أهم الخصال التي يجب أن تتوفر بكلّ سائس للرعيّة مخافة الله تعالى فهي أصل كل بركة، فإن الملك "متى خاف الله أمِنَه عباد الله "[389] .

وروي عن السلف الصالح أنّ "سائس الناس ومدبر أمورهم يحتاج إلى سعة الصـــدر، واستشعار الصّبر، واحتمال سوء أدب العامة، وإفهام الجاهل، وإرضاء المحكـــوم علـــيه...."[390]وبهـــذا يملـــك رقاب خاصته ورعيته، ويكسب ودهما، فالرياســـة لا تكـــون إلاّ إذا "خلـــت مـــن مفاتيح الزهو والكبرياء"[391]، واتصف بالتواضع، والهيبة، التي بها يجعل النّاس تهابه، فسلطان تخافه الرعيّة وتهابه خير من سلطان يخافها ويهابها[392].

ويلمّـــح التوحيدي في أكثر من موضع إلى استهانة الخاصّة والعامّة بالناظر على أمرها، والقيّم بشأنها عند استهتاره وانهماكه في لذّاته وشهواته وإهماله لها،

فـــالملك مـــن وجهة نظره "صناعة مقوّمه للمدينة، حاملة للنّاس على مصالحهم، ورعايـــة شـــئونهم، وسياســـتهم بالإيـــثار، وبالإكـــراه، وحافظة لمراتب النّاس، ومعايشهم، وبهذا تجري أموره وأمور رعيته على أفضل ما يكون" [393].

والســـلطان الـــذي لـــم يستطع أن يقوّم نفسه، ويقمع شهواته ونزواته، لم يســـتطعْ أن يقوّم غيره، فخير الملوك وأفضلهم من حمل نفسه على خير الآداب، ومن ثمّ جعل حاشيته ورعيته يقتدون به، وأعجز الملوك وأضعفهم من عجز عن إصلاح حاشيته وبطانته[394] .

نـــوه التوحيدي إلى فساد حاشية الملك، وانتشار الحسد والبغض والتّكايد فيما بيـــنهم قـــائلاً: "إنّ مـــنازل الأولياء عند الملوك محيطة بالغيرة الشديدة، والحميّة المشتعلة"[395]، وأن يبدأ الخليفة أولاً بترويض خاصته ويهتم بها حتى يكون ما في مملكـــته وولايته من هو "أسرع إلى طاعته، وأبعد من معصيته، وأقوى عزماً من نصـــرته، وأحســـن أدبـــاً في خدمته منهم"،[396] وذلك بصلاح البطانة والحاشية وإقامـــتها على الصواب يتمُّ صلاح الرعيّة، وتقوم على طاعة ملكها وسائسها فإن كـــان كل عامل في الحاشية يطمع ممن فوقه تفسد السلطة، ومن ثم يتسرب الفساد إلى الرعيّة التي بها تؤسس الدّولة والسلطان .

ويـــرى التوحيدي أنّ على الملك "تفقد أمر حاشيته وخاصته كل يوم، وأمر عامـــته في كل شهر، وأمر سلطانه في كل ساعة"[397]، وبهذا العمل يتتبع أخبار الخاصّة والعامّة، ولا يفوته أي أمر دون أن يطّلعَ عليه.

وينادي التوحيدي أيضا باختيار الحجّاب الذين يُراعون حق الله في الرعيّة وتســـهيل أمـــر دخولهـــا إلى الخليفة ويمنع عنه صاحب خبر أو مظلوم من بث شـــكواه، فالرئاســـة عـــنده "أن يكون باب الرئيس مفتوحاً لكل النّاس، سواء من الخاصّـــة، أو العامّـــة، ومجلسه مغشياً، وخيره مدركا، وإحسانه فائضاً، ووجهه مبسوطاً وكنفه مزوراً، وخادمه مؤدباً، وحـــاجبه كريماً، وبوّابه رفيقـــاً، ودرهمه مبذولاً ..."[398]. وبهذا يمكن أن يملك قلب رعيته. ويقال: إنّ "السلطان في تدمير

الرعــيّة كالشمس في فصل الأزمان[399] "وهذه صورة تكشف عن مهمة السلطان أو الخليفة الفاضل الذي يجعل جلّ همه الرعيّة والسلطة.

غــير أنّ التوحــيدي يســقط ما بنفسه من اهتمام الخلفاء بأمورهم الشخصيّة وعكوفهــم علــى اللهو والغبوق وإهمالهم السلطة وشؤون الرعيّة على أنوشروان كســرى والخلفــاء السابقين [400]، ولكنه يقصد بذلك خلفاء بغداد خاصة وعصره عامّــة، لكنه لم يصرّح بذلك علناً مما يبدو خوفاً على نفسه من بطشهم وظلمهم، وهــم عهــدوا مهــام الســلطة والرعيّة للوزراء والأمراء، وأضحوا مجرد اسم، والسلطة الفعليّة كانت بأيدي أمراء بني بويه [401].

ويلمّح التوحيدي في ثنايا مؤلفاته إلى أنّ بعض الخلفاء ساهم مع الزمان في ظلــم الرعــيَّة ولــم يكفه ما أصابها من الفقر والجوع، وما ينهبه قطّاع الطرق واللصــوص. فبعضــهم عمــد إلى غصب منازلهم والاستيلاء على ما تبقى من أموالهم وضياعهم من أجل عكوفهم على اللهو والمبالغة في الإسراف الذي بدوره استنزف أموالهم الخاصة مع أموال الدّولة، وقد ضرب التوحيدي الخليفة المعتضد مثالاً على ذلك، الذي قام باغتصاب منازل النّاس ببغداد من أجل بناء دارٍ عزم أن ينــتقل إليها أثناء مرضه[402]. وبهذه الصورة التي نقلها إلينا يوجه نقداً إلى حكّام عصــره الذيــن كانوا على شاكلة هذا الخليفة، وينكر عليهم أعمالهم القائمة على الجور والظلّم والنّهب.

ويتضح من المؤشرات التي قدَّمها صاحبنا، أنَّ أعداداً قليلة من الخلفاء كانوا علــى فضــائل الزُّهد والتقى والإيثار والبر والهدى، وكانت أبواب بعضهم مغلقة وكــان منفصــلاً عــن الرعيّة، فإذا أراد أحد من الرعيّة الدّخول إليه لبث شكواه يحــتاج على حد تعبير التوحيدي إلى "عقل ومال وصبــر" [403] وقال على لسان أحــد الــزهّاد عندما وقف على باب أحد الملوك "باب حديد، وموت عتيد، وفزع شــديد، وســفر بعــيد"[404] وهذه الكلمات تعطي فكرة عمّا كان عليه الخلفاء من انفصــال تــام عن الرعيّة وكأنهم يقطنون في برج عاجي يمنع من وصول أفراد

العامـــة إلـــيه، ويمكـــن أن تشير إلى فضاضة وغلاظة البوابين والحجّاب، الذين يمنعون العامة من رفع مظالمها ومطالبها إلى رئيسها.

ويـــبرز التوحـــيدي فـــي عدة مواضع من مؤلفاته إلى أن صحبة السلطان والملـــوك لا تـــنال "إلاّ باجتراع العلقم، والوجه متهلّل، وإلاّ بشرب السُم والوجه ضـــاحـــك، وإلاّ بـــنحر الـــنّفس والقـــلب طيّب، وإلاّ بتحمل البـــلاء والتسليـــم واقـــــع" [405] ويؤكـــد على من يتّصل بهم أن يتسلح بالحذر والحيطة، ويشبه هذه الصـــحبة بصورة رائعة، تصف شدة غدر ولؤم هذه الفئة من النّاس ، إذ شبههم بـــ"السبع الضاري، أو الفيل المغتنم، أو الأفعى السّامة [406]" لأنه في أي لحظة يمكن أن ينقلب على صاحبه ويغدر به ويعرّضه للقتل أو المهانة.

ويذكـــر أيضـــا أن صـــحبتهم تخلو من الصداقة، فأمورهم جارية على الظُلم والقهـــر والتعسف والهوى، وهم لا يراعون حق الله في أفعالهم، وينوه أيضاً إلى أن حاشـــيتهم وخدمهـــم علـــى شاكلتهم [497]، فيتعاملون بالرياء والنِّفاق، وملاحقة شـــهواتهم وأهوائهم، ويصفهم بقوله: "ولا علم لهم بحدود ما أنزل الله على رسوله -صـــلّى الله علـــيه وســـلّم- إلاّ قليلاً؛ فإذا صِرْتَ إلى الأمصار، فاصحاب هذه الكراســـيّ لـــيس مـــنهم إلاّ ذئـــبٌ مســـتغر (يطلب غرّة الناس وغفلتهم) بذنبه، يختلك(يحيلك) عن دينارك ودرهمك..." [408].

ويشـــير بعض المؤرخين إلى أنّ البعد عنهم أصلح، والسكوت عن وعظهم أسلم، ذلك لأنّ الوعظ يعرّض صاحبه في بعض الأحيان إلى النِّقمة والهلاك عند بعـــض الســـلاطين، ويذكر ابن الجوزي إنّ "الزمان قد تغيّر، وفسد أكثر الولاة، تساوى أكثرهم في الجهل"، وكما "أتى على هذه الولاية والسلطة ليس من أهلها"، ونادى أيضا "بأخذ الحيطة والحذر من الخلفاء والولاة أثناء التعامل معهم أو البعد عنهم قدر المستطاع" .[409].

وتصـــدى التوحيدي للحديث عن العلاقة القائمة بين الشريعة "الدِّين" والملك فقـــيل: "إنّ الدِّينَ أسٌّ والمُلك حارس، مما لا أُسَّ له فهو مهدوم ، وما لا حـــارس لـــه فهـــو ضـــائع [410]،" فمن وجهة نظره أن يكون الملك قائما بأحكام الشريعة،

"فالسلطان والدّين أخوان لايقوم أحدهما إلاّ بالآخر"[411]"وينادي التوحيدي بأن يكون الناظر في أمور الناس وأحوالهم قائماً "بأحكام الشريعة حاملا للصغير والكبير، "ويعلل ذلك بأن "الشريعة سياسة الله في الخلق"، في حين إن "الملك سياسة النّاس للناس،" ومتى خلت الشريعة من السياسة كانت ناقصة، والسياسة إذا عريت من الشريعة أيضا كانت ناقصة[412]. ومن هذا المنطلق نرى بأن الشريعة والسياسة المتمثلة بالملك أو الخليفة، توأمان لا يمكن فصلهما عن بعضهما، فكلّ منهما يكمل الآخر.

ومن هنا نرى أبا حيان يرسم بريشته طريقاً للعلاقة بين الرعيّة وسائسها المتمثل بالخليفة، ويرى أنه يمكن أن تكون علاقة الوالد بولده، وما يجب على الوالد في سياسة ولده من استعمال الرّفق واللّين والخوف عليه، واجتلاب المنفعة إليه أكثر ما يجب على الولد طاعة والده، وذلك بأنّ "الولد غِرٌّ، وقريب العهد بالكون، وجاهل بالحال، وعار من التجربة"[413]،فمحلّ الملك من رعيته محل الروح من البدن، ومحل الرعية منه محل البدن من الروح، فالروح تتألم وتشعر ما يشعر به الجسد، أو كل عضو من أعضاء الجسد، إذ يفسد الجسد لفساد الروح [414].والملك لا يكون ملكاً دون الرعيّة، و الرعيّة لا تكون رعية إلاّ بالملك، فإذا فسد الملك فسدت الرعيّة، فهذه علاقة وثيقة محكمة تقوم على تبادل المصالح، ولهذا يعلل التوحيدي للوزير ابن سعدان سبب تتبع العامة أخبار سائسها، والقائم على أمرها، حتى تكون على بيّنة بما يجري حولها[415] ويرى أنّ العلاقة بين الرعيّة والخليفة علاقة مضطربة ومتوترة تقريباً، تخلو من الود والوشائج.

ويصرّح أنّ على الملك أن يلتزم الوسطية في علاقته مع حاشيته ورعيته، فيأخذ بأسلوب الحزم تارة، واللّين تارة أخرى[416].وأن لا يكون مستهتراً بمصالح السلطة والرعيّة، ويراعي حق الله فيها، فهو خليفة الله في عباده يجب أن لا يستهين بالأمانة التي أودعها الله بعنقه.

أراد التوحيدي رسم مجتمع قائم على المثالية والأخلاق الحميدة، التي تسود كـــلاً مـــن السائس والمسوس، فمصالحهما مشتركة، وهما يساهمان في بناء هذا المجـــتمع علـــى أفضل ما يكون، فعلى الخليفة بالدّرجة الأولى أن يراعي مصالح رعيته، ويقمع شهواته ونزواته الدّنيويّة، ومطامعه السياسية، وينفي الحقد والبغض والحسد من قلبه، وعلى الرعيّة طاعته واجتناب معصيته، والخروج عليه.

ونقل لنا التوحيدي بعضاً من الفتن والاضطرابات التي ساهمت في أضعاف سلطة الخليفة في بغداد، فمنّها هجوم الرّوم على الثغور الإسلاميّة، مما أدخل هذا الهجـــوم الرُّعب والهلع في نفوس سكّان مدينة بغداد مقر الخلافة، وأدى ذلك إلى توتـــر العلاقة نوعاً ما بين الخليفة والرعيّة، وصارت العامّة طائفتين، طائفة ترقُّ للدّيـــن ولمـــا داهم الإسلام والمسلمين، والأخرى وجدت فرصتها بالنّهب والسّلب والإغارة على منازل النّاس، والخاصّة أصبحت أيضا فرقتين، فرقة ساندت النّاس والإسلام، وساهمت بالنّهوض ضد الغزو، والأخرى امتازت بالسكوت كأنَّ الأمر لا يعنـــيها، هـــذا كلـــه والسلطان في سبات عميق منهمكاً في ملذّاته في القصف والعزف، ويعرض عن المصالح الدّينيّة والدنيويّة (417).

ويرســـم بقلمـــه صورة العامة وهي ضاجّة هائجة، وتصيح "النفير النفير، وإســـلاماه، وامحمداه، واصوماه، واصلاتاه ... وأسراه في أيدي الروم الطُّغـــاة" أمّـــا عـــز الدّولة فقـــد خرج آنذاك إلى الكوفة من أجل الترفيه والتنزه، والانشغال باللهو والقصف والعزف والصيد ولا يأبه بما يجري ببغداد، وعبّر التوحيدي عن هـــذه الصـــورة بأنّ "النّاس في ظلِّ السلطان مبيتٌ ومقيل (418)" وتبحث عن من يـــنظر فـــي أمرها ويدفع عنها الظّلم وهذا الغزو، وهي بهذه الثورة تنكر انشغال أميرها بالصيد وأمر خليفتها الذي أفضي بأمر الخلافة لبني بويه.

وتبرز لنا هذه الظروف التصدع الداخلي في أمن الدّولة واستغلال السلّطة فـــي بغداد، فأهلها لم يكونوا فئة واحدة ضد الهجمات، بل كانوا منفصلين، وكانت كلُّ فئة سواء من الخاصة أو العامة مهتمة بمصالحها الخاصّة والدنيويّة، ولا تأبه بـــالأحداث التـــي تجـــري، وكأنّـــه لا علاقة لها بهذه الدّولة، ومن هنا نلمس أنّ

التوحـيدي يـنكر هـذا الوضـع، وهذا الانقسام سواء من الرعيّة أو من خليفتها وأمـيرها الذي أخلّ بواجبه تّجاه دولته ووطنه، ويشير أيضا إلى توتر العلاقة بين الحكّام والدّولة والرعيّة[419].

وقـد صـرّح التوحـيدي أمام الوزير ابن سعدان أنّ جماعة من المسلمين كونّـوا جماعـة من جلّة العلماء والشيوخ للذّهاب إلى عزالدولة في مكان نزهته لينقلوا له صورة ما جرى للنّاس في بغداد، وتهديدها له بخلع الطّاعة عنّه إنّ هو لـم يلتفـتْ إلى مصالحها وتحسين سياسته، قائلين له: "لو كان لنا خليفة أو أمير ناظـر سـائس لم يفض الأمر إلى هذه الشناعة...[420]" ومن هذا الحديث يتّضح معـرفة العامّة بفساد سياسة الدَّولة والخليفة، ويؤكد هذا الإدراك والمعرفة ثورتها التـي قامـت بها إثر هجوم الروم، ويبدو أنّ السبب لهذه الثورة هو خوفها على مسـتقبلها ومسـتقبل الدّولـة الإسلامية في بغداد، وبها تدعو الحاكم إلى تدارك الوضع قبل أن تعلن العصيان والتمرُّد، ويتجلى هذا المبدأ من خلال حديث العلماء والشيوخ مع عز الدولة[421].

ونتساءل الآن ما هو ردّ فعل عز الدَّولة على الوفد ؟

يـبدو أنّ عـزالدّولة قـابلهم بفضاضة وسوء خلق، ولم يهتم بما قالوه له، علـى الرّغم من استعداهم لبذل ما بوسعهم من أجل أن يعيشوا بأمان قائلين:" فإن كـان فـي المـال قلّة فخذ من موسرنا، وممن له فضل في حاله، فإنه يفرج عنه طاعـة لـك، وطمعاً فيما عند الله من الثواب[422] " لكنّ عزالدولة رفض رفضاً قطعياً طلب الوفد وينفي عنه المسؤولية .

وفـوق ذلـك فـإن التوحيدي قد أشار إلى اجتماعات العامة في الدكاكين والطُّرقات لتتبادل الحديث في أمور السلطة والخليفة، مما أثار ذلك حفيظة الخلفاء والأمـراء وجعلهم يستخدمون أسلوب القوة والبّطش في ردعها، وبهذا نلمس أنّ جمـيع فـئات المجتمع تهتمُّ بأمور السياسة وتتبع أخبار الخلفاء والوزراء، حتى المتصـوفة الذيـن انقطعـوا للعـبادة وهجروا الأمور الدنيويّة، شغلوا بالفوضى

والاضطرابات التي حدثت في البلاد، وصور التوحيدي كيفيّة تتبع هذه الطائفة للأخبار السياسية [423].

وأخيراً يدعو التوحيدي الخلفاء والسلاطين إلى الأخذ بمبدأ الشورى،وهو المبدأ الذي تبتعد به الأمور عن الأهواء، كما أنه يفضي إلى العدل والرأي الصائب و"ما خاب من استخار ولا ندم من استشار"، ويمكن أن يزول الفساد ويحلُّ محله الصلاح [424].

2.2 الوزراء والحكّام:

لم تكنْ حال الوزراء والوزارة أحسن حالاً من الخلفاء والسلاطين ، وفي أثناء السيطرة البويهية منح الخليفة الراضي بالله لابن رائق لقب أمير الأمراء، وأطلق يده في تدبير أمور السلطة، وبهذا لم يبقَ للوزير سوى الاسم فقط ، إذ لم يكنْ ينظر في شيء من الأمور فقد فَقَدَ كيانه الإداري الذي كان عليه قبل السيطرة البويهية، وبعد سنة 334 هـ زال أمر الوزارة كليّاً في بغداد، ولم يعدْ للخليفة وزير بل كان له كاتب يقوم بمهامه الشخصية ويدبِّر إقطاعاته [425].

وبلغت الوزارة قبل ذلك أوسع مداها وقمّة استقلالها، ومن ثمّ أصبحت عرضة للمقايضات الماليّة، فأمسى المال المصدر الوحيد لتعيين وعزل الوزراء، ورافق عزلهم مصادرة أموالهم واعتقالهم، وتعرضهم للتّعذيب الشديد، واعتقال عائلاتهم من أجل الإقرار بما لديهم من أموال[426] .

ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ وزراء بغداد كثيراً ما كانوا يتبدّلون بين الفينة والأخرى، ويبدو أنّ السبب في ذلك يعود إلى كثرة التنكيل والمؤامرات، وهذا الأمر يعكس طابع الحياة السياسية في تلك الحقبة الزمنية، حيث عانت من عدم الاستقرار وفقدان الأمن[427] .

والمتصفح لمؤلفات التوحيدي يرى أنّه لم يفصحْ عن نظراته السياسية سواء التي تخصّ الخلفاء أم الوزراء إلاّ بعد اتصاله بالوزير ابن سعدان، وأمّن على نفسه من نقمة رجال السلطة، ويعود ذلك لاستغلاله فرصة اتصاله بالوزير فافصح عن نظراته في السياسية التي كانت سائدة وقتذاك، كما كان الوزير نفسه

يستثير التوحيدي غالبا للحديث عن السياسة، واعطاء وجهة نظره بالأمور المحيطة بالخلافة والسلطة، وربما كان حبُّ التوحيدي للوزير قد جعله يحسُّ بنوع من الطمأنينة فحدثه عن أمور السياسية وما جري في أوساط العامة[428]. وأمّا بقية مؤلفاته فلا يوجد فيها إلاّ إشارات بسيطة لا تخصُّ فئة بعينها أو دولة بعينها إذ هي إشارات عامّة، ولعله يشير بذلك إلى الأمور التي تحدث في بغداد.

لقد شاهد التوحيدي ما جرى في بغداد من اضطرابات وفتن سواء من الناحية الداخليّة أو الخارجيّة في أثناء وزارة ابن سعدان، فأحبَّ أن يوجه له عدة نصائح تسانده في صلاح وزارته، إذ يقال: "إن صلاح الدّولة لا يتمُّ إلاّ بصلاح الملك، وصلاح الملوك لا يكون إلاّ بصلاح الوزراء، والمُلك لا يصلح إلاّ بأهله، وكذلك الوزارة لا تصلح إلاّ بأهلها (مستحقها)"[429] فقد وجّه هذه النصائح على شكل رسالة، بدأها بالدَّعوة إلى اتخاذ الحاشية الخيّرة حيث قال: "اصطناع الرّجال صناعة قائمة برأسها"[430].

ويذكره بأنَّ حجَّابه قد منعوا أناس من الدُّخول إليه، علما بأن بعضهم فيما يرى التوحيدي من خيرَة الرِّجال والعلماء، ولهم آراء صائبة في كثير من الأمور، ولا بد للوزير من مقابلتهم والاستماع لهم وقد عبّر عن ذلك بقوله:" ولو وثقوا بأنّهُمْ إذا عرضوا أنفسهم وجهّزوا ما معهم من الأدب والفضل إليك، وحَظوا منك واعتزُّوا بك، لحضروا بابك، وجَشموا المشقّة إليك لكنَّ اليأسَ قد غلبَ عليهم وضعفتْ مُنّتَهُم ... ورأوا أنَّ سفَّ التُّراب أخفُّ من الوقوف على الأبواب، إذا دَنَوا منها دُفِعُوا عنها ..."[431]،ويطلب منه مقابلتهم والاستماع إليهم، فإنَّ في ذلك" بقاءِ للنِّعمة عليك، وصيتٌ فاشٍ بذكرك وثوابُ مؤَّجلٌ في صحيفتك، وثناءٌ معجَّلٌ عند قريبك وبعيدك، والأيام معروفة بالتقلُّب ...[432] "

وبهذا الحديث ينقل للوزير صورة الحجّاب والبوّاب الذين حالوا بين الرعيّة وسائسها من بثٍّ شكواها ومظالمها، ويطالبه باختيار الحجّاب الذين يصلون الرعية برئيسها.

ومـــن ثـــم يذكّر الوزير بما جرى لما سبقه من الوزراء علىَ سبيل العظة والعـــبرة، إذ رأى بعضــــاً من الوزراء أساءوا السيرة، والخُلُق في معاملة الرعيّة واســـتعملوا أساليب الظُلْم والتعسّف والقهر معها، قائلاً بهذا الشأن:" لو اعتبر من تأخّـــر بمن تقدَّم لم يكنْ من يتحسّر في النّاس ويندم، ولكنَّ الله بنى هذه الدار على أن يكون أهلها بين يقظة ونوم، وبين فرح وترح، وبيـــن حيطة وورطـــة[433]. " ويذكـــر التوحيدي بعضا من هؤلاء الوزراء الظلمة فمنهم أبو الفضل العباس بن الحســـين الشيرازي- أحد وزراء بني بويه-المتوفـــى 362هـــ الذي غشَّ وفتك بالـــنَّاس، فقد كان ظالما وبطّاشا، فكانت نهايته القتل. ومنهم محمد بن بقية طغى وبغـــى، واقـــتحم ظلمـــات الظلم والتعسف، وطار بجناح اللّهو والعزف والشُرب والقصـــف، ومـــن أبلغ درجات الظّلم التي وصل إليها قتله لبعض الأشخاص بلا ذنـــب مثل قتله ابن السراج بلا ذنب والجرجرائي بلا حجّة، وضرب ابن معروف بالسياط، وكذلك الوزير ابن برمويه الذي وزر لصمصام الدّولة في سنة 375هـــ الـــذي بالغ في ظلمه للنّاس وتعسفه بهم، فكان مصيره القتل، وبذلك أصبح مصدر شـــماتة النَّاس به على اختلاف مستوياتهم، وقال التوحيدي بهذا الشأن: "نعوذ بالله مـــن ســـوء العاقبة وشماتة ابن العم، وعثار الإنسان، والله من قَتَلَ قُتِل، ومن أكَلَ أُكِل"[434]. ويطالب التوحيدي كلَّ عامل في الدّولة والسلطة أن يعتبر ويتّعض بمن ســـبقه وما جرى لهم من سوء العاقبة سواء بالقتل على أبشع صورة، أو التمثيل بالجسد، وقبل كل شيء العزل والمصادرة.

ويطالـــب فـــي نهاية رسالته الوزير أن يأمر بالصدقات، فهي برأيه تجلب "السّـــلامات والكرامات، وتدفع المكاره والآفات"، وأن يترك الشراب ويديم النّظر فـــي المصـــحف، ويـــأخذ بمبدأ الشورى والاستخـــارة عند إفضاء الرأي السديد والصـــائب[435]، فالوزارة تستقيم بهذه الأمور، ويمكن بها أنْ يكسب محبة الرعيّة وودها.

ويبدو من حديث التوحيدي أن منصب الوزارة كان مطمع أنظار الكثيرين مـــن رجـــال الدّولة، الذين يبذلون أموالاً طائلة من أجل الحصول عليها، ومن ثمّ

يقومـــون بتعويض هذه المبالغ عن طريق تعيين وعزل عدّة عمّال، وأخذ الرشوة من كلٍّ واحد منهم، وقيل: إنَّ الخاقاني وزير الخليفة العباسي المقتدر ولي في يوم واحـــد تسعة عشرة ناظراً للكوفة، وأخذ من كل واحد رشوة، وقد كان هذا الوزير سيئ السيرة والتّدبير[436].

ويظهـــر أنَّ بعـــض الـــوزراء انغمســـوا في ملذّاتهم ولهوهم، ولم يأبهوا بالرعـــيّة، ومـــنهم مـــن كان يواصل شرب الخمر الليل والنّهار، ويحصل على الأموال بطرق مشروعة وغير مشروعة، كالرشوة، ومصادر الأغنياء واغتصاب أموال الرعيّة[437].

كمـــا وجد الوزراء الذين أساءوا السيرة واتصفوا بضعف الخلق، وجد من كـــان حســـن السيرة واشتهر بالعفَّة والنَّزاهة، أمثال علي بن عيسى الذي قال فيه معاصره الصولي:"ولا أعلم أنه وزر لبني العبّاس وزير يشبه علي بن عيسى في زهـــده وعفته وحفظه للقرآن وعلمه بمعانيه وحسابه وصدقاته ومبراته، فقد كان يصوم نهاره ويقوم ليله، وكان يُخرج نصف ما يرتفع له في السنة في أبواب البّر وسبل الخير[438]." كذلك الوزير ابن سعدان الذي أجبره صمصام الدّولة على تسلم الـــوزارة، ومقالـــيد الحكـــم، والعجيـــب من الأمر أنَّ ابن سعدان قبلها بشروطه الخاصّة، فوافق عليها صمصام الدّولة دون النّظر فيها أو معرفة ما هي أو يناقشه فـــي أمر منها، ووصفه بعض الأدباء بأنه" كان على الخير لا على الشر،...فإنه لنصـــح جيـــبه، ونقاء ضميره، وتعصُّبه لهذه الدَّولة الميمونة، وعشقه لهذه الأيام المأمونة، يستقري الجلي متعرّفا، ويستنبط الخفيَّ مستشفًّا...[439].

ويعني السؤدد في نظر التوحيدي "اشتماله على خصال منها الصبر والحلم والبذل والعطاء وتفقُّد الحاشية والرعيّة" [440]، وينبغي على الوزير مطالعة الإمام أو الخلـــيفة بكـــلّ شيء يقوم به بحق الدّولة والرعيّة، وعلى الإمام متابعة الوزير وتدبـــير أموره، وأن يبتعد عن الهوى، الذي يخرجه من الحق إلى الباطل، وبهذا يـــتدلَّس عليه المحق من المبطل[441]، ويجب على الوزير أيضا أن يتحلى بالعقل والعلـــم، ويقول التوحيدي: "والله ما وهب العقل لأحد إلا وقد عرضه للنّجاة، وإلاّ

حــلاّه بــالعلم، وإلاّ قــد دعــاه للعمل بشرائطه، وإلاّ هداه الطريقين؛ أي الغــي والــرشد [442]."

ويقال في كرم الوزير ورغبته في المعروف أنهما يطلقان الألسن بالمسألة، وتقــربان الطالــب من البغيّة، وعوائد إحسانه وترادف امتنانه يضمنان له النّجاح ويؤكدان الثّقة وبهذا يضمن الدَّوام له ولوزارته [443].

ولم يترك التوحيدي أي حدث يتعلق بالوزارة إلاّ تناوله بالإشارة أوالحديث عــنه، وكتاب الإمتاع والمؤانسة مليء بهذه الإشارات، وأمثلة ذلك كثيرة، ومنها الأراجــيف المشوهة لسياسة ابن سعدان من مناهضيه، الذين تنكّلوا له عند الأمير البويهــي صمصــام الدَّولــة، حتى سجنه ومن ثم قتله، ومن تلك الإشاعات التي راجــت عنه أنَّ له علاقــات سريّة مع أعــداء الــدَّولة من القرامطة [444]، كما انتشــر بين النّاس أنه قد أساء معاملة الجماعة التي تجمَّعت على باب الطاق أثناء ارتفــاع الأسعار واشتكوا له فاقتهم وعسر معيشتهم، ولكنّ أبا سليمان أكد وجود الدسائس والمؤامرات التي تحاك ضده، وهي من أقرب الناس إليه، قائلاً: "الأولياء أعداء، والأعداء جهَّال، ونصيحة غاشّ، .. والشَّغبُ متّصل، وطلب المال لا آخر له[445]"ومع هذا كلّه كان الوزير شاعراً بما يجري حوله من مؤامرات ودسائس، فأصــابه القلــق والتوتر، قائلاً:"والله لا أملك تصرُّفي ولا فكري في أمري، أرى واحــداً في فتل حبل وآخر في حفر بئر، وآخر في نصب فــخ، وآخر فــي دسّ حــيلة، وآخــر في تقبيح حسن، وآخــر في شحذ حديد ...[446] " فهذه العبارات كــناية عــن المؤامــرات والدسائس التي تحاك ضد الوزير، تدل على شدة قلق الوزير من هذه الدسائس، والمصير الذي ينتظره.

ويعطي التوحيدي صورة تقريبية لما كانت عليه بغداد في هذا العصر على لسان ابن زرعه قائلاً: "لأن هذا الزمان من قبل كان ذا لبُوس من الدِّين رائع، وذا يــد من السياسة بسيطة، فأخلف اللُّبوسُ (وبلى بل تمزّق) وفنى، وضعفت اليدُ بل شــلَّت وقُطعت، ولا سبيل إلى سياسة دينية ...[447]"، فهو يعقد مقارنة بين الحالة

السابقة التي كانت شديدة الارتباط بالدّين فأمّا الآن قد ضعف الدّين وتعقدت السياسة.

ويؤكد في موضع آخر على فساد حاشية الوزير ابن سعدان، وبيّن مفاسد كل واحد منهم، موجها النّقد إليهم، ومصورا إيّاهم "بالسباع الضارية، والكلاب العاوية، والعقارب اللّساعة، وأفاع نهّاشة"، وكان بعضهم يبيع الدُّنيا بالدّين (448)، فهم ينهشون بجسم الدّولة من أجل الحصول على ما يصبون إليه من مطامع سياسية ودنيويّة، وحمّل أبو سليمان الحاشية مسؤولية الفساد الذي عمَّ بغداد فقال: "ومنابع الفساد، ومنابت التخليط كلّها من الحاشية التي لا تعرف نظام الدّولة ولا استقامة المملكة، وإنما سؤلها تعجيل حظّ وإن كان نزراً واستلاب درهم وإن كان زيفاً(449) " فكل همّها هو الحصول على الأمور بشتى الطرق الشرعيّة وغير الشرعية.

ومن الملاحظ أنَّ التوحيدي عاش أحداث العصر بفتنه واضطراباته وأدرك الضعف السياسي، والفساد الذي اعترى أركان الدَّولة العباسيّة في بغداد، وشهد بعض المؤامرات التي كانت تحاك ضد الخلفاء والوزراء والحالة التي يتعرضون لها عند العزل، فبغداد مليئة بالعجائب والغرائب، وبدأت تنهار في جميع أحوالها، واستنكر التوحيدي هذه الحالة وهذا الوضع الذي آلت إليه .

3.2 المصادرات :

تعدُّ طريقة المصادرة من أكبر المخاطر التي داهمت الفئة العليا من رجال الدّولة، وهدد ملكيّاتها الخاصّة، فهي تصيب المثرين، ولا سيّما الموظفين والعاملين في الدّولة، وتستحوذ على أموال العاملين فيها، وعلى أموال التّجار الأغنياء، ويصل الحد أحيانا إلى مصادرة ما تمتلكه العامّة من الضيّاع والعقار والدور لسد حاجة السلطة الماليّة، فهي تعدُّ مورداً من موارد الابتزاز، فإن ضاق الخليفة صادر وزيره، وإن ضاق الوزير صادر عامله أو تاجراً أو إقطاعياً، وكان من المعتاد أيضاً أن يتَّهم كل وزير سلفه بسوء التّصرف والظلم، ويطلب منه ومن كتّابه وأعوانه أن يفتدوا أنفسهم بمبالغ من المال(450)، وقد كان بعض

الأمــراء والــوزراء يصـــادرون أقرب الناس إليهم وأصدقاءهم، كمَا فعل الأمير البويهـــي معز الدولة مع وزيره أبي محمد المهلّبي بعد وفاته، إذ قبض على جميع مـــا كان بحوزته من الأموال، والضياع والعقار، حتى الخدم والحاشية والغلمان، وأخذ أهله وأصحابه وحبسهم[451].

وكانـــت الطـــريقة المتبعة في المصادرة هي القبض على المُصادر عليه، وإلقـــاؤه في الحبس، ومن ثمّ يبدأ الوزير الجديد بطرقه الخاصّة سواء اتبع أسلوب الإقناع أم التهديد في استخراج الأموال من الوزير الذي سبقه، وتشمل المصادرة أحياناً ثروة الشخص المتوفى والذي له علاقة بالسلطة [452].

ورأى الخلـــيفة ورجـــال الدَّولة معه في المُصَادرة مورداً أساسياً للخزينة، ظـــنا مـــنهم أنَّ الأموال التي تُصادر من حق الدّولة وخزينتها، وليست من حقهم، فتأخذ لسدّ العجز المالي الذي يحصل في خزينة الدَّولة[453] .

ومن نتائج المصادرات أن يتبع الوزراء والموظفون الكبار في جمع الثروة كـــل وسيلة سواء مشروعة أم غير مشروعة استعداداً لهذا اليوم الأسود، مثل أخذ الرَّشـــوة مـــن العمَّـــال أو مـــن أفراد الدّولة من أجل تحقيق مآربهم الخاصة في الحصـــول على منصب إداري، وبهذا نجد أنَّ الوزراء وكبار رجال الدَّولة جمعوا أمـــوالاً هائلـــة[454]، ولجـــأوا إلى حيل مختلفة ليخفوها عن عيون من يخلفهم في المنصـــب، مـــثل إخفائها في الأرض أو في أماكن أخرى، وكان بعضهم يودعوا أموالهم عند الفقراء، حتى يجدوا ما يعيشون به إذا صودروا [455].

وبهـــذا نجـــد أنَّ لدفن النُّقود في الأرض آثارا سلبيّة، إذ بذلك تُفْقَد كميّات كبيرة من النّقود الفضيّة والذّهبيّة بوفاة أصاحبها[456].

ولـــم تقتصـــر المصادرة على الوزراء فقط، بل صودر بعض الخلفاء عند عـــزلهم أو قتلهم في زمن الدَّولة البويهيّة، وصودر أيضا بعض القضاة، والنّساء والخـــدم وغـــيرهم، ومـــع مرور الزّمن أضحت المصادرة المرجع الرئيسي في تحصيل المال لسدّ الحاجة عند ضيق الحال[457].

وكانــت المصادرة كثيراً ما تستثير العامّة وتدفعهم إلى الثورة والاحتجاج، وذلــك أنّ بعــض الوزراء عمدوا إلى مصادرتهم وتفقيرهم، فأخذوا منهم أصول الضــياع والــدور والعقار، وأشار التوحيدي إلى هذه الظاهرة، أثناء ثورة العامة علــى الخلــيفة وأمــيره عزالدولة قائلة رافضةً لهذا الوضع:"...وصادرتنا على أموالــنا، وحلــت بينــنا وبين ضياعنا، قاسمتنا مواريثنا، وأنسيتنا رفاهيّة العيش، وطيــب الحــياة وطمأنيــنة القلب...[458]"وبهذا يقدّم التوحيدي نقداً لاذعاً للسلطة وممثلــيها مستخدماً أسلوب الحيطة والحذر في ذلك، وينقل ذلك النّقد إلى الوزير ابــن ســعدان، لعله يرأف بهذه الطائفة البائسة التي أنساها رجال السلطة رفاهية العيش، وحالوا بينهم وبين ما يملكون من الضياع التي تسد حاجاتهم، فما كان من الوزيــر إلاّ الإنكار قائلاً: "ما سمعت مثل هذا قط، وما ظننت أنّ الخَطْبَ في مثل هذا يبلغ هذا القدر؟ [459] ".

ومــع أنّ المصــادرات أثقلــت كــاهل النّاس، والمثرين بالدّرجة الأولى، وألحقــت أضراراً بالغة بهم، وجعلتهم يتمردون على السلطة[460]، إلاّ أنها لم تخلُ مــن الفائدة فهي على ما يبدو منعت من تراكم الثروة في يد فئة محدودة، ومنعت الــثراء الفــاحش، وقلّلت من التّباين الطّبقي والاقتصادي، فالمصادرة تعني إعادة الأمــوال إلــى خزيــنة الدّولــة، ومن ثم تعمل الدّولة على إعادة توزيعها على الموظفيــن مــن خلال الرواتب من جهة، وتقديم الخدمات الاجتماعية للعامة من جهة أخرى.

4.2 الحركات الانفصاليّة:

وتعنــي الحــركات الاســتقلالية التــي تبتغي الانفصال عن جسم الخلافة العباســية، وتبني لها إمارة أو ولاية خاصة بها[461]، لها رئيسها وكيانها المستقل عن مقر الخلافة، وقد أشار التوحيدي إليها إشارات بسيطة، يمكننا منها أن نستدل علــى وجودهــا ومحاولتها السيطرة على بغداد، وتهديدها السلطة، وتقلقل الأمن والاســتقرار، ويــبدو أنّ مــن أهم الأسباب التي أدّت إلى ظهورها هي العوامل السياسية مجتمعةً مع العوامل الاقتصادية والاجتماعية[462]، وأنّ تضعضع الخلافة

العباسيّة وضعف بعض خلفائها، جعل للثّوار مجالاً لإعلان تمردهم وَثورتهم على السـلطة، بـيد أنَّ لكلّ حركة دوافعها وخطورتها على بغـداد خاصة والمجتمع الإسلامي عامة.

ومـن أمـثلة هذه الحركات التي أشار إليها التوحيدي، ثورة الزنج وثورة القـرامطة، اللـتان تعدان من أشهر الحركات التي هددت أمن بغداد واستقرارها علـى مـدى سنوات، فكلاهما اتَّخذ طابعاً سياسياً واجتماعياً، فكان الهدف المادي والاجتماعـي أسـاس هاتاين الثورتين، ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ هناك ثورات أخرى ساهمت في إضعاف السلطة، لكنني سأقتصر في حديثي على ثورتي الزنج والقرامطة.

الزنج:

الـزنـج جماعة من القبـائـل السود، التي جلبت من سواحـل أفريقيـا الشـرقيّة[463]، ودفعـتهم أحوالهـم الاجتماعيَّة إلى استقدامهم كرقيق إلى الدّولة العباسـيّة حـتى ازدحمت بهم أسواق النّخاسة في بغداد وغيرها من المدن[464]، واستخدموا من قبل أصحاب الاقطاعات والأغنياء للعمل في الأراضي الزراعيّة، نظـراً لِمـا يتمـتعون بـه من قوة وصلابة وخشونة، ووصفوا بأنَّ لهم كسوحاً كـالجبال [465].

وتعدُّ البصرة من أكثر المناطق تجمعاً لهم، وبالتحديد منطقة السباخ القريبة مـن الشواطئ، ويقوم عملهم على تنقية الأراضي المالحة، وتحويلها إلى أراضي زراعـيّة[466]، وبعضـهم يقـوم باستصلاح الأراضي وحرثها وبذرها، فيعد هذا العمـل مـن الأعمال الشّاقة التي لا يقوم بها إلاَّ هؤلاء الزنوج الذين لهم الصّبر والكـد والجلـد[467]، ويقـال إنَّ "الزنجـي إذا شبع فصب العذاب عليه صباً لا يتألم"[468]، ولكنهم من وجهة نظر التوحيدي بهائم هاملة [469].

تشـير المصـادر العربـية إلى أنّ هؤلاء الزنوج كانوا يحيون حياة سيئة بائسـة، فطعـامهم نـزر قلـيل يتألف من الدقيق والسويق والتمر، ويعيشون في

المستنقعات والأنهار، وبهذا تكون أجسامهم مرتعاً للرطوبة والقذارة والأوبئة [470].

وقد دفعتهم هذه الحياة، وهذا الواقع الاجتماعي السيئ إلى تقبل أيّ داعية يؤملهم بتحسين أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية، ومن هذا المنطلق استغل أحد الأشخاص ظروفهم السيئة وشجّعهم على إعلان الثورة، والتّمرد على أسيادهم، والانضمام إلى هذا الدّاعية، ويدعى "محمد بن أحمد بن علي" المعروف"بصاحب الزنج" الذي قام بدراسة ظروف هؤلاء الزنوج، وتعرف على مدى بؤسهم، والمشاكل التي يعانون منها واستغل هذه الظروف لصالحه، وبالتأثير عليهم والانضمام إليه، ومن ثم السيّطرة عليهم، لتحقيق ما يصبو إليه، إذ وعدهم بتحسين أوضاعهم، وتخليصهم من ظلم أسيادهم، ولهذا اجتمعت حوله أعداد كبيرة من الزنوج، وكان من أعماله تسليمه من يقع تحت يده من مالكي العبيد لهؤلاء الزنوج، ويأمرهم بضربهم وأخذ ثأرهم منهم، فكانت بداية حركته ضد الإقطاع والملاك، ثم تطورت فأصبحت حركة ضد الدّولة، فاعتبروا الخلفاء والولاة ظالمون ينتهكون حرمة الله تعالى [471].

ونجد التوحيدي ينعتهم بالضعف والجهل، لأنهم عرضة لتقبل أي داعية يدعوهم بكلمات ووعود تحمل في ظاهرها تحسين أوضاعهم الاجتماعيّة ولكن في باطنها تصبو إلى تحقيق ما يصبو إليه هذا الدّاعية من الاستقلال عن الخلافة العباسيّة، وإعلان التّمرد عليها، وبالتالي أصبح مصدراً لقلق السلطات واضطرابها، وإشاعة الفتن في أرجائها، إذ يقول التوحيدي في هذه الفئة:" وأمّا الزنوج فغلبت عليهم الفسولة، وشاكلت البهائم الضعيفة" [472] وينعتهم بالجهل وقلّة المعرفة، وقلّة الشجاعة، وإن كانت فيهم خاصية الفرح والنّشاط[473]،وبهذا يعلل سبب استكانتهم لأسيادهم، وعدم إعلان التّمرد عليهم، إلا عن طريق أحد الأشخاص الذي دفع الشجاعة في قلوبهم على التّمرد.

فثورتهم هذه تعلن أو تشعر بوضعهم المعيشي السيئ، وبفظاعة الاستغلال الذي تعرضوا إليه مما جعلهم يتفجّرون حقداً، ويرتكبون فضائع منكرة [474].

لقـــد اســتغلت هـــذه الثــورة فرصـــة انشغال الخلفاء بَحــروبهم مع الـــروم، وتسوية الأمور الداخليّة للدولة ببث دعواتها، واستطاعت السيطرة على العديد من المناطق المحيطة ببغداد –مقر الخلافة – لكنّها لم تستطعْ الدخول إليها، على الرُّغم من أنها أرهقتها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، فقد أنفق الخلفاء أموالاً هائلـــة في تجهيز الجيوش وإعداد الفرسان، من أجل القضاء عليها، ولكنها كانت تتعرض أحيـــاناً للفشل [475].

وربما كان من أهم أهداف هذه الثورة القضاء على الرّق، لكننا نلمح وجود الرق فيها، فإنَّ الزنجي يمتلك عشرات من النساء العربيات، وأصبح لهم عبيد من البيض، وتهدف أيضاً إلى رفع شأن الزنج وتحريرهم من العبودية[476].

وفـــي سنة 270 هـــ أخمدت ثورتهم من قبل قائد جيوش الخليفة العباسي المعـــتمد، وقتل صاحب الزنج بعد أن خرّب الزنج كثيراً من البلاد، وقتلوا أناساً كثيريـــن[477] ، وبهذا نستدل على قوة هذا العنصر، وما مدى خطرها على بغداد خاصة والبلاد الإسلاميّة عامّة.

ظهـــرت هـــذه الحركة في مطلع القرن الثالث الهجري من سنة 255هـــ واســـتمرت إلـــى سنة 270هـــ، وكان من أعظم أخطارها أنّها أوقفت الأراضي الزراعية، وساهمت في خرابها، وكما كان لها تأثير على التِّجارة عن طريق قطع الطرق التِّجارية [478].

وممـــا ســـبق نرى أنَّ التوحيدي لم يقف عند هذه الحركة ، بل أشار إلى وجود هذا العنصر في بغداد وغيرها من المناطق، وإلى وجود الرّق أيضاً، الذي كان الدافع الأساسي لهذه الثورة .

ثورة القرامطة :

تعـــدُّ هـــذه الـــثورة من أوسع الحركات الاجتماعية التي شهدها المجتمع الإسلامي في بغداد وغيرها من حواضر دولة بني العباس، علما بأن هذه الحركة قـــد قامـــت باسم المبادئ الإسلامية، وتحت راية الدعوة إلى العدالة الاجتماعيّة،

فبثت آراءها في البلاد العربيّة والأعجميّة، وتوجّهت إلى الأقوام والمذاهب والنّحل كافة، وتغلغلت بين البدو والحضر [479]

فكانت بدايتها في السواد واتخذت من الفلاحين مادة لها، واستمدتْ أساسها مــن تطــور الصراع الطبقي والاجتماعي في مكان نشأتها وعلاقته مع أوضاع الخلافــة، فقــد أفــادت من النتائج السياسية والعسكرية لحركة الزنج، واستغلوا الظــروف الناشــئة منها أحسن استغلال، وبهذا عمدوا إلى تجاوز بعض الثغرات التي أدت إلى الإجهاز على ثورة الزنج [480].

وشــغلت هــذه الثورة السلطات العباسيّة قرابة قرن من الزمن، وأشاعت الاضــطراب والقلــق في بغداد وغيرها من الأمصار، وذلك بما خلَّفته من أفكار ثوريــة، فهي لم تتورع عن قطع طريق الحجاج و قتلهم ونهبهم ، حتى أن بعض المصــادر تشير إلى أنهم هجموا على الحجاج سنة 317 هــ، وعاثوا فيهم القتل والنّهــب والسّــلب، وذكــرت أنهــم اقتلعوا الحجر الأسود، ونهبوا كسوة الكعبة وقسمّوها فيما بينهم، وبقي الحجر الأسود في حوزتهم أكثر من عشرين سنة حتى أعــيد فــي خلافة الخليفة العباسي المطيع[481]، وهم بهذا العمل لم يراعوا حرمة البيــت الحــرام، على الرُغم من أن دعوتهم بدأت تحت سِتار الدِّين والدعوة إلى الشريعة الإسلاميّة.

ويذكر الطبري: في تاريخه أن لفظة القرامطة جاءت نسبة إلى رجل كان أحمــر العينيــن ولشــدة حمرتها كان أهل قريته يطلقون عليه قرمط؛ وهي لفظة نبطــيّة، ويدعــى هذا الرجل حمدان قرمط وهو من أكبر دعاة هذه الحركة، وهو الــذي نــزل عنده الداعي المؤسس لها"الحسين الأهوازي" وقد جاء من خوزستان "وهــي الأحــواز فــي إيران اليوم "إلى سواد الكوفة ولقي حمدان قرّمط، ولقّنه مباديء هذه الحركة [482].

وقــد استغلت هذه الحركة ضعف أمر الخلافة في نشر دعوتها في البلاد، وإعاثة الخراب والفساد فيها، مما أخاف أهل بغداد خوفاً شديداً منها وعزموا على الهــرب، ولكنَّ الخلافة لم تتورع عن إرسال الجيوش لمقاتلتها، ومما يبدو أنَّ هذه

الجـيوش كانــت تخافهــا وتتعرض للفشل، وبالتالي تزداد قوة القرامطة، وتقوى شـوكتهم فــي البلاد، وتزداد هجماتهم على قوافل الحجاج، مما أدى إلى إنقطاع الحج أكثر من سنة [483].

ويذكــر التوحــيدي أنَّ بعض القرامطة قالوا حين دخلوا الكوفة سنة خمسٍ وتســعين ومائتين: "نحن جباة المال، وحماة السروب [484]" فهم يفخرون بأنفسهم، وبأعمالهم الفضيعة التي يقومون بها.

وقــد أشــار التوحيدي إلى دخولهم مكة، وما فعلوه بها من القتل، وإخافة السـبيل، قــائلاً على لسانهم:" أخفنا السبيل، وأطلنا العويل" ويعلل التوحيدي ذلك بأنهم "أكرهوا أنفسهم على النَّجاسة والشر"، ويشير أيضاً إلى أنهم من أكثر الفئات إعاثــة للخراب والفساد[485]، ومن هنا يمكن أن نستشف موقف التوحيدي من هذه الفــئة المخربة، إذ ينكر عليها موقفها من الإسلام الذي تتبطن تحت ستاره ولكنها تعمــل علــى تشــويه صــورته في بغداد وغيرها من المناطق، فأنهم في نظره مجــبولون علــى الخيانة والنجاسة ، ومفطورون على الشر والحقد وهم من أهم أعداء الدولة في بغداد .

لقــد حاول القرامطة الدّخول إلى بغداد، فخاف أهلها لما عرفوه من بأسهم وفضــاعة معاملتهم للأسرى، فاضطر الخليفة إلى إرسال جيش كبير يمنعهم من الدخول ولكنّه هزم فــدخل القرامطة المدينة، وحاول الخليفة استعادتها بجيش بلغ تعــداده أربعــون ألفاً، لكنّه فشل مرة أخرى نتيجة الخوف النفسي الــذي سيطر علــى جيشه الجرار [486]، وبهذا نلمح مقدار القوة التي وصلت إليها هذه الحركة، ومقدار الخوف والرُعب الذي أنزلته في أهل بغداد وجيشها .

إلاَّ أنَّ ســنة 362 هــ كانت نهاية القرامطة سياسياً، وذلك بسبب الانقسام الــذي ســاد بينهم حول مركز القيادة، وأدى هذا إلى النزاع فيما بينهم، وبهذا قلّ شــرهم علــى أهــل العــراق[487]، إلاَّ أنها أعادت تحركها من جديد في بعض السنوات، ولكنّهم لم يكونوا بالقوة والخطر الذي كانوا عليه سابقا.

ويتضـــح أنَّ ســـلوك القـــرامطة في الهجوم على الحجاج، واقتلاع الحجر الأســـود، وتحلـــيل بعـــض المحـــرمات، وعدم التقيّد بالصلوات والصيام وسائر العـــبادات، وعدائهـــم للإسلام والمسلمين، أي خروجهم على الدّين(688). من أجل الاستقلال عن الخلافة، وبناء دولة لهم لها عقيدتها ورئيسها وتقاليدها الخاصة بها، ولكن شوكتهم بدأت تضعف في أواخـــر القـــرن الرابع الهجري.

مـــن هنا نرى أنَّ بغداد كانت مسرحاً مهيئاً لظهور مثل هذه الحركات، لما داهمهـــا مـــن صـــراعات داخليّة من قبل الحكّام والخلفاء، وخارجية التي تتمثل بهجمـــات الـــروم وغيرها من الأمور السياسية التي دفعت هذه الحركات للظهور والتمرُّد على السلطة معلنة استقلالها عنها.

5.2 الفتن الطائفية :

قال التوحيدي في وصف بغداد التي شاعت فيها"الفتن والمذاهب والتّعصب والإفـــراط، ومـــا تفـــاقم فـــيها وزاد، ونمـــا وعلا ... ضاقت الحيل عن تداركه وإصـــلاحه، وصـــارت العامة مع جهلها تجد قوة من خاصتّها مع عِلْمها، فسفكت الدمـــاء، واستبيح الحريم، وشُنّت الغارات، وخربت الدِّيارات، وكثر الجدال وطال القِـــيل والقـــال وصـــار الـــناس أحزاباً في النِّحل والأديان، فهذا نصيري، وهذا أشجعي وهذا رافضي، ومن لا يحصى عددها إلاَّ الله الذي لا يعجزه شيء"(489).

ويوضـــح لنا النص السابق مدى انتشار الفتن الطائفية في بغداد، خاصة بين طائفتـــي السنّة والشيعة ويشير التوحيدي إلى أن أغلب أهل بغداد انقسموا فرقتين، فـــرقة تتحزّب للعباس بن عبد المطلب" وتدين له، والأخرى تتحزب لعلي بن أبي طالب وتدين له (490).

جـــرَّت هذه الفتن الخراب والفساد إلى بغداد ، فقد كان الخلاف شديداً بين الفقهـــاء، خاصة بين فقهاء السنّة والشّيعة، ويعود هذا الخلاف إلى مسألة سياسيّة صـــبغت بـــاللون الدّيني، فالشيعة يرون أن علياً ونسله لهم الحق في الخلافة دون غيرهم، وأن خلافة العباسيين خلافة باطلة، أي أنهم ينكرون الخلافة لغيرهم(491).

وبيّــن التوحيدي أنَّ هذا الخلاف والتّعصب موجود من زمن الخلفاء الراشدين، إذ بث هذا في رسالته التي وسمها باسم السقيفة .

تمثل هذه الرسالة جانباً من جوانب النّضال بين السنّة والشيعة، الذي شاع فــي العصر العباسي وخاصة في فترة السيطرة البويهيّة، فالخلفاء العباسيون ومن تــبعهم سنيون، والدّولة البويهية ومن تبعها شيعيّة، وغالوا في تشيعهم ، مما جرّ الــبلاد إلى حوادث دامية في زمن التوحيدي، وهذه الأمور دفعته إلى كتابة هذه الرسالة، وبيّن موقفه من الإمامة والتشيّع الذي يتّضح في ثناياها.

فقــد أورد فــيها رسالة أبي بكر الصديق لعلي بن أبي طالب رضي الله عــنهما، وجواب علي له ومبايعته إياه عقب تلك المناظرة "والتي يحدد فيها أحقية الإمــامــة والخــلافــة للمهاجريــن ويقطع دابر الفتنة بين اتباع علي رضي الله عــنه" [492] وقــد تــأنق التوحيدي في الصور الفنيّة التي صاغها فيها، وتعدُّ من صياغة التوحيدي واختلاقه والدليل على ذلك أنّ المتكلمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشيعة والأشعريّة وأصحاب الحديث لم يذكر أحد منهم كلمة واحدة من هذه الرسالة أو الحكاية[493] .

فمــن خــلال الرسالة يتضح أن الخلاف قديم النشأة، فقد كان لأهل البيت فــريق يعــترف ســراً بحقوقهم، حتى في عهد الخلفاء الثلاثة الأولين، ولكنّ هذا الفــريق لــم يجاهــر بالخصام إلاّ بعد عصر هؤلاء الخلفاء، صار يعارض هذا الفــريق حكــم كل حاكم من غير أبناء علي، وكانت هذه المعارضة موجّهة في بــادئ الأمر إلى الأمويين، ثم إلى من لم تتوفر فيهم الشروط التي يوجبها الشيعة فــي الإمــام وكمــا أنهــم اتهموا الخلفــاء الثلاثة الأولين سراً أنهم مغتصبــون ظــالمــون[494] ، ومن هنا بدأت دعوتهم تظهر، وأخذوا يعلنون مبادئهم وأحقيتهم بالخلافة .

وقــد أشــار التوحــيدي إلى اختلاف الفقهاء والمذاهب في مؤلفاته، قائلاً متعجــباً مــن حــال أمتهم التي اختلفت في آرائها ومذاهبها ومقالاتها، فصارت أصنافاً فيها وفرقاً متعارضة: "المرجئة، والمعتزلة، والشيعة، والسنة، والخوارج"،

ويتبع قوله باختلاف الفقهاء في الأحكام من الحلال والحرام، ويشيرَ إلى أنَّ هذا الخلاف موجود منذ أيام الصدر الأول، واستمر حتى أيامه [495].

ويشتد هذا الخلاف عندما يسمع السنيّون أنَّ شيعياً سبَّ صحابياً، أو يسمع الشيعيون أنّ أحدا سنياً سبّ علياً أو أحد الأئمة، ويذكر التوحيدي أن بعض الرافضة، قالوا عن علي بن يقطين إنه قال يوماً:" والله حَرِجتُ من سبِّي لأبي بكر وعمر _رضي الله عنهما _ ولَمْزِي بفيَّ لأعراضهما" [496]، فهو يندم على شتمهما ويستغفر ربه، فالتوحيدي يفسر لنا العلاقة المضطربة التي كانت سائدة ما بين المذهبين، فكل فريق يسب ويشتم الآخر بألفاظٍ محرجة، وكثيراً ما تقع الفتن والحروب لهذا السبب [497]..

ويروي أنّ آخر سنياً من أهل الكرخ كان يقول: "خلفاء الله في الأرض ثلاثة وهم آدم عليه السّلام، وداود، وأبو بكر، والأمناء ثلاثة أيضا :جبريل عليه السلام –ومحمد صلّى الله عليه وسلّم– ومعاوية، وكان إذا سئل عمّن خرج على أبي بكر، وعمر رحمهما الله قال: حلال الدّم، وإذا سئل عمّن خرج على علي رضي الله عنه قال: الله أولى به وأعلم" [498].

وكانت الأعياد فرصة سانحة لإثارة الشغب والتحرش بين الفريقين من سنة وشيعة، حتى أنَّ الحكام الأقوياء يمنعون من إقامة هذه الأعياد أحيانا، مثل عيد يوم عاشوراء وعيد الغدير [499]، ولا شك في أن هذا النزاع بين الطرفين قد أدى إلى إضعاف الخلافة.

وكان التوحيدي دائم الهجوم على الفرق المختلفة، والشيعة بوجه خاص، ونجد تحامله في سبِّ الصاحب بن عبّاد وابن العميد، لأنهما من أنصار الشيعة "الرافضة" وكانوا يغالون في ذلك، وكذلك تحامله على مسكويه الذي نلمحه من خلال ثنايا كتابه الإمتاع والمؤانسة، فقد كان مسكويه على مذهب الشيعة وقريب المنزلة من الوزيرين الصاحب وابن العميد، وكان يقلل من شأن الذين ينتمون إلى هذا المذهب، ويعلن ثورته على التشيع بتفضيل الصحابة ولعن من يسبهم [500].

شـــاعت في بغداد ثورات الحنابلة الذين قويت شوكتهم، وصاروا يهاجمون دور القـــوّاد والعامّة، وأراقوا الخمور، وقتلوا المغنين والمغنيات، وقد بنوا مسجدا بـــبغداد، واســـتعانوا بالعمـــيان الذين يأوون إلى هذا المسجد، فإذا مرّ بهم شافعي انهـــالوا عليه ضربا بعصيهم[501]،ومن هذا المنطلق صارت بغداد مسرحا للعنف والاضـــطرابات التـــي أدت إلى تدهورها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، ووصفها المقدسي بقوله:"إنّ بغداد كانت جليلة في القدم، وقد تداعت الآن للخراب، واختلت وذهب بهاؤها [502]."

ويصور التوحيدي بقلمه صورة أهل بغداد الذين انقسموا إلى فرقتين فرقة تنتســـب إلـــى مـــرعوش، والأخرى إلى فضل، وهما زعيمان لطائفة من عياري بغـــداد، وكانـــا كثيرا ما يتقاتلان ويثيران الفتن فيها، ويروي لنا التوحيدي قصة بأسلوبه الرائع تصوّر هذا الصراع قائلا: "لقد اجتاز أحد القضاة ببغداد بباب الطاق فـــتعلق بعض هؤلاء المجّان بلجام بغلته، قال: أيّها القاضي، عرّفنا أنت مرعوشي أم فضـــلي، فتحـــيّر وعرف ما تحت هذه الكلمة من السفه والفتنة، وأن التخلص بـــالجواب الرفيق أجدى عليه من العنف ...فالتفت إلى الحرّاني – وكان معه وهو من الشهود – فقال يا أبا القاسم نحن في محلّة من؟ قال: في محلّة مَرْعُوش، فقال القاضـــي: كذلك نحن –عافاك الله– من أصحاب مَحَلّتنا لا نَخْتَارُ على اختيارِهم؛ ولا نتميَّزُ فيهم، فقال العَيَّار: امشِ أيُّها القاضي في ستر الله؛ له مِثْلُكَ من يتعصب للجـــيران"[503]، وبهـــذا صار النّاس في بغداد أمّا مرعوشي أو فضلي وتعصبوا لهما.

ومـــن هـــنا نرى أنّ بغداد أضحت مسرحا للاضطرابات والفتن المتكررة التـــي تحـــدث بين العامّة والسلطة، ونجد السلطة نفسها منقسمة إلى فريقين؛ فيها فـــريق مـــن أتباع السنة ويمثلها الخليفة الذي يملك الاسم فقط، ولا يمكن أن يفعل شـــيئا حـــيال الدّولة البويهيّة، والفريق الآخر من اتباع الشيعة والتي يمثلها الأمير البويهي وأشياعه.

6.2 الشعوبيّة :

كانــت بغــداد رقعة واسعة ضمّت العربي والعجمي، والمسلم واليهودي والنصـــراني وغـــيرهم من الأجناس، وبهذا امتزجت فيها عناصر مختلفة متعددة الألوان والشعوب، وفي هذه الأوساط نمت حركة تتعصب على العرب وتحتقرهم.

وظهرت بوادر هذه الحركة "الشعوبية" في أواخر العصر الأموي، لكنهم لم يجرؤوا على التصريح بها، فتستروا وراء الدعوة إلى المساواة، ونادوا بالتسويّة، فلّمـــا جـــاء العصر العباسي خلعوا القناع وكشفوا عن حقدهم وكراهيتهم للعرب وأكـــثروا مـــن تشـــويه تـــاريخ العرب وأدبهم، واتهموهم بالبربريّة قبل الإسلام، وبالـــبداوة وخشـــونة العـــيش بعده، وراحوا يمجدون ثقافاتهم على حساب الثقافة العربيّة الإسلاميّة، وشنوا حربا شعواء على كل ما هو عربي وإسلامي [504].

ويعتقد أنّ الشعوبيّة عبارة عن فكرة سياسية أدبيّة، اتخذت من الدّين ستارا لهـــا، ونشـــأ عـــنها عدة حركات، منها ما هو أدبي أو ديني أو ثوري، والباعث لظهـــور هذه الحركات هو الصراع المتصل بين عناصر الأجناس المختلفة [505] التـــي كانـــت تـــتألف مـــنها بغداد آنذاك، حيث قـــال التوحيدي" استحال الحـــال عجمـــا كسرويـــّة، وقيصرية[506] ".

ويـــبدو أن أكـــثر هذه العناصر تفوقا وامتيازا هو العنصر الفارسي، وقد أظهـــر هذا العنصر عداءه للعرب والإسلام، ومفتخرا عليهم، وحاطا من شأنهم، فالفـــرس نفـــوا عن العرب كلّ فضيلة، وألصقوا بهم كل رذيلة، وأسرفوا في الذّم والشـــتم، وحـــاولوا طمس الذّات العربيّة، وقطع جذورها تاريخيا وثقافيا وطمس دورهـــم الحضاري، وادعوا بأن الحضارة العربيّة الإسلاميّة ما هي إلاّ اقتباسات مـــن الأعـــاجم، وفـــي الوقت نفسه حاولوا إحياء التراث الأعجمي وتمجيد الآثار الأعجمـــيّة، وتعمل على بثها في المجتمع العربي الإسلامي، واهتموا بإحياء لغتهم الفارسية [507] .

ويتضح أنَّ الشعوبيّة كانت مظهرا رائجا بين الكتّاب العرب وغير العرب، فقد ظهرت على شكل مساجلات أو مناظرات فيما بينهم، ويتضح هذا المظهر من

خـــلال ما نقل إلينا التوحيدي، والذي ظهر في الوقت الذي كانت القوميّة الفارسيّة قــد أخــذت تتشــكل بقوّة، وكانت اللّغة الفارسيّة مظهرا من مظاهر تلك اليقظة الفارســيّة، وفـــي هـــذا الوقت أخذ المؤلفون والمفكرون يؤلفون باللّغة الفارسيّة والعربيّة معا[508].

وفي ظلٍّ هذه الظروف التي تأججت فيها نيران الشعوبية الفارسية كان أبو حيان يدين بأفضلية العرب على العجم، وهذا يعدُّ موقفا شجاعا يُسجّل له، في حين أنـــه تهـــرّب مرة من إجابة الوزير ابن سعدان عندما سأله "أتفضل العرب على العجـــم " خوفـــاً علـــى نفسه، وذلك لأنّ الوزير من الأعاجم، وقال له:" إنّ العجم يشمل الفرس والروم والهند" ومن الصعب تفضيل العرب على هؤلاء جميعا، لكنّ الوزير سدّ عليه المنافذ حين قال له: إنمّا أريد الفرس، لكننا نرى التوحيدي يراوغ مرة أخرى ويحاول الهروب من الإجابة بأن روى له كلام ابن المقفع في تفضيل العـــرب، ولكـــن الوزيـــر لـــم يقتنع بهذه الإجابة وطلب منه أن يفصح عن رأيه بصراحة مع علمه أنّ هذا الرأي قد لا يرضي هذا الوزير الفارسي، ويحمله على الاستياء منه وطرده من المجلس، وعلى الرغم من ذلك لم يستطعْ المراوغة أكثر أو يفضـــل الفـــرس على العرب من أجـــل إرضـــاء الوزير، فجنح إلى تفضيل العرب[509]، ويدلُ هذا الموقف على عروبة التوحيدي وتعصبه لقومه وبني جنسه.

وتحدث التوحيدي في أحد آثاره عن فضائل كل أمّة من الأمم، فقال: "فلكلٍّ أمّـــة فضـــائل ورذائـــل، ولكلٍّ قوم محاسن ومساوئ، ولكلٍّ طائفة من النّاس في صـــناعتها وحلّها وعقدها كمال وتقصير،" ومن ثم جعل للفرس "السياسة والآداب والحـــدود"، وللعرب "النجدة والقرى والوفاء" ... وللروم "العلم والحكمة"، وللهند "الفكـــر والرويّة والخفة"، وللترك "الشجاعة والإقدام". ثمّ يقول: "إنّ هذه الفضائل ليست لكل واحد من أفرادها، بل هي الشائعة بينها" [510]، وأشار إلى مبدأ الأخلاق والمثالـــية فـــيها، فكانت العرب في نظره أفضل هذه الأمم في تحليهـــا بالفضائل الخلقيّة قائلا: " وهذا شيء فاش في العرب بطول وحدتها وصفاء فكرتها، وجودة

بنيـــتها، واعـــتدال هيئتها، وصحة فِطْرَتِها، وخَلاء ذَرْعها، واتّقادِ طبعها، وسعةِ لغتها وتصاريف كلامها في أسمائها وأفعالها وحروفها...(511)"

وبعد الفراغ من تعداد فضائل العرب ينتقل إلى ذكر اللُّغات، ويفضل اللُّغة العربــيّة علــيها، قائلا: "وقد سمعنا لغات كثيرة –وإن لم نستوعبها – من جميع الأمـــم كلغـــة أصحابنا العجم والروم والهند والترك والزنج، فما وجدنا لشيء من هـــذه نصـــوعَ العربـــيّة، أعنى الفُرج التي في كلماتها، والفضاء الذي نجده بين حروفها، والمسافة التي بين مخارجها...(512)" فهو يستقصي صفات اللّغة العربيّة إزاء اللّغـــات الأخـــرى، ومـــن ثـــمّ يستعفي في موضع آخر من فهم معنى كلمة البخت، لأنها بظنه كلمة دخيلة على العربية(513)، وهو يتعصب للعرب ولغتهم.

ســـأل أبـــو حيان أستاذه أبا سليمان المنطقي: هل بلاغة أحسن من بلاغة العرب ؟ فأجاب إنّا "سمعنا لغات كثيرة من أهلها أي من أفاضلهم وبلغائهم، فعلى مـــا ظهر لنا وخيّل إلينا إنّ اللّغة العربيّة وبلاغتها أفضل وأوسع مناهج، وألطف مخـــارج، وأعلـــى مـــدارج، وحـــروفها أتـــم، وأسماؤها أعم، ومعانيها أوغل، ومعاريضـــها أشـــمل، ولها هذا النحو الذي حصته منها حصة المنّطق من العقل، وهـــذه خاصـــة مـــا حازتها لغة، على ما قرع آذاننا، وصحب أذهاننا، من كلام الناس، وعلى ما ترجم لنا أيضا من ذلك(514)."ويتبع حديثه بأنّ الأمم كلُّها مشتركة في العقول، وإن اختلفت في اللّغات، فلا توجد أمة كاملة بلا نقص(515).

والموقـــف الآخر الذي سجّله التوحيدي في الدّفاع عن العرب والرّد على اتباع الشعوبيّة هو تناوله ما قاله الجيهاني (516)في شأن العرب، الذي بدوره ألّف كتابا سبّ فيه العرب وتناول أعراضهم، وحطّ من أقدارهم، واتهمهم بأنهم يأكلون الحشرات والحيّات، ويتعاورون ويتهاجون، كأنهم سلخوا من فضائل البشر (517).

وينبري التوحيدي بالرّد على هذا الكلام قائلا: "لو كسرى وقيصر نزلا في هذه الجزيرة المكان الخاوي، وتلك الفيافي لأصبحوا مثل العرب"، وذلك من جراء طبـــيعة الـــبلاد وأحوالها، ويعلل ذلك؛ "لأنّ من جاع أكل ما وجد، وَطعِمَ ما لَحِقَ وَشَرِبَ ما قَدَر عليه حبّاً للحياة، وطلباً للبقاء، وجزعاً من الموت (518)."

مـــن ثمّ يشرع في ذكر فضائل العرب وخصائصها الحميدة مَثل الضيافة، وفك الأسرى، والصبر على الشجاعة، "ولهم من عادات الحاضرة أحسن العادات، ومن أخلاق الباديّة أطهر الأخلاق"، كانوا بذلك مخالفين لأهل المدن الذين ينعمون بحـياة الـترّف والنعيم ويعيشون على خلال مثل الكذب والدناءة الخداع والحيلة والمـنكر، ولهـذا يقال: "عيب الغنى يورث البلادة، وفضيلة الفقر أنّه يبعث على الحيلة." ويبدو أنّه يعدد فضائل العرب فضيلة فضيلة بشيء من التطويل والبيان، ومـن ثـمّ يخاطـب الجيهانـي بلهجة شديدة وقاسية "فليستحي الجيهاني بعد هذا الـتطويل والبيان والكشف، في سبه وتعرضه للعرب في كتابه، ويرفع نفسه عمّا يشين العقل [519] ".

علـى أنّ الجيهاني يمضي في ذكر فخره على العرب، ويدلل على شرفهم وتقدُّمهـم وعلو مكانتهم قائلا: "إنّ الله أفاض علينا النّعم، ووسع لدينا القسم وبوّأنا الجِـنان والأريـاف، ونعَّمـنا وأترفنا، ولم يفعل هذا للعرب بل أشقاهم وعذّبهم، وضيّق عليهم وحرمهم وجمعهم في جزيرة حَرِجة، ورقعة صغيرة" ثمّ يقول "ليس للعـرب كـتاب إقليدس ولا المجسطي ولا الموسيقى ولا كتاب الفلاحة ولا الطب ولا العلاج ولا ما يجري في مصالح الأبدان، ويدخل في خواطر النّفس"[520] .

يـرد التوحـيدي على ذلك بقوله: "إنّ الجزاء والثواب هو العمل بالاجتهاد الـذي يسـتحق السعي والارتياد والاختيار والاعتقاد"، ولا يكون ذلك بالترفيه أو بالذهب والفضة، ويرى أن الأمم تتفاضل في الخلقة الأولى وبالاختيار الثاني، ولا حرج على الإنسان في الخلقة الأولى لأنّها ليست من صنعه بل من صنع الله، أمّا العـرب فلـيس لهم كتاب إقليدس ولا المجسطي، فإنّ هذه الكتب جميعها يونانيّة، ويقـول أيضـا: إنّ "نبيّهم زرادشت الذي يفتخرون به ما هو إلاّ خرافة وخدعة، خدعهـم بهـا زرادشـت بقوة الملك الذي قبل ذلك منه وحملَ الناس عليه طوعا وكَرها وترغيبا وترهيبا، ولم يرد ذكره في القرآن الكريم مع الأنبياء الذين ذكرهم الله تعالى"[521] .

وهو بهذا يعطينا فكرة عن طبيعة المساجلات والمناظرات التي تجري بين رجـــال الفكر في تلك الحقبة، فكل يدافع عن وجهة نظره، ويردّ على الآخر حجته وبراهينه بإثبات أحقيته وفضله وشرفه على الآخر، كرد التوحيدي على الجيهاني، وردّ الجيهاني عليه.

وفوق ذلك فإنه يبدو من خلال ما تقدم إيمان التوحيدي بالمساواة بين الأمم، وأن كل أمّة لها خصائصها وفضلها على غيرها، وكل أُمة معرضة للنقص، وفيها الخير والشر، فقال ابن قتيبة بهذا الشأن: "وليس من النّـــاس صنف إلاّ وفيه الخير والشر وعلى ذلك أسست الدُنيا ...[522]".

الفصل الثالث

الناحية الاقتصادية

لـــم يـــترك أبو حيان جانباً من جوانب الحياة إلاّ وكتب فيه، فمؤلفاته صورة واقعـية لمــا كانــت علــيه الحياة في بغداد بكلٍّ ما فيها من فقر وغنى واضطراب وفوضى في جميع مجالات الحياة، لا سيّما الوضع المالي .

ويعــدُ الواقـــع السياســـي _ الذي تحدثت عنه آنفاً_ إفرازاً طبيعياً كما عكسته مؤلفات أبي حيان التوحيدي للحالة الاقتصاديّة المترديّة في بغداد، فقد بلغ الحال من الشـــدة والضـــيق وقلّة ذات اليد إلى ارتفاع الأسعار أكثر من مرة، و أثّر ذلك سلبيّا علـــى الوضـــع الاجتماعـــي لعامّة الشّعب، حتى اضطرتهم الحياة إلى أكل الكلاب والجـــراد والحشيـــش في أوقات الحروب والمجاعات (523).

وأعقـــب فقـــدان الأمن والاستقرار السياسي -كما رأينا- فساداً في الوضعين الاقتصـــادي والاجتماعـــي، وتـــباعداً في مستوى الطّبقات الاقتصاديّة، لسوء توزيع الـــثروات فـــي ذلك المجتمع، لذا نرى أن فريقَ الرؤساءِ ورجال الدّولة عكفوا على الـــترفَ والـــبذخ واللّهو، في حين أنّ أفراد الشعب ومن ضمنهم رجال العلم والفكر والأدب قـــد حُرموا من القوت الضروري أحياناً، وأورد التوحيدي نماذجاً عن حالة الـــبؤس التي انحدر إليها علماء عصره وأدباؤه، فهذا أستاذه أبو سعيد السيرافي سيّد العلمـــاء أوصـــى ولده بأن يحرق مؤلفاته إذا لم تحقق له السعادة والخير وتجلب له المـــنفعة قـــائلاً له: " قـــد تركتُ لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجل، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طُعْمَة للنّار(524)".وهذا أبو بكر القومسي الفيلسوف، يعاني من الضرّ والفاقـــة علـــى جانب عظيم، فقال عن نـــفسه: "ما ظننت أنَّ الدُّنيا ونكدها تبلغ من إنســـان ما بلغ مني، إن قصدتُ دجلـــة لأغتسل منها نضب ماؤها، وإن خرجت إلى القفار لأتيمم بالصعيد عاد صلداً أمـــلس(525)".وهذا أبو سليمان المنطقي السجستاني، سيّد علماء عصره "بحاجة ماسة إلى رغيف وحوله وقوته قد عجزا عن أجرة مسكنه ووجـــبة غدائه وعشائه(526)."ولا ننسى التوحيدي نفسه الذي عانى من الفقر والبؤس، وقـــد عبّر عن سوء حاله قائلاً: "إلى متى الكسيرة اليابسة والبقيلة الذاوية والقميص

المـــرقع"، "وإلى متى التأدم بالخبز والزيتون "، كما أن هذه الحياة القاسية اضطرته إلى أكل الخضر في الصحراء وإلى التكفف الفاضح عند الخاصّة والعامّة(527). هذه كلمـــات واضحة تدلُّ على فقر التوحيدي ومدى معاناته من هذه الحياة البائسة، وتعدُّ مـــن الـــنماذج التـــي قدَّمها التوحيدي لتصوير الواقع الاقتصادي في البيئة البغدادية آنـــذاك، ومعاناة المفكرين والأدباء وأصحاب العلم في هذه الحياة التي أوصلتهم إلى أقصى درجات اليأس وفقدان الأمل.

1.3 أسباب تدهور الأوضاع الاقتصاديّة :

لا ريـــب فـــي أن هـــناك مجموعة من الأسباب التي أدَّت إلى تدهور الأوضاع الاقتصاديّة في بغداد، ويمكن أن يكون من أهمها: فقدانها الأمن والاستقرار والعدل، إذ إن استقامة الحالة الاقتصاديّة موقوفة على الاستقرار والسلم، اللذين حُرِمت منهما بغـــداد فـــي تلـــك الحقبة الزمنيّة وذلك لضعف بعض الخلفاء، وإيثار بعضهم اللهو والشّـــهوة والملذّة على حساب المصالح العامّة للرعيّة وما تبع ذلك من إنفاق لأموال الدّولـــة فـــي هذا الباب، ممّا جعل خزينة الدّولة تحتَ طائلة العجز المالي الذي تمت تغطيته عن طريق المصادرات. وكذلك التنافس والحسد والحقد الذي وجد بين رجال الســـلطة من خليفة أو وزير أو أمير على المناصب، وأدّى ذلك إلى استغلال أموال الدّولـــة فـــي تعويـــض الخسارة التي يدفعها العامل من أجل الحصول على منصبه الإداري(528).

وفي أثناء السيطرة البويهية على بغداد، تدهورت الأوضاع السياسية، ووصلت إلى أقصى درجات الانحطاط، وقد رافق هذا الانحطاط والتّدهور موجات من الغلاء وارتفاع الأسعار، وتدّهور للأوضاع الاقتصادية التي ترتب عليها سوء أحوال النّاس الذين عانوا من نتائجها المروعة .

لقـــد تأثـــرت بغـــداد بهجمـــات الروم على الثغور الإسلاميّة، ودبّ الرّعب والخـــوف والقلـــق فـــي نفوس العامّة وثارتْ، وأعلنت الإنكار والرّفض للأوضاع السياســـيّة الســـائدة فـــيها مما جعل اللّصوص يستغلون هذه الفرصة فقاموا بغارات الـــنّهـــب والسّلب، ولم تسلم منها العامّة والخاصّة، حتى التوحيدي نفسه لم يسلَم من

هــذه الغارات[529]، ومن الطبيعي أن تؤثر هذه الهجمات على اقتصاد البلد، وإيقاف الحــركة التّجارية والزراعيّة، وإلزام الدّولة نفقات طائلة من أجل ردّها والــدّفــاع عن البــلاد.

وكــثرت ببغداد الثورات والفتن بين المذاهب الإسلاميّة، وأدى ذلك إلى إشعال الحــرائق ونهب المحال التّجارية، وإرهاق أرواح النّاس [530]. وشهدت بغداد أيضاً الكثــير من حركات العصيان الشعبيّة، والحروب الأهليّة، وجرائم الغوغاء، وجرائم رجــال الســلطة التي ارتكبوها بحق الرعيّة، كالقتل ومصادرة الأموال، ولذلك لجأ الكثــير مــن الأغنــياء إلى دفن أموالهم في الأرض، وبموتهم يمكن أن تضيع هذه الأمــوال، وتخســر الدّولة الكثير بدلاً من استثمارها في التّجارة التي تساهم في نمو اقتصــاد الــبلد[531]، وهــذه البلايا كلّها لا يمكن أن تؤدي إلاّ إلى تأثير سلبي على الوضع الاقتصادي في بغداد.

ونضــيف إلــى هــذه الأســباب الكوراث الطبيعيّة كالفيضانات والحرائق والــزلازل، والطواعيــن، وغــزوات الجراد وغيرها[532]، فكلّ هذه الوقائع كانت عاقبــتها ارتفاع في الأسعار، وانتشار للبؤس والجوع والجزع ونزوح بعض السكّان عنها.

وقــد أفاضــت المصادر في الحديــث عن هذه الوقائع، ففي ســنة 328هــ غرقــت بغداد غرقاً عظيماً، حتى بلغت زيادة الماء تسعة عشر ذراعاً فغرق النّاس والــبهائم، وانهدمــت الــدّور والعقــارات وخربــت الأراضــي [533]، كذلــك هبّــت ريح عظيمة في سنة 378هــ أهلكت جماعة من النّاس، وأغرقت الكثير من السفن في دجلة[534]. وفي سنة 362هــ وقع حريق عظيم لم يرَ مثله فذهب ضحيّته أمــوال وأناس كثيرون[535]. يُضاف إلى ذلك خصب الطبيعة وقحطها والآفات التي تحدثهــا الأمطار والثلوج والبرد القارص الذي إذا زاد عن حده سبّب أضراراً كبيرة فــي البنــيان والــزرع[536]. وكل ما سلف كان له تأثيره على الأوضاع الماليّة في بغداد، وأدى إلى تدني مستوى المعيشة بالنسبة للعامّة، فهي الفئة الوحيدة التي تأثرت سلبياً بهذه الأمور، لا سيّما من موجات ارتفاع الأسعار التي رافقتها .

2.3 موارد الرزق :

نـوّه التوحـيدي إلى بعض موارد الرزق التي كانت معروفة ببغداد [537]، وكان مـن أهمّها الجزية التي تؤخذ على أهل الذمّة، واسمها مشتق من الجزاء؛ إما جزاء على كفرهم، وإما جزاء لأمان المسلمين لهم، وهي من حق ولي الأمر الذي يقررها علـى رقاب من دخل في الذمّة من أهل الكتاب، ليقروا بها في دار الإسلام، وتؤخذ مع بقائهم على أديانهم [538].

والخـراج الـذي يؤخذ على رقاب الأرض، سواء من أهل الذّمة أو المسلمين، وأشـار التوحـيدي إلى عدّة أنواع من الأراضي المعروفة في بغداد في تلك الحقبة الزمنيّة وهي أرض الموات التي أحياها المسلمون، والأخرى التي أسلم عليها أربابها فهـم أحـق بهـا، وبهـذا تكون أرض عشر(وهي زكاة الأصناف، يعتبر وصف استـحقاقها عند دفعها إلى المسؤولين؛ أي عشر المحصول) ولا يجوز عليها خراج، والـنّوع الثالث: ما ملك من المشركين عنوة وقهراً، فهي تكون غنيمة بين الغانمين، أو تكون أرض عشر ولا يجوز أن يوضع عليها خراج، أو تكون وقفاً على المسلمين بخـراج يوضع عليها، والنّوع الأخير، وهو ما صولح عليه المشركون من أرضهم فهي الأرض المختصة بوضع الخراج عليها، فيطلق عليها أرض الصلح[539].

وشـاع فـي بغـداد أراضي الإقطاع، وهي كل ما كان لكسرى وأهل بيته، وكانـت الدّولـة الإسـلاميّة المتمـثلة بإمامهـا تقطع هذه الأراضي بهدف إحيائها وإصـلاحها وفلاحـتها وزراعـتها، وهي على أنواع: منها إقطاع تمليك، وإقطاع استـغلال. وأدى الإقطـاع مـع مرور الزمن لظهور الملكيّات الزراعيّة الواسعة، وظهور طبقة من كبار الملاّك، ولعدم دراية هؤلاء بالزراعة استخدموا أعداداً كبيرة من الأيدي العاملة، سواء من أفراد الشعب أو استقطاب العبيد لفلاحتها [540].

فالإقطـاع إذن هـو أن يدفـع الأئمة إلى من يرون أن يدفعوا إليه شيئاً من الأراضـي بحـق الإقطاع، ويجب عليه فيه العشرة والإيغار ويقصد بالإيغار حماية الأرض أو الضـيعة من أن يدخلها أحد من عمّال الدّولة، بمقابل أن يدفع للسلطان شيئا عليها يؤدى في السنة إمّا في بيت مال المسلمين أو غيره من الأمصار[541].

لقد ازدهرت الزراعة وتنوعتْ المحاصيل في بغداد، فهي مدينة كبيرة محاطة بقـرى وبسـاتين وضياع كثيرة، ولذا تعدُّ الزراعة مورداً أساسيا من موارد الدَّولة الماليّة التي تمدُّ الصناعة بالمواد الخام [542]، وعلاوة على الاهتمام بالزراعة، ظهر إلى جانبها الاهتمام بالثروة الحيوانية التي يمكن أن تساهم في رفع مستوى الاقتصاد فـي بغـداد، ومـن أهـم الحيوانات التي اهتموا بتربيتها الأغنـام والبقر والإبـل والطيـور [543] وغيرها.

ومـن الموارد التي ذكرها التوحيدي: الصّدقات التي تأخذ على الإبل والبقر والغـنم، وأخمـاس الغنائم والمعادن والزكاة، والمال المدفون، وما يخرج من البحر والضـرائب أو المكوس التي تؤخذ على السلع، وميراث من لا وارث له[544]. فهذه المـوارد تختص بخزينة الدّولة التي تدفعها على شكل رواتب أو أعطيات للموظفين والحاشية، وربما تقدّم بعضاً من الخدمات الاجتماعية للعامة.

التّجارة :

تعـدُّ الـتّجارة مـن أهم أركان الحياة لاقتصادية، وقد شجَّعت الدّولة ببغداد الـتّجار بصـورة مباشرة وغير مباشرة، من خلال تقديم بعض المساعدات من قبل الخلفـاء، سـواء أكـانـت مسـاعدات نقديّـة، أو بطريقة إعفـائهم من الـرّسوم والضـرائب [545]. وكانت التّجارة مظهراً من مظاهر أُبَّهة الإسلام في القرن الرابع الهجـري، وأصبحت هي السيدة في بلادها[546]، وإذ ميّزت من جميع المعايش كلها وجـدت أفضل وأسعد للنّاس في الدّنيا[547]، وكانت حياة التّجار المعاشية أحسن حالاً من بقيّة النّاس، وإن أقرب التّجار إلى التّرف والنّعيم في ذلك القرن البزازون (باعة الأقمشـة والثياب) والعطّارون، لما تدرُّ عليهم تجارتهم من أرباح وفيرة، وكان أكثر الـنّاس يلجـئون إليهم عند الحاجة، حتى الدّولة كانت تلجأ إليهم عند اشتداد الحاجة وضـيق الموارد الماليّة، فيستغل التجار هذه الفرصة بأخذ فوائـد على المال الـذي يقرضونه إيـّاها[548].

ولا بـد أن يـرافق التّجارة مجموعة من المنشآت، كالأسواق، والمصارف، والطّرقات والخانات، والعملات وغيرها مما يساعد على سهولة الاتصال . وأشارت

المصـــادر القديمـــة إلى أن الحكومة كانت تهتم بالأسواق، فتعهد أمرَ العناية بها إلى المحتسب الذي يتخذ له أعواناً وبعض المتطوعين لضبطها، ومراقبة الأوزان، ومنع الغش والتّلاعب فيها، والمحافظة على الأسعار(549).

لقد انتشرت الأسواق في بغداد، وكان لكلٍّ نوع من أنواع التّجارة سوق خاص بهـم مـثل: ســوق الملابس، وسوق العطارين، والصاغة، والصيارفة، والخبّازين، والفواكــه ويدعــى بسوق البطيخ، وسوق الرقيق، والسلاح، والوراقين "وهي سوق كبـيرة فــيها مجالس للعلماء والشعراء". ومن أشهر أسواقها: باب الطاق، والكرخ، والرّصافة، ويحيى(550).

ومــن أصناف التّجار الذين عرفتهم بغداد في تلك الحقبة الزمنيّة الخزّان وهو الــذي يشــتري البضائع وقت رخصها وتوافرها في الأسواق، ويخرجها عند قلتها وندرتها ويعرضها للبيع وبهذه الحالة يبيعها بأثمان مرتفعة (551).

والصّــنف الآخــر هو الركّاض: وهو التّاجر الذي يذهب لجلب البضاعة من الــبلدان الأخرى، وكان أول عمل يقوم به هو معرفة نوع التّجارة التي يجب جلبها ، ثــم يلاحــظ جملة أمور مثل سرعة ذهابه ومجيئه، والعوائق التي ربما تصادفه في الطريق، ثم يستحب أن يصحب معه قائمة بأسعار جميع البضائع في البلد الذي يريد العــودة إليه مما يجلب من تلك الجهة، وعليه أيضاً النظر إلى ما يحتاجه من المؤن التي تلزمه إلى حين وصوله، والمكوس التي تأخذ على البضائع، ثم يستخرج الربح الذي تدره عليه هذه التجارة(552).

والصنف الثالث هو المجهّز: وهو الذي يستقرّ في بلده، ويكون له وكلاء في بلــدان مخــتلفة يرســل إلــيهم البضــائع لبيعها، وهم بدورهم يشترون له البضائع ويرســلونها إلــيه، ويشترط في الوكلاء أن تكون لهم خبرة في التّجارة، وأن يكونوا ثقات وأمناء(553).

وتــبدو نظــرة التوحــيدي إلى التّجارة بأنّها عملية ربح ونماء وزيادة، فإذا لم تــرافقها هــذه الأمــور ستفسد(554.) إلاّ أنّه نظر إلى التّجار من الزاوية الاجتماعيّة وجعلهــم بمرتبة العامّة والسوقة قائلاً في وصفهم: "الأدب لا يوجد إلا عند الخاصة

والسلطان ومدبريه، وأما أصحاب الأسواق "فإنا لا نعدم من أحدهم خلقاً دقيقاً وديناً رقيقاً"، فهو يوجه نقداً لاذعاً لهذه الفئة، والذين قد يظهر من بينهم من يتعامل بالغش والخداع والمنكر، واستغلال النّاس بشتى الطرق، فكان جلّ همهم الحصول على الربح الوفير وإن كان بالحيلة والتزوير، وانفاق سلعتهم كيفما كانت، يقول: "تعاطوا المنكر حتى عُرف، وتناكروا المعروف حتى نُسي" [555]، ويدعو عليهم قائلا:" اللّهم إني أعوذ بك من أدب التّجار"[556]، ويقول: "إننا نعدم المروءة والفتوة عندهم، فإن كَسْبَ الدوانيق وقفَ حائلاً بينهم وبين كلّ فتوةٍ ومروءة"[557]. وروى أبياتاً في ذمهم:

خذوا مال التّجار وسوفوهم إلى وقت فإنهُمُ لئامُ
وليسَ عليكُمُ في ذاك إثْمٌ لأنَّ جميع ما جمعوا حرام.

فيعطي صورة تفصح عن كره لهذه الفئة واحتقاره لها، ويمكن أن يكون سبب هذا الكره هو المكانة الاجتماعيّة التي تمتاز بها هذه الفئة بسبب امتلاكها المال والثروة ولكنها في الوقت نفسه لا تمتلك العلم والمعرفة التي يمتلكها التوحيدي، ويعدُّ أيضاً أن أموالهم حرام وهم لئام في نظره، ويشير في بيت آخر إلى أن جميع ثرواتهم تُنْبِتُ على القيراط والأوزان والدوانيق قائلاً[558]:

ما للتجار وللسخاء وإنّما تنبُتُ لحومهم على القيراط .

ولم ينفرد التوحيدي بهذه النظرة وحده بل شاركه بعض من أدباء عصره كالثعالبي الذي جعلهم في مرتبة السوقة والدّهاقين[559]. وابن الجوزي الذي عدَّ عالم التّجارة عالماً مظلماً فيه الكثير من المنكرات والمستهجنات، وكما أنَّ هذه المهنة لا تتفق مع العبادة[560].

لكن ينبغي على من ذمّ هذه المهنة أن ينظر إليها من الزاوية المادية فهي أساس اقتصاد في أي بلد، وبوساطتها تنمو العلاقات التّجاريّة والوديّة مع البلدان الأخرى، كما أننا نجد أن العامّة والخاصّة تنظر إليهم نظرة احترام وتقدير وذلك لِما عندهم من ثروات وأموال، يمكن بها تقديم بعض المساعدات الماديّة إلى الدّولة وعامة الشعب.

وفـــوق ذلك فإن التوحيدي قد أشار إلى بعض الألفاظ المستخدمة في التّجارة وقـــتذاك، ومـــنها الدّانـــق والقـــيـــراط والحبّة والطسوج و الوزن، أمّا عملتهم فهي في الغالب الدّينار والدّرهم، وأحياناً الفضة والذهب(561)، وقليلاً ما يستعملون الفلس. ووجد في بغداد دور لضرب النّقود، وديوان للنقد والعيار(562).

الصناعة :

لقـــد صنّف معاصروا التوحيدي وهم إخوان الصفا النّاس بأنهم كلّهم صنّاع وتجّار وأغنياء وفقراء، فالصنّاع من وجهة نظرهم هم الذين يعملون بأيديهم وأدواتهم الصـــور والـــنقوش والأصـــباغ والأشـــكال، والغرض من ذلك طلب العوض عن مصـــنوعاتهم لصـــلاح معيشـــة الحـــياة الدّنيا(563). فإنّهم يقدمون الصنّاع على بقية الطبقات في السلم الاجتماعي، ويدلّ ذلك على احترامهم للمهن والحرف .

وقـــد وصفوا من لا صناعة له بأنه لا يتعلمها لكبر نفسه أمثال أولاد الملوك ورجال الدّولة، أو لا يعمل لزهده وورعه ورضاه بالقليل من أمور الدّنيا، وتفضيلهم طلـــب الآخـــرة على الدّنيا، والقسم الأخير لا يعمل لكسله وقبوله بالذلّ والهوان في طلب معاشه كالمكدين وأصحاب السؤال(564).

وعملوا على رفع شأن الحرف والمهن وخاصة الوضعية منها، لحاجة النّاس إلـــيها وفائدتها الكبيرة للمجتمع، مثل الزبالين الذين يقومون بتنظيف المدينة، ويمكن تصور مقدار الضرر الذي يلحق بحياة النّاس عندما تتوقف هذه الجماعة عن العمل، وهـــو ضـــرر لا يوازيه توقف العطارين عن العمل أو غيرهم من أصحاب الحرف الأخرى (565).

وأكـــدوا علـــى حاجة الصنائع إلى العقل والتفكير والتمييز وبهذا رفعوها إلى مصاف المعارف العقليّة، وفي هذا احترام للعمل كبير(566).

ويعتقد الإخوان أن النّاس أكثرهم فقراء، وخوف الأغنياء من الفقر دفعهم إلى الاجـــتهاد فـــي اتّخـــاذ الصـــنائع والتّجارات لضمان رزقهم، وحياتهم المعاشية(567)

وأخيراً قد صنّفوا الصنائع حسب فائدتها، وضرورتها للمجتمع، فالصنائع التي تأتـــي بالدرجـــة الأولى الزراعة والحياكة والبناء، والثانية تابعة للأولى فمثلاً لا تتم

الحــياكة إلا بصـــناعة الغزل، وصناعة الغزل لا تتم إلا بالنسيج ، كما أن الخياطة لازمـــة لعمـــل الملابس...، وتأتي بعدها صنائع الجمال والزّينة كالعطور والحرير والوشي؛ أي أن الصنائع متممة لبعضها في نظرهم (568)

أنواع الصناعات :

ازدهــرت الصناعة في بغداد، وواكبت التّطور والازدهار الحضاري فيها، فهـــي دائماً تلبي حاجات الطبقة العليا. وتقسم الصناعة إلى قسمين: صناعات فاخرة لبـــيوت الأثرياء وصناعات وضعية للشعب. فصنّاع الطبقة العليا يصنعون الملابس الجميلة المزركشة ،وفاخر الأثاث والسّتائر والتُّحف، في حين أن صنّاع الطبقة الدّنيا يصـــنعون الأشـــياء العادية (569) ومن أبرز الصناعات التي أشار إليها التوحيدي .

صناعة الحياكة والنّسيج :

وتعــدُّ هذه الصناعة من أقدم الصناعات التي عرفتها بغداد، لحاجة الإنسان الضـــرورية للملابـــس التي تغطي بدنه، وتحميه من تقلبات الطقس، وكانت طبيعة الملابـــس تخـــتلف مـــن فئة لأخرى(570)، وأفاض التوحيدي في الحديث عن نوادر الخياطيـــن والحاكـــة، وأشـــار إلى أن القطن من أهم أنواع الأقمشة التي تدخل في صـــناعة الثـــياب(571)، وأشـــارت المصادر إلى وجود أقمشة أخرى، كـــالحريـــر والدبيقي (572)، وكانت بغداد تصنع المنسوجات الحريريّة الفاخرة، والثياب الحريرية من ألوان مختلفة، والأقمشة القطنية، والعمائم الرقيقة وغير ذلك (573)

وشـــاع فيها صناعة أقسام الأثاث أمثال الستائر، والسّجاد والبسط والوسائد، ووجـــد فـــيها دوراً للطرازيـــن، تضـــم العديد من الموظفين كالخياطين، والحاكة، والمطرزيـــن، والقصّـــارين (574). وارتبطت هذه الصناعة بالصباغة لترضي أذواق الزبائن (575).

أشـــار التوحـــيدي إلى عمل بعض النّساء في دكاكين الخياطين، وإلى أن بعض الأشخاص ينسجون الغزل في بيوتهم ومن ثم يبيعونه في السوق (576)

صناعة الزّيوت :

كانـــت من الصناعات المعروفة ببغداد، ويباع بأسعار رخيصة (577)، وقد حدد التوحـــيدي مناقب الزيت قائلاً: "إنّه يُعْصَرُ أوّلَ عصرَةٍ فيكونُ منهُ زَيْتٌ للأكْلِ، ثم يُعْصَـــرُ ثانيةً فيكونُ منهُ زَيْتُ السِّراج، ثم يُعْصَرُ ثالثةً فَتُطَيَّبُ به زِقاقُ الزَّيْت، ثم يُبَاعُ ثَجِيرُهُ فيجفَّفُ وتُسْجَرُ بهِ النَّار فتكونُ نارُهُ أحرَّ نار، ثم يُعْزَلُ رمادُ ذلك الوقود فَيُبَاعُ لأصحابِ الصَّابون فَيُدْخِلونَهُ في عمله فَيَجود، فلا يسقُطُ منه شَيء." (578) وقد وجدت ببغداد معاصر لاستخراج الزَّيت من الزيتون (579). وكان للزيوت استخدامات كثـــيرة مـــنها مـــا يدخل في صناعة الأطعمة، ومنها ما يستعمل في الإنارة ، ومنها يستعمل في صناعة الصابون .

صناعة العطور :

ذكـــر التوحيدي الأدوات التي تدخل في هذه الصناعة ومنها "المسك والعنبر والعـــود والكافور والزعفران "(580)، وأساس صناعتهم هي خلط ومزج هذه العناصر لاســـتخراج الطيـــب الجـــيّد، وقال التوحيدي بشأنهم:" هؤلاء العطارون أعني الذين بعـــرقهم يســـهكون، ويدفـــأون ويســـخنون، ويَرْقون ويركبون ويمزجون ويخلطون ويغلطـــون، هـــذه جُونـــة لا يملكها إلا العارفون، ولا يتطيّب منها إلا الواجدون ولا يظفر بها إلا الواصلون".(581) فالطيب من وجهة نظر التوحيدي لا تعرفه إلا الطبقة الـــثرية التي تكثر استخدامه، ولعله يقصد أيضا بالواجدين والعارفين أهل التصوف الذين يتطيبون.

صناعة الصياغة:

كانـــت صـــياغة المجوهرات من الصناعات المعروفة لدى الطبقة الخاصة التي تفننت في صياغتها، وتقوم هذه الصناعة كما يقول التوحيدي على سباكة الشذر ومن ثم صياغته، وبعد ذلك ينقش ويزيّن ويعرض للزبائن(582).

كـــان الذّهـــب والفضة من الخامات الأساسيّة التي تدخل في هذه الصناعة، وقد عرفـــت بغـــداد بعض الخامات أو العناصر الأخرى التي تستخدم في صناعة الحلي والمجوهـــرات للنساء أمثال: الياقوت، الزّمرد، والماس، والعقيق(583). وكما انتعشت

سوق الصاغة بباب الطاق، وقدّم ابن الجوزي وصفاً لهذا السوق قائلاً بأنّه:" سوق لم يشاهد أحسن بناء منه، بناء شاهق وأساطين ساج عليها غرف مشرفة "، وكان يعمل فيه الصاغة والنّقاشون.(584)

صناعة الأحذية :

انتشرت صناعة الأحذية ببغداد وكان لهم سوق خاص، وقد اختصت بغداد بصنع نوعين من الجلود وهما الدّارِش وهو" جلد أسود"، واللكّاءُ وهو "جلد أحمر"(585)، وكثيراً ما كان التوحيدي يشير إلى هذه الصناعة أو إلى الإسكافي(586). وقد رافقتها دباغة الجلود، وهي مهنة مستهجنة في نظر النّاس، وذلك لرائحتها الكريهة (587).

و شاعت ببغداد صناعات أخرى كصناعة الأثاث، الذي يصنع في الغالب من الأشجار غير المثمرة كالعرعر والسّرو والدّلب وأشباهها، وصناعة الأطعمة(588) وغيرها .

أرباب الحرف والصناعات الأخرى :

الحِجَامَة :

وهي استخراج الدّم الفاسد من قفا العنُق أسفل القذال بالمحجم ، وذلك بأن يشرط الحجّام القفا بماساة أو بشفرته، ثم يضع أداة كالكأس فتجذب الدّم الفاسد، ويسمى صوت مص الدّم بالضيغل، وتعتبر هذه المهنة من الصنف القديم الذي شاع ببغداد(589)، ويذكر التوحيدي إن أحد الأشخاص دعا حَجّاماً فقال له الحجّام: "أخرج منك دماً قليلاً أو دماً كثيراً ؟ قال : أشدُدْ قَصَبَ المَلازم، وأرْهِفْ ظُبَي المَبَازع، وخَفِّفِ الوَقْعَ، وعَجِّلِ القَطْع، ولا تَستَكْرِهَنَّ أبيًا، ولا تردنَّ أَبيًا واسفف ولا تُسَفِّف"، واسفف أي يقارب بين الشرط، ويقصد بهذه العبارة أن لا يفرق بين الشُّرَطِ(590) .

ولم تقتصر هذه المهنة على مص الدّم بل نجد حجاماً يزيّن، وآخر يمارس مهنة الختان(591). ويروي التوحيدي قصة لأحد الحجامين الذي تعصب لمهنته ضد أحد الحذائيين، قائلاً له: " أنت تُمَشِطُ وتُسَرِحُ وأنا أُمَشِطُ وأُسَرِحُ وأَنْتَ تُخْرِقُ وأنَا

أُخْــرِقُ، وأَنْتَ تُشِقُ الجِلْد بشَفْرَتِكَ وأنَا أَشُقُهُ بِمشْرَطي، فــأيُّ فضل لك عليّ "(592).

السّقاءون :

كان في بغداد درب يعرف بدرب السّقائين وفيه السقايات العجيبة ذات الأجراس الكثــيرة، ومشــرعه تعرف بمشرعة الّروايا يأتون إليها ويملئون جرارهم منها(593)، ومــن ثم يبيعون الماء على النّاس، وكان لهذه المهنة مُحتسب يراقب نظافة الجِرار والمــياه(594)، وقد استخدموا البِغَال في حمل جرارهم إلى الزبائن والبيوت، وسقاية النّاس في الشوارع، وكما دخل السقاءون إلى بيوت القادرين والمترفين لجلب المياه إليهم. (595)

باعة الأطعمة :

لقد ظهرت جماعة ببغداد احترفت مهنة صنع الأطعمة، وبيعها على أصحاب الحوانيــت والــتّجار الذيــن يخرجون من منازلهم في الصّباح ولا يعودون إلا في المســاء(596). ومــن أنواع الأطعمة التي كانت تباع في الأسواق الهريسة (وتصنع من اللّحم السّمين والماء والحنطة)، وهي من الأطعمة الشائعة والمرغوبة في بغداد، وكــان الهرّاســون يــروّجون لبضاعتهم ويتكايدون ويتنافسون فيما بينهم، فنقل إلينا التوحــيدي جــزء من هذه المكايدات ما دار بين ثلاثة من الهراسين الذين يرّوجون لهرائسهم قائلاً: "أخرج أحدهم هريستة على المغرفة وهو يقول: انزلي ولك الأمان، والثانــي يقــول: يــا قوم أدركوني الحقوني، أنا أجذبها وهي تجذبني، والغلبة لها، والثالــث يقول: أنا يا قوم لا أدري ما يقولون، من أكل هريستي ساعة اسرح ببوله شــهراً "(597). وكان للهراسين مواضع فوق دكاكينهم فيها الحصر والموائد والخدم، وطشوت وأباريق، وبعد الانتهاء من تناول الطّعام يستعملون الأشنان لتنظيف الأيدي ممّــا علــق بها من الطّعام، وإذا انحدر الرجل يدفع دانقا(598) وهناك باعة للباقلاء، والمرق والخبّازين (599) .

ومن المهن الشائعة في بغداد أيضا، مهنة الوراقة حرفة التوحيدي، وهي مهنة تقــوم علــى نســخ الكتــب، وكــان بــبغداد ســوق خــاص للورّاقيــن (600). وظهــر في بغداد جملة من المهن ارتبطت بالغزل والنسيــج كالنّدافين والقطّانيــن

والخلقانييـــن(601)، وقـــد خوطب أحد الندافين:" لو وضعت يمينَ رِجلَيْكَ على حِراء ويُسْـــراها على بئرِ زمْزَم، ثمَّ تناولتَ قَوْسَ قُزح فَنَدَفْتَ ما كُنْتَ إلا كَلْباً(602)· وبهذا الخِطاب نرى أنّ هذه الفئة لم تحظَ بمكانةٍ اجتماعية محترمة.

وكذلك البناؤون والدّلالون الذين يسعون ما بين البائع والمشتري، والحذاؤون والـــنّجارون، وبائعوا الأدوية والبقالون والكنّاسون والسمّاكون(603)، تعدُّ هذه المهن من المهن المعروفة بين النَّاس.

وانتشر في بغداد الانتساب إلى المهنة، ويدلُّ هذا الشئ على التماسك الحرفي والشعور بالكيان لديهم، كالقطان والزيّات والنَّداف(604) وغيرهم .

ويـــبدو أن النظرة السائدة لبعض المهن هي الاحتقار والازدراء، حيث عرف التوحـــيدي الحرفة بأنها "حركةٌ يَتَعَاطَاها الإنسان بلا حَفْزٍ ولا استِكْرَاه "، وقد جعل الصـــناعة أقـــرب إلى الذُّلِ والضّعَة (605) وأشار في كتابه "البصائر والذخائر" إلى أصـــناف الـــنّاس، وهـــم من وجهة نظره على ثلاث طبقات، طبقة رجال السياسة وطائفة العلماء والدّين والأخيرة هم الذين يكدرون الماء ويغلون السعر(606)، ويقصد بهم التّجار وأصحاب الحرف الذين جعلهم في أدنى الطبقات الاجتماعية.

أمّـــا إخوان الصفا الذين وقف التوحيدي منهم موقفا سلبياً فكانوا أوّل من قدّر الصنّاع، ونادوا بضرورة تعلُّم الصنائع لفائدتها للمجتمع (607).

وتعـــدُّ مهـــنة الحياكة من الأعمال المزرية وقيل فيها الكثير من الأقوال التي تصـــفهم بـــالأرذال، حيث قال الجاحظ فيها: "والحاكة أقل وأسقط من أن يقال لهـــم حمقـــى" (608)، وجـــاء فـــي كـــتاب الخطيـــب البغدادي "لا تستشيروا الحاكـــة ولا المعلميـــن(609)"، أما التوحيدي فإنَّ موقفه من الحاكة لا يختلف عن موقفي الجاحظ والخطيـــب الـــبغدادي فـــذكـــر إن "أولاد درزه وهـــــم الخيـــاطون ،أرذال النَّاس وسفلتهم" (610).

وقـــد كـــان لكـــلّ أهل صناعة حيّ مشترك، أو محلَّة خاصة بهم لها رئيسها وشـــيخها، ويشـــير التوحـــيدي إلى أنّ من واجبات شيخ المحلّة تَفَقُّد محلته، وتوزيع المعونات التي تقدّمُها الدّولة لفقرائها، وأن الحكومة تستعين به لمعرفة أخبار محلّته،

وكانـــت كـــل محلّـــة تتعصـــب لمحلّتها ضد المَحَال الأُخرى، فالتعصب لديهم سنّةً مُـــتَعَارفٌ علـــيّها (611).وكـــان كلّ أصحاب حرفة يتعصبون لحرفتهم ضد الحرف الأخـــرى، وكانوا يتجمّعون في دُكّانٍ معينٍ لقضاءِ الأوقات والحديث بأمور السياسة قال التوحيدي:" إنّ طائفة من النّاس سواء من الأغنياء أو الفقراء كانوا يجتمعون في دكان تبّان ليتبادلوا الحديث بأمر السلطة والخليفة" (612) .

3.3 مستوى المعيشة.

تراوحـــت الأحوال المعاشية في المجتمع البغدادي بين الغنى المترف والفقر المدقع، فالطبقة الفقيرة كانت ترضخ لوضعها البائس وتنظر إلى الطبقة الغنية نظرة مشوبة بالخيال، ويبدو أنّ السبب في ذلك هو أن الثروة لم تكنْ موّزعة توزيعاً عادلاً ولا متقارباً، فالفرق بين الطبقتين كان واضحاً، فهناك نعيم مفرط وفقر مدقع وإمعان فـــي التّرف والبذخ يقابله انعدام القوت والجزع، فالنّعيم خصّ به فئةٌ قليلة من النّاس كالخلفاء والوزراء ومن يلوذ بهم من التّجار الأغنياء، أما الفقرُ فخصّ به أكثر الناس حـــتى أن الأغنياء كانوا معرضين لفقدان أموالهم في أي لحظة، وذلك عندما يغضب السلطان عليهم فيصادر أموالهم وتصبح حـــالهم أشد بؤساً من الفقراء أنفسهم (613).

مـــن الطبيعي أن تختلف الأحوال الاقتصادية والمعاشيّة بالذات من فترة إلى فـــترة أخـــرى، ومن عهد لآخر، فكانت تتحسن مع استتباب الأمن وجود الطبيـــعة وخصـــبهـــا، وتـــتردى مـــع الفتن والحروب والشغب وقحط الطبيعة(614)، وحدوث الكوارث الطبيعية كالزلازل والفيضانات، والتي غالباً ما يُعقب هذه النوازل غلاء في الأســـعار، وانعـــدام القـــوت والخبز حتى أن الناس أكلوا الحشيش والجيف والميتة، وكانت الدّابة إذا راثت اجتمع على الروث جماعة من النّاس ففتشوه ولقطوا ما فيـــه من حبِّ الشعيـــر وأكلوه، وبذلك لحق النّاس الكثير من الأمراض (615) .

ومـــن مظاهـــر الـــتّرف التي وصفها لنا التوحيدي، التفنن في بناء القصور والـــدور والتي عجّت بالجواري والحشم والخدم والعبيد والخزائن والذخائر والفضة والذهب والجواهر، واقتناء الملبوسات وأصنافها والمفروشات المتنوعة والمتنزهات وأنواعهـــا(616)، إذ يُرْوَى أن "عضد الدَّولة البويهي " ابتنى قصراً في شيراز بداخله

ثلاثمائـــة وســـتين غرفة، كان يتناوب على الجلوس فيها على مدار السّنة [617]، وقد كانـــت المناســـبات الدّينـــية والاجتماعية مجالاً واسعاً لإظهار مقدار الثروة والجاه والترف كالأعراس والختان وغير ذلك .

لقد تميزت بغداد في هذا القرن بشراسة طبقة الحكام والأثرياء، التي أخذت تتبع أســـاليب عدّة لابتزاز أموال الطّبقة الفقيرة المغلوبة على أمرها، التي أخذت بدورها تدافـــع عـــن نفســـها بـــإعلان الـــرّفض والإنكـــار لهـــذا الوضع بإعلان الثورات والاحـــتجاجات، ولجـــوء بعـــض أشخاصـــها إلى سلوك طرق غير شرعية لتأمين حاجاتهم الماديّة.

وقـــدّم التوحـــيدي وصفاً يوضح فيه حالة العامة الاقتصادية ببغداد من جراء دورات ارتفـــاع الأســـعار قائلاً فيها: إنّها تعاني من "العيش النكد، والشؤم الشامل، والـــبلاء المحـــيط، والغـــلاء المتصل، والدّرهم العزيز، والكسب الدّنس، والخوف الغالب... "[618]، ويبدو أن المتسبب بحركة موجات الغلاء التي داهمت بغداد في تلك الحقبة الزمنية هو احتكار بعض الوزراء للمواد التموينية لصالحهم، فقد قيل إنّ أحد الوزراء ضمِنَ خراج العراق وأصفهان وخوزستان واحتكر حبوبها، ومنع حملها إلى بغداد بالاتفاق مع الخليفة، الأمر الذي دفع العامة إلى الثورة، ومنعت صلاة الجمعة، وكانـــت النتيجة سقوط هذا الوزير وانتهاء وزارته [619]، وفي سنة 324هـــ شغبت العامة لغلاء السعر في مسجد الرُصافة ودخل الجند في طلبهم فصعدوا إلى السطوح ورمـــوا الفرسان بالحجارة حتى هربوا و استمررت الحرب بين الجند والعامة حتى أمـــر الوزير بإجراء الإصلاحات رفقاً بهم [620]، وتحدّث التوحيدي عن ثورة أخرى بـــباب الطِـــاق، عندما ظهر الوزير "صاحوا وضجوا وذكروا غلاء القوت، وعوز الطعام، وتعذر الكسب، وغلبة الفقر، وتهتك صاحب العيال "، فما كان من الوزير إلا أن استجاب لطلب التوحيدي وخفّض الأسعار وبيع الخبز ثمانية بدرهم، ويصل ذلك إلـــى الفقراء في كل مَحلّة[621]. وهذه صورة تكاد تكون تقريبية للوضع الاقتصادي فـــي النصـــف الأخير من القرن الرابع الهجري في بغداد، وتوَّضح أثر الغلاء فيها الذي أدّى إلى اضطراب العامة وهياجها في بعض الأحيان.

وقــد قــام بعــض الموســرين من حكّام وتجار وأثرياء وأصحاب إقطاعات وضــياع بمحاولات فردية للحدّ من نمو حالة الفقر والعوز وذلك بتقديمات نقدية أو ثياب أو طعام، يروي التوحيدي: أن حماد بن أبي سليمان "كان يفطّر في كل ليلة من رمضــان خمســين إنسانا، ويوزّع على كل منهم يوم الفطر ثوبا ومائة درهم" [622] والوزيــر ابــن الفرات يجري علــى مجموعة من النّساء دقيق ودراهم فــي كــل شــهر[623]، والوزيــر حامد بن العباس كان ينصب الموائد في داره كلّ يوم لإطعام العامــة مــن اللحوم وحملها إلى بيوتهم حتى كثر الوقوف على بابه[624] .وقد كانت المناســبات الدّينية والاجتماعية مجالاً رحباً لتوزيع الأطعمة والحلويات والنّقود على الفقراء والمحتاجين ببغداد.

بــيد أنّ هــذه المحاولات الفردية الجزئية لم تستطعْ أن تحلَّ مشكلة الفقر في أوســاط العامــة فــي عصر بــاتت فيه موجــات القحط وازدياد الأسعــار أحداثاً مســتمرة، ممــا دفع بعضاً من الفقراء إلى ردّات فعل مختلفة، تختلف بحسب طبيعة الإنســان ومــزاجــه، فمــنهم مــن اتّجــه إلى طرق الكسب المشروعــة وغيــر المشــروعة، ومــنهم من لجأ إلى الزُّهد، أو إلى التسول أو إلى اللُّصوصية والتَّمرد على هذا الواقع المرير .

وممــا سبق نجد أن العامة تعاني من انخفاض حاد في المستوى المعيشي وقد صــوّر التوحــيدي هذا المستوى في أكثر من موضع[625]. فكثيراً ما نجده يقابل بين الفقر والغنى، حتى أنه عانى من هذا الواقع المرير فقال عن نفسه "لما رأيت شبابي هرماً بالفقر وفقري غني بالقناعة، وقناعتي عجزاً عن التحصيل، عدلت إلى الزمان أطلــب إلــيه مكانــي فيه، وموضعي منه"[626]وقد عانــى من شظف في العيــش وعَجَــف المال، وسوء الحال.

ووجه رسالة إلى صديقه أبي الوفاء المهندس يطلب منه أن يخلصه من الفقر قائلاً فيها: "خلصني أيها الرجل من التكفف، وانقذني من لبس الفقر، أطلقني من قيد الضــر، اشــترني بالإحسان، اعتبدني بالشكر، واســتعمل لسانــي بفنــون المدح،

اكفنـــي مؤونة الغداء والعشاء "[627].ويصف حالة أحد علماء عصره وهو ابن يعيش قائلاً فيه: إنه "شديد الفقر، ظاهر الخصاصة، لاصق بالدَّقْعاء"[628].

ويستشـــف مـــن كـــتابات التوحيدي أن بعضاً من الشعراء والأدباء والعلماء طـــرقوا بأدبهم وشعرهم وعلمهم أبواب الخلفاء ومن شاكلهم للحصول على الدراهم وما يسدون حاجتهم المعيشية[629]، وأضاف التوحيدي أنّ بعض العلماء مارسوا مهنة التّجارة إضافة إلى سلوكهم طريق العلم والمعرفة، وذلك لنيل الربح الوفير والغنـــى والجـــاه[630]، ومـــن هنا نرى أنَّ بعض أدباء بغداد في القرن الرابع ابتعدوا عن المثالـــية، وحصرت رسالتهم بالفوز بالمجد والشهرة والثروة، وتلوّنوا بلون التسول والتّضـــرع والاستعطاف والتكالب على هذه الدّنيا ونعيمها الزائف وشرورها، حتى وجدنـــا التوحـــيدي يخاطب أبا الوفاء المهندس بهذه الكلمات التي تدل على معاني الشـــفقة والاستعطاف قائلاً: "أنا سامع مطيع، وخادم شكور، لا أشتري سخطك بكل صـــفراء وبيضاء في الدُّنيا... ومثلي يهفو ويجمع، ومثلك يعفو ويصفح، وأنت مولىً وأنـــا عـــبد، وأنـــت آمر وأنا مؤتمر[631]"، فكان الدافع الذي دفعه إلى قول عبارات التضرع هذه حاجته الماسة للمال ورغبته في التخلص من قسوة الحياة .

وكثـــيراً مـــا نرى التوحيدي يشير إلى حاله العامّة الاقتصادية، وإلى حالات الغـــلاء التـــي تجتاح بغداد بين الفينة والأخرى والتي عدّ سببها في نظره هو كثرة ســـكان بغـــداد قائلاً "سأل رجل آخر: أتدري لِمَ غلا السعر ببغداد قال: لأن كل بلد خبزه أكثر من أهله وبغداد أهله أكثر من خبزه "[632]

في حين أن الفئة العليا تتفنن في ضروب العيش ووسائل التسلية واللهو، ولم تأبـــه بالفئة الدُّنيا البائسة بل على العكس فقد نظرت إليها بإزدراء ، وقدّم التوحيدي صـــوراً مختلفة تنبئ عن ترف هذه الفئة ومدى النَّعيم والبذخ الذي تغرق فيـــه، فهي تنعم بلذة الطَّعام الفاخر، والشراب البارد، وتتعاطى الكأس، وتديم الضحك، وترتدي لين الثـــياب وأجودها، وتعقد مجـــالس اللهو والشراب والمغنى[633].ويذكر أيضاً أن الوزير الذي يسامره ويجالسه كان يملك "الدرهم والدينار، والذهب والفضة، والثياب العزيزة [634]

وأشارت المصادر إلى أن الخليفة المقتدر كان يهوى مجالس الشراب والغناء واحـــتواء الجـــواري،(635) وكان مبذراً للمال، فدفعه تبذيره إلى استنزاف بيت مال الخليفة الخاص ومصادرة وزرائه. ونرى التوحيدي يقدّم فكرة واضحة لِما كان عليه أمراء بغداد في تلك الحقبة الزمنية من إهمال للمصالح العامة والعكوف على الملذات والشهوات، فهذا الأمير البويهي عز الدَّولة غادر مقر الخلافة بغداد إلى الكوفة لينعم بلذتي الصيد والغناء وما يتبعهما من ملذات المأكل والمشرب(636) كما سبق تقديمه.

ويعطي التوحـــيدي صورة تفصح عن الأوضاع الاقتصادية السائدة في بغداد قائـــلاً على لسان العامة: "ضيـــاعنا مقطَّعة، ونعمنا مسلوبة، ونقدنا زائف، وخراجنا مضاعف، ومساجدنا خربة، ووقوفها منتهبة، ومارستاناتنا خاوية". (637)

ويـــنقم التوحيدي على الفقر في أكثر من موضع ويقول "نعـــوذ بالله من الفقر خاصة إذا لم يكن لصاحبه عياذ من التقوى، ولا عماد من الصبر."(638)

و"محـــا الله الفقـــر فإنه جالب الطمع والطبع." (639) ويقول على لسان أبي سلمان المنطقـــي: "إن الإنسان بعقله يصبر على الفقر، وبالعقل يمكن أن يجلب الغنى ويبلغ الغايـــة والسعادة"، ويذكر أيضاً "أن الفقر سالب للعقل والمروءة، مذهبة للعلم والأدب مَعْدَنٌ للتهم، جامعٌ للمكاره" (640).

4.3 مظاهر الاضطراب الاقتصادي :

الزُّهد والتّصوف

لا شك في أن كثيرين من النّاس عندما عجزوا عن نيل ما يريدون من ملذات الدّنـــيا لجـــئوا إلى التّصوف والزُّهد، وعلَّمُوا أنفسهم الزُّهد والورع، فكثر التّصوف والـــزُّهد جرياً على قـــولهم: "إذا لم يكن ما تريـــد، فأرد مـــا يكـــون"(641). وبهذا يـــتفرغون لممارســـة الشـــعائر الدِّينـــية والعبادة وحدها منقطعين عن ملَذَّات الدُّنيّا وأهوائها.

ونجد كثيرا من الزهّاد قد فضلوا الفقر على الغنى إيماناً منهم بأنَّ الفقر شعار الصالحين والصبر عليه يعدل الجهاد في سبيل الله. (642) ويعقد المكي في كتابه "قوت القلوب " فصلاً كاملاً في الزُّهد، وعدّ طلب الفقر أحد أركان الزُّهد قائلاً في تفضيل

الفقــر: إنَّ الأغنــياء من أهل النَّار في حين أن الفقراء من أهل الجَنة، وذكر أيضاً "يدخــل فقراء المؤمنين الجنّة قبل الأغنياء بخمسمائة عام"(643)، ونلمح التوحيدي في مواضــيع كثــيرة يشير إلى الزُهد في الدُنيا ويحذِّرُ من آفاتها وشرورها، ونرى هذا الــتحذير فــي كتابه "الإشارات الإلهية" في أكثر من موطن يقول: "أُزهدك في هذه الزِّينة الخادعة التي ما حمدها مؤثرها، ولا نعم الواصل إليها، ولا نجا من كربها من لاذ بظلها ودخل تحت كُلِّها " ويقول أيضاً (644):

يا ساكنَ الدُنيا أَلَمْ تَرَ زَهْرَةَ ال　　دُنيا على الأَيَّام كيفَ تصيرُ ؟
نَلْ ما بدا لك أن تنال من الغنى　　إنْ أنتَ لم تقنَعْ فأنتَ فقيــرُ
يا جامعَ المالِ الكثيــرِ لغيــره　　إنَّ الصغيرَ من العيوبِ كبيرُ

وقال في موضع آخر:(645)

إني رأيتُ عواقبَ الدُنيا　　فتركتُ ما أهوى لما أخشــى
فكَّرت في الدُنيا وجَدَتُها　　فإذا جميــعُ جــديدها يَبلــى
وبلوتُ أكثر أهلها فــإذا　　كلّ أمرىءٍ فــي شأنه يسعى
ولقد نظرتُ فلم أجد خُلُقاً　　أعلــى بصاحبه من التقوى

فالتقوى في نظره أعلى الأخلاق وإنّ ما عداها باطل وزائف.

ولاحــظ التوحــيدي أن أحــدَ المتصوفة تمنى أن يكون حيواناً هو"أخس من الإنسان عند الإنسان "وذلك ليتخلص من عوارض الدّنيا، وكلف الحياة ونكدها(646) .

وزعم بعض الصوفية أن الفقر في الجملة أفضل من الغنى في الجملة ويقول الشاعر(647) :

إنَّ الغِنَــى للنَّفْسِ يــا هــذهِ　　ليسَ الغنى في الثَّوبِ والدِّرهمِ

والتَّصوف لا يعني لبس الخشن والجوع وترك التكالب على الدنيا وشهواتها، بل إنــه يعنــي صفاء المعاملة مع الله، وأصله العزوف عن الدُنيا وأن ينظر إليها نظر المفارق، لا نظر الراغب فيها (648). والزُهد يعني منع النَّفس عن محبوب الشهوات وبذلك يجد راحة للقلب وللبدن معاً (649).

الفقر:

ويعـــدُّ الفقر الصفة الأساسية الملاصقة لعامّة الشعب، وشكّل ظاهرة شائعة ومســـتمرة، وترك لنا التوحيدي أحاديث كثيرة عن حال الفقراء الذين كان التَّوحيدي واحد منهم ممّا اضطَره إلى أكل الخضر في الصحراء، وذكر أن صديقه أبا سليمان المنطقي كان يعاني من شدة العوز على علمه ومعرفته وفضله، وكذلك الفيلسوف أبو بكـــر القومســـي عـــانى من الضر والفاقة وكابد الشدة والضيق، حتى لبس الأطمار البالية(650) .

ويصـــف التنوخـــي العامـــة في هذا القرن في بغداد بأنها وصلت من الشدة والضـــيق حـــتى استحبوا البخل، ومُنِعَ الإحسان والتَّصدق (651) ، وكان من مظاهر الفقر التي قدّمها التوحيدي أن رجلاً أراد بيع جُبَتُه فلم تطلبْ بشيء، فقال الرجل: "ما علمـــت أنـــي عريان إلاّ السّاعة" (652) ويذكر قصة أخرى وهي أن رجلا قتل نفسه شنقاً لضيق الحياة به، واشتداد نفور النّاس منه (653) .

وقـــد كـــان للأزمات الاقتصادية والسياسية أثر بالغ في حياة النَّاس إذ بالغت المصـــادر التاريخـــية فـــي الحديث عن هذا الأثر، فقد أكل الناس الحشيش، وكثر الموتـــى حتى كان يدفن جماعة بقبر واحد. وقد بيع كر الحنطة بستة آلاف وستمائة درهـــم، وبـــيع رطـــل الخبز بأربعين درهماً (654)، وفي سنة 400هـــ ونيف أصبح الخبز عملة يتعاملون فيها بالأسواق بدلاً من الدّرهم(655).

اللّصوصية:

وهـــم فـــئات اجتماعية فقيرة تمرّدت على واقعها المرير بالسطو على بيوت الأغنـــياء وأخـــذ ما لديها من أموال وما شاكلها، ومن أهم الأسباب التي دفعتهم إلى ســـلوك هـــذا المسلك هو العطل عن العمل فـــي مرافـــق الدّولة أو في أيّ مجـــال آخـــر، فالتنوخي يذكر على لسان أحد لصوص الكرخ أنه حاول الدُّخول إلى الجندية فلمـــا رفـــض لجـــأ إلى اللصوصية قائلاً :"ولو كان السلطان أنصفني ونزلني بحيث أستحق من الشجاعة وانتفع مني، ما كنت أفعل هذا بنفسي" (656) وقدّم الجاحظ فقرة علـــى لسان أحد أبطال بخلائه يعبر عن عدم خشيته الفقر، وذلك لأنه سيتبع أساليب

وحيل متنوعة في الحصول على المال قائلاً: "خرجت قاطع طريق، أو صرت للقوم عيناً لهم ....، سل عني صعاليك الجبل ..." (657).

ويخـــبرنا التوحيدي عن دور الاضطرابات السياسية والاجتماعية في تنشيط اللصوصـــية قـــائلاً: "إن أسود الزبد كان عبداً يأوي إلى قنطرة الزبد، ويلتقط النوى ويســـتطعم مـــن حَضَرَ ذلك المكان... فلما حلت النفرة، ووقعت الفتنة، وفشا الهرج والمـــرج، ورأى الأســـود مـــن هو أضعف منه قد أخذ السيف وعمله، طلب سيـــفاً وشحذه ، ونهب وأغار وسلب، وظهر منه شيطاناً في مسك إنسان".(658)

وقـــد كانت غارات اللصوص تنشط في وقت الفوضى والاضطراب وتسكن في عهد القوة ويتراجع دورهم. ففي سنة 358هـــ اغتنم اللصوص فترة اضطرابات مذهبية داخل بغداد فاختطف أحد رجال الدِّين وهو يحمل فوق الألف درهم أخذها من أحـــد الصيارفة، ثم فُقِدَ فوجد الشيخ مقتولاً مطروحاً بالصراة بسراويله وخاتمه على إصبعه بعد أربعة أيام من فقده(659).

وأفـــاض التوحيدي بالحديث عن هذه الفئة وعن حيلها وأساليبها اللصوصية، ومـــن القصـــص التـــي رواها أن رجـــلاً سرق درّة رائـــعة وباعها ببغداد بمـــال جلـــيـــل، فعرفها أصحاب الجوهر، وكان قد تقدّم صاحب الجوهرة إليهم في البحث عـــنها، فحملـــوا الرجل السارق إلى صاحبها فلما بصر به عرفه فاستحيا منه فقال للسارق: "ألم تكُ طلبت هذه الجوهرة فوهبتها لك ؟ قال بلى أصلح الله الأمير فقال لا تتعرضوا له فباعها الرُّجل بمال عظيم" (660).

وأخبرنا عن بعض حيل اللصوص منها: أن لصاً دخل داراً فسرق منها طستاً وعـــندما رأى على باب الدار نفراً، فالتفت إلى الدّار فقال: "إن لم يشتر بسبعة أبيعه بسته؟ فهو يوهم أنه دفع إليه يبيعه". (661)

ونـــرى أن اللصوص وقطاع الطرق قد شكلوا عصابات منظّمة لها خطورتها وقوتهـــا، ولهـــا أهدافهـــا ومبادئها وحيلها التي تتبعها في سطوها وحياتها المعاشية، وأنهـــم يجـــتمعون تحت إمرة شيخ لهم يشرف على أعمالهم الشريرة، ويوزع المهام فيما بينهم.

التّسول"الكدية":

تعـدُّ الكديـة ظاهرة اجتماعية متميزة في بغداد، وتفننت هذه الفئة في طرق استـجداء الـنّاس، وأفرد الجاحظ في كتابه "البخلاء" صفحات للحديث عن ميزاتهم وحيلهم كادعاء المرض من ورم وعمى وخرس وجنون، أو اتخاذ الصبية للاستجداء بهم ،أو توزيع الرُّقى على النَّاس(662).

ونتـيجة للأوضاع السياسية والاقتصادية السائدة آنذاك في بغداد وما فيها من اضطراب وسوء وانهيار، انصرفت فئات اجتماعية كثيرة إلى امتهان الكُدية والتسول علـى الأبـواب؛ لأنها أصبحت خاوية الوفاض لا تملك ما يسدُّ الرمق، وأضحى همُّ الفرد الواحد الحصول على ما يقتات به مهما كان مصدره.(663)

وقـد استغل بعض المكدين الوازع الدِّيني عند أفراد المجتمع البغدادي والذي بـرز في أدبهم الذي عبّر عن حياتهم وفي طريقة استجدائهم، وبعضهم احترف هذه المهنة لأنها مريحة ولا يوجد فيها مشقة أو عناء في الحصول على المال ولا تحتاج إلى رأسمال.(664)

ووضـع المكـدي ابو دلف الخزرجي وهو معاصر للتوحيدي قصيدة تدعى بالقصيدة الساسانية، وقد ذكر فيها أصناف المكدين وحيلهم، ويفتخر فيها بطوافه هو وأقرانه بين البلدان والأمصار قائلاً(665) :

فنحن النّاس كـلُّ النَّا   س في البّر وفي البحـر
أخـذنا جزية الخـلق   من الصين إلـى مصـر
إلـى طنجة بل فـي   كل أرض خيلنا تسـري
لنا الدُّنيا بمـا فيهـا   مـن الإسـلام والـكُفر

ونرى أن المكدين كانوا حريصين على الظهور بمظهر الفاقة والعوز، فيظهر بمظهـر المـريض، أو مدعي المرض، ويلبس ثياباً بالية، ويسعى في الأرض ترب القدميـن، وبهـذا المظهـر يستدرج العطف والشفقة، وقد وصف لنا التوحيدي حالة مكدي يخرج باكراً وهو يرتدي ثيابه المهلهلة ويحمل أدوات سعيه قائل(666):

لقد غدوتُ خَلَقَ الثِّيابِ   معلَّق الزنـبيلِ والجـرابِ

طبّاً بدقٍّ حَلَق الأبوابِ أُسْمِعُ ذاتَ الخِدْرِ والحِجابِ

وكـــان بعض المكديين يطرقون البيوت ويسألونهم حاجتهم من المال والطّعام والثـــياب، وقـــد رســـم لـــنا التوحيدي هذا الموقف في غير ما مرة، ونقل طرفاً من أحاديثهم مثل: "أطعموني من فضل ما رزقكم الله تعالى." (667)

ومنهم من يقصد المساجد ويقف على أبوابها أو يدخلها فيستجدي المصلين ، ومن أمـــثلة ذلك أن سائلاً وقف في مسجد فأمر له إنسان برغيفين صغيرين فلم يأخذْهُما ومضـــى فجاء برغيف كبيرٍ حَسَنٍ وقال: يا باهلة، استفحلوا(استخلفوا) هذا الرغيف لخـــبزكم فلعلكـــم أن تُنْجِـبُوا مـــثله.(668) " وهـــذه القصة تدل أيضاً على نوادرهم واســـتهتارهم بالنّاس. وكما أن بعضهم اتّخذ من المسجد مأوى له فيعبث به وبنظافته وصوّر هذا الموقف أبو دلف الخزرجي قائلاً(669):

ومنا كل ذي سمت خشوع القن كالحبر

يـــرقى وتـــراه با كيـــا، دمعته تجري

فإن كبت في السر فبالمذاقان يستـــدري

وكذلك اتخذ المكدون من شعر المديح وسيلة للكسب، فيمدحون الخليفة أو الوزير أو القاضـــي، وصوّر التوحيدي هذا الموقف على لسان أحد المكدين الذي أمتدح أحد القضاة قائلاً(670):

يا قاضِيَ البَصْرَةِ ذا الوَجْهِ الأغرْ إليكَ أشكو ما مَضَى وما غَبَـــرْ

عَفَـــا زمانُ وشِتاءُ قـــد حضَـــرْ إن أبا عمرةً(671) في بيتي انجَحَرْ

يَضْرِب بالـــدّفّ وإنْ شاءَ زَمَـــرْ فـــاطرده عنـــي بدقيـــق يُنْتَظَـــرْ

والأبـــيات في ظاهرها المدح ولكنها في باطنها الاستجداء، والدليل على ذلك أنّ القاضي أجابه بما سأل.

ويقدّم التوحيدي صورة أخرى توّضح طرق استجدائهم وهي التعرض لقوافل الحجاج الذين يقصدون البيت الحرام(672)، ويستغلون الوازع الدّيني في هذه الفرصة بطلب المال وما يشاكله.

وأشــار التوحــيدي بــأن الشــعراء والأدبــاء الذيــن يصــَنعون قصــائد المــدح، فقصــائدهم لــم تكــن عن وازع عاطفي أو نفسي، بل ليتكسب بها عطف الممدوح (673) .

ونجــد أن بعض المكدين انصبغوا بصبغة الأدب، واستغلوا هذه السِّمة للتَّعبير عن حالهم ووضعهم البائس وكسب شفقة النَّاس وعطفهم عليهم، وكما أن بعضهم يلح بالسؤال ولا يكل حتى يحصل على ما يريد(674).

وهكــذا نجد أن هذه الفئة تحاول التُّخلص من حياة الفقر بالتنقل والتَّرحال في مختلف البلدان طلباً عطف النَّاس وشفقتهم واستجدائهم بشتى أساليب الحيل، والظهور بمظهر الفاقة والعوز، أو التَّظاهر بالمرض وسوء الحال .

التطفيل :

شــكل الطفيلــيون ظاهــرة اجتماعية شاعت ببغداد في تلك الحقبة الزمنية، وتوقف عندها التوحيدي كثيراً، ونقل إلينا بعضاً من حيلهم وأحاديثهم.

ويقصــد بالطفيلي الشخص الذي يأتي الولائم من غير أن يدعى، فقيل طفيل العرائس، وكلمة طفيل مأخوذة من الطفلة؛ لأن الفقير من العرب يحضر الطّعام الذي لــم يــدع إليه مستتراً بالظلمة لئلا يعرف، وسمي بذلك لإظلام أمره على النّاس لا يدرون من دعاه(675).

وتــرك لنا الأزدي في حكايته التي تنسب للتوحيدي وصفاً لطفيلي قائلا: "كلَّ يــومٍ يَدُورُ في عَرضةِ للمصِّ، يَشمُّ القدورَ شمَّ الذُّبابِ، وإذا ما استَبَانَ آثار عُرْسٍ أو خِــتَانٍ مطمعاً في اختلاب لم يروّع من الدُّخول، ولم يَرْهبُ على الباب لَكْزَةَ البّواب، ذاك أشــهى من التَّكلف والغرم وغيظ البقّال والقصّاب، يرى ركوب البريد في طلب الــثَّريد، يجــوبَ جنوبَ البلادِ حتى يقع على حفنة الجواد، قد نظر لنفسه يهجمُ على دورِ الأكابر ويجعلُ غرضهُ الغضاير(676) .

ويبدو أن هذه الفئة شكلّت فرقة اجتماعيّة انتشرت في أرجاء بغداد لها شيخها ورئيســها، ويشير التوحيدي إلى أن رئيس الطفيلين وضع دعاءً لقنه لهم قائلاً:" اللهمَّ

لا تجعل البواب لكازاً في الصدور، دفَّاعاً في الظهور طرَّاحاً للقلانس هبْ لنا رأفته ورحمته ويُسْره، وسهّلْ علينا إذنه "(677).

ومن أصول مهنتهم التي جاءت على شكل نصائح، أن لا يلتفت أحدهم يميناً أو شـمالاً، وأن يـنظر في وجوه أهل المرأة والرجل لكي يظنُّ كل منهما أنهم من هـؤلاء، وأن يسـتعمل الـرفق واللِّين في الحديث مع البوّاب، وأن لا يتحدث على المـائدة وإذا تحـدث فـلا يـزد فـي الجواب على نعم ؛" فإنـك تكون بها مؤنساً لصاحبـك، ومسبقاً للقمتك، ومقبلاً على شأنك ".(678)

ورسم التوحيدي صوراً لبعض حيل المتطفلين التي يسلكونها في الدُخول إلى المـنازل التـي تقام فيها الولائم ومنها:" أن طفيلياً منع من الدُّخول إلى عرس فأخذ إحـدى نعليه في كمه وعلّق الأخرى في يده وأخذ خلالاً وجعل يتخلل ودنا من الباب فمـنع من الدّخول فقال للبوّاب: يا هذا قد أكلت، فقال البوّاب:إنما منعتك من الغداء، فإذ تغديت فادخل فدخل وأكل" (679).

وجـاء طفيلـي آخـر إلـى باب عرس فمنع من الدخول فرهن نعليه على سُكْرجات عند البقال، وعاد إلى الباب فدخل وجعل بسكرجات في كمه ثم قعد وأكل، فلما فرغ منها ردَّهما على البقال قائلاً:" ليس يرضونها، يريدون شامية جيدة "(680)

وبعضـهم كان يأخذ قرطاساً ويطويه ويختمه ولم يكتب فيه شيئاً ويعنونَه من والـد العـروس إليها، ثم يأتي به إلى البوّاب كدليل على دعوته، فيقول له البوّاب: "كأنه كتب السّاعة فيجيبه: نعم ومن العجب للعجلة أنه لم يكتب فيه شيء فاستملحوه، وأخذوه فأدخلوه".(681)

ومـن أحاديثهم التي زخر بها كتاب البصائر والذخائر، أن طفيلياً عدّ لذته في هـذه الحـياة أن تكون" مائدة منصوبة ذات نفقة غير محسوبة، عند رجل لا يضيق صـدره من البلع، ولا تجيش نفسه من الجزْع ".(682) وآخر يقول:" إنّ المنازل بنيت لتدخل والموائد وضعت لتؤكل، وما لي لا أدخل، وأقعد مستأنساً، وأبسط وجهي، إذا كان ربُّ البيت عابساً.(683)

وقــد حكى بعضهم إنه يحفظ من القرآن آية، ومن الحديث خَبَراً واحداً، ومن الشــعر بيتاً واحداً فالآية هي (ءاتنا غداءنا)[684] أما الحديث فهو (إن التّمكُن على المائدة خير من زيادة لونين) وأما الشعر فقوله[685] :

نزوركم لنكافئكم بجفوتكم   إنَّ المحبَّ إذا لم يستزر زارا

وممــا يحملــنا على الاعتقاد أن الدافع إلى تصرفهم هذا هو إيجاد مخرج من حالــة الضيق المعيشي الذي كانوا يعانون منه، مستخدمين ظرفهم أحيانا وحيلهم في الحصول على ما يريدون أحيانا أخرى .

ونــرى أن الاضــطرابات السياسية والاقتصادية أثّرت على العامة في بغداد تأثــيراً كبيراً ممّا دفعها إلى هذه السبل من أجل الحصول على ما يسدُّ رمقها ويكفي عيشها، وبهذا تتغلب على ضنك العيش ومؤنة هذه الحياة القاسية المريرة، وقد توقف التوحيدي عند هذه المظاهر؛ لأنه عانى ما تعاني منه العامة، لكن الطريق الذي سلكه كــان مغايراً لهم، فقد سلك سبيل الزّهد والتصوف في هذه الحياة بعد ما رأى تعنتها عليه، وعدم استجابتها لرغباته وأهدافه في آخر أيامه.

الفصل الرابع

الحركة العلمية

عـــاشَ التوحـــيدي معظم حياته في بغداد، وعبّر عن ثقافتها المتنوعة وفكرها الـــبديع، وقدَّمَ لها صورةً تنبئُ عن مدى تنوع العلوم والمعارف التي احتوتها بعد أن تمازجـــت ثقافـــتها مـــع الثقافات الأخرى، وطبعتها بطابَعِها، فمن خلال حديثه عن مشـــاهير العلـــم والأدب في بغداد يُبرز لنا مدى التقدُّم العلمي والثقافي الذي وصلت إليه آنذاك.

1.4 مظاهر النضج العلمي والثقافي في بغداد

وقـــد أشار إلى بعض مظاهر النّضج العلمي والثقافي في بغداد، التي يمكن أن نستشـــفها من خلال ما قدّم لنا من أفكارٍ وصور تفصح عن هذا النضج، ومن أهمها الجلسات أو الحلقات العلميّة والأدبيّة التي تعقد في قصور الخلفاء والحكّام والوزراء وأغنـــياء الدّولة[686]، ومجالس العلماء، التي نقلها إلينا على صفحات كتابيه "البصائر والذخائـــر" و"المقابسات"، والكتاب الأخير يكشف لنا عن عدد هؤلاء العلماء وفكْرِهم ومعايير ثقافاتهم وقدرتهم على التحليل والمناقشة وإبداء الرأي.

ومما يجدر ذكره أن هذه المجالس تضمُّ المسلِم وغير المسلِم، وهذا يدلُّ على التسامح الدِّيني السائد في بغداد وقتذاك[687] .

وقـــد أصبح علماء بغداد وأدباؤها قادرين على الإبداع والعطاء والتأليف في أكـــثر من ميدان من ميادين المعرفة، وبهذا قد تجاوزوا مرحلة النّقل ممن سبقهم من الأمـــم[688]، وأن بعض الأدباء والعلماء لجأوا إلى حركة التأليف بناء على طلب أحد رجالات الدّولة أو أغنيائها، بعد أن أغدقت هذه الفئة على الفئات الممتازة من العلماء كثـــيراً مـــن الأمـــوال، ففي هذه الفترة ألفت المعاجم اللُغويّة، وكتب الطب والنُّجوم والفلسفة[689] وغير ذلك، ونلمح هذه الظاهرة من خلال مؤلفات التّوحيدي نفسه الذي ألّفَ كتابه "الإمتاع والمؤانسة" بناءً على طلب أبي الوفاء المهندس[690]، آملا منه أن يخلصه من حالة الفقر التي يحياها، كذلك كتابه "الصداقة والصديق" الذي بيّضه وألفه بـــناءً على طلب الوزير ابن سعدان قائلا: "كان سبب إنشاء هذه الرسالة في الصداقة

والصـــديق، إنّـــي ذكرتُ شيئاً منّها لزيد بن رِفاعة أبي الخير، فنماهَ إلى ابن سعدان الوزيـــر أبي عبدالله سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة قبل تحمُّله أعباء الدّولة... فقال لي ابن سعدان: قال زيد عنك كذا وكذا قلت: قد كان ذاك، قال فدوّن هذا الكلام، وصله بصلاته... فجمعتها في هذه الرسالة. (691)"

وكـــان عضـــد الدّولـــة الأمير البويهي في بغداد يحثُّ العلماء على التأليف، ويغمـــرهم بـــالأموال، حـــتى صـــنّفوا له كـــتاب الإيضاح "في البلاغة" وكـــتاب "الحِـــجَّـــة فـــي القـــراءات" (692)، وغـــيره من الوزراء والأمراء والخلفاء الذين يتفاخرون بتقريب العلماء وتأليف الكتب بأسمائهم.

ومـــن مظاهـــر النّضـــج الثقافي ببغداد كثرة المكتبات، والتنافس في إنشائها بالإضـــافة إلـــى مكتبات المساجد الكثيرة(693)، فقد كان رجال الدّولة يهتمون باقتناء الكتـــب الكثيرة وجلبها من أماكن بعيدة مهما كانت أثمانها، وكانوا يتفاخرون بجمعها حتى كان لكل خليفة أو ملك ولع شديد بالكتب(694). فها هو المقدسي يصف لنا خزانة عضـــد الدّولـــة التـــي كانـــت فـــي داره: بأنـــها "حجرة على حِدة عليـــها وكيـــل وخـــازن، ومشرف من عدول البلد، ولم يبق كتاب صُنِّف إلى وقته من أنواع العلوم كلّها إلاّ وحصّلَه فيها، وهي أزج طويل في صفَّة كبيرة، فيه خزائن من كلٍّ وجه وقد ألصـــقت إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتا طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوّق... فالدفاتر منضّدة على الرفوف لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامي الكتب ولا يدخلها إلاّ الوجيه.(695) "

ومـــن أكـــبر المكتـــبات في بغداد مكتبة الحِكمة التي أنشأها الخليفة العباسي هـــارون الرّشـــيد (696)، ولعلها أول مكتبة في العالم الإسلامي، حيث جمعت مختلف المصـــنّفات في العلوم والفنون، ووصلت أوج ازدهارها في عهد المأمون الذي عَمَدَ إلى توسيعها وتطويرها حتى استمر وجودها في بغداد كمتبة عامّة يأتيها طلاّب العلم مـــن كـــلّ مكـــان لينهلوا من موجوداتها ومحتوياتها الثقافيّة والعلميّة، وكانت ملتقى للعلماء، وقاعة للدّارسين، ومركزاً لترّجمة الكتب ونسخها.(697)

وأشار التوحيدي إلى المكتبة الضخمة التي يمتلكها ابن العميد، وكان المؤرخ مسـكويه خازنا ومشرفا على هذه المكتبة(698)، وعندمـا تعرّضت دار بن العميـد للنّهـب سـنة 355هـ كانت خزانة كتبه أول شيء سأل عنه، ويصف لنا مسكويه خوفـه وقلقه على هذه الخزانة الجليلة قائلا:"... واشتغل قلبه بدفاتره، ولم يكنْ شيء أعزّ منّها، وكانت كثيرة، فيـها كلّ علم وكل نوع من أنـواع الحكم والآداب، يحمل علـى مائـة وقر، فلمّا رآني سألني عنها فقلت: هي بحالها لم تمسسها يـد، فسرّ عـنّه، وقـال: أشهد أنك ميمون النقيبة، أمّا سائر الخزائن فيوجد منها عِوض، وهذه الخزانة هي التي لا عِوض منـها، ورأيـته قـد أسفـر وجـهه، وقـال: باكِر بِها غـدا إلى الموضع الفلاني ففعلت، وسلّمت بأجملها من بين جميع ماله(699)." ومن هنا نستنج مدى المكانة البالغة التي نالتها دور الكتب عن غيرها من المقتنيات، فهي عند ابـن العميد لا تعوض، في حين أن الخزائن الأخرى يمكن تعويضها.وأشار إلى أن للصـاحب بـن عبّاد مكتبة جمع فيها أفانين العلوم والمعرفة، وكان نجاح بن سلمة خازنا لها.(700)

ووجد إلى جانب هذه المكتبات منشآت أخرى ساعدت علـى ازدهار الحركة العـلمـية، وهي دور العلم وهذه مؤسسات تخالف دور الكتب، فكانت تهتمُّ بالتعليم والتدريس، إلى جانب احتوائها على مكتبة فيها العديد من المصنفات (701).

ففـي سنة 383هـ أنشئت دار للعلم في الكرخ غربي بغداد ونقلت إليها كتب كثـيرة، وكـان بها مائة نسخة من القرآن بأيدي أحسن النُّساخ، وكان أصحاب هذه المنشآت ينفقون على طلبتها وأساتذتها، فمنها ما يكون خاصاً بتـدريس علم معيّـن، ومنها ما يدرس به أكثر من فن (702).

لا بـدّ مـن الإشـارة إلـى أن معظـم دروس الفـقه كـانت تعطى في المساجـد، والمستمعون فيها يكونون على هيئة حلقة بين يدي المدرّس، وكان جامع المنصـور ببغداد من أشهر مراكز التعليم في البلاد الإسلاميّة، وأنّ كثيراً من طلاب العلـم قـد درسـوا الفقه، لأنه يؤهل أصحابه لتولـي مناصب عُلْيَا في الدَّولة(703). وبهـذا ساهمت هذه المنشآت في انتشار العلم، وسهولة الاتصال مع البلدان الأخرى،

وســـهولة الاطلاع على ثقافتها وإنتاجها الأدبي والعلمي من خلال الكتب التي تجلبُها هذه المؤسسات.

وإلـــى جانب هذه المؤسسات ازدهرت صناعة الورق في بغداد، ممّا أدى إلى انتشار دكاكين الوراقين، وهي الأماكن الخاصة ببيع الكتب والورق وأدوات الكتابة، وتقوم أيضا بنسخ الكتب وعرضها للراغبين فيها، وكان من العلماء من ينسخ الكتب بنفسه، ومن ينسخها لغيره بالأجرة(704).وقد كانت حرفة أغلبية مشاهير علماء بغداد، فهـذا التوحيدي احترف هذه المهنة ولا يعرف مهنة غيرها، ويبدو من حديثه أنَّ هذه المهـنة شـاقة وتذهب بالعمر والبصر، هذا فضلا عن أنها لا تدر سوى القليل من المال، ولذا أطلق عليها حرفة الشؤم (705). وقد كانت هذه المهنة هي السبب الرئيسي فـي تـنوع ثقافته وظهوره على مسرح الحياة كأديب، إذ أتاحت له فرصة الاطلاع على مختلف أنواع العـلوم، والعكوف على قراءتها قراءة فاحصة واعية، فهي التي غذّت شخصيته العلمية والثقافية.

ويعـدُّ أبـو سـعيد السيرافي من الوراقين المشهورين في بغداد فقد كان "لا يـأكل إلاّ مـن كسـب يـده، ولا يخرج من بيته إلى مجلس الحكم، ولا إلى مجلس الـتدريس كل يوم إلاّ بعد أن ينسخ عشر ورقات، يأخذ أجرها عشرة دراهم، تكون قـدر مؤونته، ثمَّ يخرج إلى مجلسه(706)." وكذلك ابن النّديم صاحب كتاب "الفهرست" كـان ورّاقا يبيع الكتب(707). ووصف التوحيدي نسخ أحد الوراقين قائلا: "فإنه رتبّه في النّسخ، وكان قوي الخط ،كثير الصبر على النقل" (708) .

وشـهدت بغداد ازدهار الحركة الفلسفية ، وذكر التوحيدي مجموعة من العلماء الذيـن اشـتهروا بالفلسـفة كأبي سليمان المنطقي الذي كان من أكبر فلاسفة بغداد، ووصـفه التوحيدي بقولـه: "أدق العلماء نظرا، وأقعـرهم غوصا، وأصفاهم فكرا، وأظفرهم بالدرر، وأوقفهم على الغرر... (709)" ونجد التوحيدي كثيرا ما يتحدث عن المسائل الفلسفية في مؤلفاته، بخاصة في كتابه "المقابسات".

وكتـب رسـالة ضمّنها آراءه الفلسفيّة الصوفيّة، وأطلق عليهَا رسالة الحياة، وتحدث فيها عن أنواع الحياة التي يحياها الإنسان وعن أسرارها وملابساتها الدّنيويّة والأخرويّة، وتدرُّج الإنسان نحو الكمال العقلي والنفسي (710) .

وأظهـرت لنا مؤلفاته شخصية التوحيدي المؤلف النّاقد لشتى مجالات الحياة، والمـنكر للأوضاع السائدة في بغداد خاصّة والعصر عامّة، لكنّه كان يركّز في نقده علـى مشاهير العلماء وفق أسس اختارها لنفسه وسار على نهجها كلّما وصف أديبا أو عالمـا، كـنقده لابن العميد والصاحب بن عبّاد، فقد توقف عند أخلاقهما ومن ثمَّ علميهما وأدبهما وبلاغتهما على طول صفحات كتابه"مثالب الوزيرين"(711) ووصف فـي كـتابه "الإمـتاع والمؤانسـة" العديد من الشعراء والعلماء، متخذاً من أخلاقهم وبلاغتهم وفكْرِهم مقياساً لهذا الوصف والنّقد، فمثلا يصف القومسي أبا بكر بقولـه: "فهـو رجل حسن البلاغة، حلو الكتابة، كثير الفِقر والرجوع، جمّاعة للكتب الغريبة ... إلاّ أنـه غير نصيح في الحكمة، لأنّ قريحته وفكرته سحابيّة فهو كالمقلّدين بين المحققيـن، والـتابع للمتقدّمين، مع حبّ للدُّنيا شديد، وحسد لأهل الفضل عتيد(712)." ففي النص السابق توقـف التوحيدي عند بلاغة وفصاحـة القومسي، وقدرته علـى جمع الغريب من الكتب، كما أنـّه كثيـر الدّراسة والرجـوع، لكنّه مقلّد للآخرين، وتـابع للمتقدّمين، ومحبٌ للدّنيا. وربما كان من الممكن القول بأنَّ النقد الأدبي عنده كان خاضعا لتلك الأسس والمقاييس(713).

ونلمـس من خلال مؤلفاته بأنّ حريّة التعبير"الحريّة الفكريّة" قد سادتْ بغداد فـي تلـك الفـترة، وكان وراء هذه الحرية رجال الدّولة والسياسة (714)، ونلمح هذا الشيء من خلال المناظرة التي جرت بين أبي سعيد السيرافي ومتى بن بشر القنّائي؛ فـأنّ المـنظّم لهـذه المناظرة هو الوزير ابن الفرات(715)، كذلك الأمر عند حديث التوحـيدي عـن أحـوال بغداد الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة أمام الوزير ابن سعدان دون خوف أو وجل منه، بل كان الوزير يستثيره للحديث عن هذه الأمور في كثير من الأحيان، كذلك ثلبه للوزيرين ابن العميد والصاحب بن عبّاد مستندا في ذلك إلى بعض آراء وأقوال بعض العلماء والأدباء المعاصرين لهما.

وممّــا تجــدر الإشــارة إلــيه أنّ التوحيدي ألّف رسالة في العلوم، ذكر فيها أصــناف العلوم الشائعة في بغداد وهي:الكِتاب والسُّنَّة والفقه والقياس واللُّغة والنّحو والفلســفة وعلم النّجوم والهندسة والطب... إلخ، وكان السبب الرئيس في تأليف هذه الرســالة هو الردّ على من زعم أنّ "ليس للمنطق مدخل في الفقه ولا للفلسفة اتصالُ بالدّيــن، ولا للحكمــة تأثير في الأحكام."ويعدُ هذا في نظره قد عاب المنطق "وهجّنَ طــريقةَ الأوائل، وزرَى على الحكمة..."(716) ولهذا رأى أن يكتب رسالة يستعرض فيها أصناف العلوم الإسلامية متوخيا الإيجاز في ذلك، واقفا عند التعريفات المكثّفة، وتفصح في الوقت نفسه عن فكر التوحيدي ومقدار علمه وثقافته.

ولــم يفــتِ التوحيدي الحديث عن حالة العلماء الماديّة، التي كثيرا ما شغلتهم عن مهامهم الحقيقيّة بالكسب والابتعاد عن المشاعر والعواطف الحقيقية واللُّجوء إلى التّزيــيف والخِــداع والــتلُّون بلون الشحذ والضراعة والتّوسل لدى أبواب الملوك والــوزراء قــائلا:" وصاحب الفقر إن مدح فرط، وإن ذمَّ أسقط، وإن عمل صالحا أُحبط، وإن ركّب شيئا خلط وخبط، ولم أرَ شيئا أكشف لغطاء الأديب ولا أنشف لماء وجهه، ولا أذعر لسرب الحياة منّهُ."(717) ويقتبس رأيا لديوجانس يفسّر أسباب سقوط الأدباء، وتحولهم عن مهنتهم الأصليّة، هو" من القبيح أن تتحرى في أغذيّة البدن ما يصــلح له ولا يكــون ضارا، ولا تتحرى في غداء النّفس الذي هو العلم لئلا يكون ضارا"(718)."وذلك بأنّ بعض الأدباء سلكوا مهنَة التِّجارة واهتموا بها كالفيلسوف ابن زرعــة الــذي شغلته هذه المهنة ومحبته للربح عن الشغل بالعلم والالتفات له.(719) هكــذا نرى أنّ الظروف الماديّة القاسيّة دفعتهم إلى سلوك هذا المسلك، والتخلي عن مهنتهم الأصليّة، واللُّجوء إلى الارتباط بالطبقة العليّا للتّخلص من ذل الفقر والحاجة إلى المال.

من خلال ثقافة التوحيدي المتنوعة، نلمس ظاهرة تنوع الثقافات في بغداد من علــم وأدب ولغــة وفلســفة... وظهور جماعة من كبار العلماء والأدباء أمثال: أبي ســليمان المنطقي، وابن زرعة النصراني ومسكويه... (720) ومن الشعراء ابن نباتة، وابن حجاج، ومن الفقهاء ابن المعلّم، وأبو إسحاق الداركي(721).

وعلى الرّغم من أنّ بغداد كانت تحت سيطرة بني بويه، وعانت من انحطاط في جميع مجالات الحياة السياسية والاقتصادية، إلا أنّها ظلّت قبة لطلاّب العلم والأدب، ومركزا من مراكز العلم المشهورة في العالم، ومحط أنظار جميع أدباء القرن الرابع الهجري وعلمائه. وقد توقف التوحيدي عند بعض مزايا الحركة العلميّة في بغداد، ورسمها في ثنايا مؤلفاته بلغته الخاصّة وأسلوبه الرائع الشيّق.

2.4 مجالس العلماء العلميّة والأدبيّة.

لقد تنوعت المجالس العلميّة في بغداد، حيث شملت مجالس الحديث والفقه، والنّحو واللّغة والشعر والفلسفة والمناظرات والمحاورات، وساهمت في ازدهار الحركة العلميّة في بغداد وانتشارها، وأضحت هذه المجالس منارا علميًا يهتدي به كل من يبتغي العلم والأدب، ومورداً ينهل منه كلّ طالب للعلم والأدب، وكانت تعقد في المساجد أو في دور العلماء وفي دكاكين الوراقين وغيرها.

كانت كلّ طائفة من العلماء تجتمع حول عالم من بينهم يُشهد له بالنبوغ والقوة في مختلف ألوان المعرفة، ويطلقون عليه شيخاً، ومن أشهر المجالس التي تحدث عنها التوحيدي، مجلس أبي سليمان المنطقي الذي كان يعقده في داره، وأصبح أشبه بمدرسة فكريّة تثار فيها أدقّ المسائل، ويُدلي كِبار العلماء آرائهم فيها.[722]

وكان التوحيدي يتردد إلى هذه المجالس مسجّلا ما فيها من محاورات ومناقشات، فألّف فيها كتابه "المقابسات"، ومن الأعضاء المشاركين في هذه المجالس بالإضافة إليه "أبو زكريّا الصيمريّ، وأبو الفتح النّوشجانيّ، وأبو محمّد العروضيّ، والمقدسيّ، والقومسي، وغلام زحل..."، ووصفهم بأنّ "كلّ واحد من هؤلاء إمام في شأنه وفرد في صناعته."[723]

وعادة ما تفتتح الجَلسة بمسألة من مسائل اللّغة أو الفلسفة أو في النفس أو الاجتماع أو ينقل فيها آراء أشخاص معينين، ولم يكن أبو سليمان المنطقي دائما الملقي بل كان ليحيى بن عدي، ولزكريّا الصيمري وغيرهما نصيب في هذه المجالس كما بدا لنا من خلال صفحات كتاب المقابسات[724].

ويطـــرح موضـــوع الجلسة شيخها أو أحد العلماء، فيجيب كل من حضر من العلمـــاء، ثـــم يترك الحديث على سجيّته يتشعب إلى أن ينتهي المجلس، وفي بعض الجلسات يتم فيها قراءة أحـــد الكتب القديمة سواء أكـــان عربيـــاً خالصاً أم مترجماً (725).

أمّـــا الطـــريقة المتبعة في غالبية هذه المجالس فهي الإملاء، وتعدُّ من أشهر الطـــرق المعـــروفة في بغداد وغيرها من حواضر العالم الإسلامي، إذ يجلس الشيخ وحوـــله الطَّلَبة فيُملي عليهم من علمه وأدبه، إضافة إلى طرق أخرى تتبع في بعض المجـــالس ومنها: قراءة الكتب القديمة وشرح ما فيها من أمور مستعضلة، أو تفسير آيـــة مـــن القرآن الكريم، أو قراءة مجموعة من الأحاديث النبويّة، أو مجموعة من الشعر .(726).

أمّـــا الموضوعات المطروحة في هذه الجلسات فهي متنوعة ولا تقتصر على علـــم واحـــد، فقـــد تكـــون في الفقه والنّحو والشعر واللغة والطّب والفلسفة والنّفس الإنسانية والصّرف ...الخ حسب ما تقتضيه الجلسة.

وكانت تثار في هذه المجالس بعض القضايا المعرفية التي كان يواجهها العلماء والأدبـــاء في زمن التوحيدي، وسطّرها لنا التوحيدي في مؤلفاته ومنها قضيّة النّظم والنـــثر، التـــي حدد التوحيدي موقفه منها بقوله إنّ النثر أصل والنّظم فرع والأصل أشـــرف مـــن الفـــرع، وكـــذلك أنّ الكتب السماويّة جـــاءت كـــلّها منثورة .(727).

وأشـــار التوحيدي إلى أن دكاكين الورّاقين كانت مجالا واسعا لعقد هذه المجالس والمناقشات (728)، فهي تعدُّ من الوسائل التي ساعدت على نشر العلم وازدهاره.

ومـــن المجـــالس التـــي تحدث عنها التوحيدي مجالس الفقيه والقاضي حامد المـــروروذي، الـــذي استولى على صفحات كتابه البصائر والذخائر، ونقل جزءً من هـــذه المجـــالس، ومـــنها حديثه عن أنواع القضاة وهم :"أحدهم جَدّي الظاهر هزليّ الباطن، والآخر هزليّ الظـــاهر جَديّ البـــاطن، والثالث جدّيّ البـــاطن والظـــاهر" (729). وأنّ أغلب مجالسه كانت تدور في الأمور الفقهيّة كالقياس والتيمم وغيرها(730).

لقـد كان للسيرافي مجلس يتردد إليه تلميذه التوحيدي الذي وصَفه بأنه:" عالم العلـم، وشيخ الدّنيا،ومقنِّع أهل الأرض."[731]وكان هذا العالم تأتيه أسئلة من علماء بغـداد وغيرها ويجيب عليها[732]، ففي إحدى المقابسات سأل أبو سليمان التوحيدي يوما عن الطبيعة، فأجابه التوحيدي بأنه سوف يسأل أبا سعيد السيرافي عنها في الغد ومـن ثـم يأتـيه بالجواب، وعندما أجابه السيرافي على سؤاله بادر بالجواب لأبي سـليمان[733].وأطلعنا التوحيدي على جزء من مجالسه في كتابه البصائر والذخائر، وكان أغلبها يدور حول مسائل النّحو والإعراب[734].وأشار إلى مجالس ابن معروف القاضـي، وابـن مغلّـس ، ومجالس بعض الصوفية، وبعض علماء النّحو والأدب والنّجوم[735]وغير ذلك من المجالس.

ومما يجدر ذكـره أن هذه المجالس لا تخلُ من المباهـاة والمنافسة والمفاخرة[736] وأشـار إلـى اهـتمام رجال الدّولة بهذه المجالس وما يدور فيها من مناقشات وجـدل، ونستدل على ذلك من خلال سؤال الوزير ابن سعدان للتوحيدي عن أخبار أبـي سـليمان المنطقـي وتتبعه لأخباره، وعمن يزوره من رسل سجستان، وفيما يتحدثون؟ [737] .

ويكشـف التوحيدي من خلال المقتطفات التي نقلها لنا من هذه المجالس، عن بعـض الأمـور التي كانت تشغل بال المفكرين في بغداد في القرن الرابع الهجري، فهـي قضايا لُغويّة تتعلق بالغريب من الألفاظ ، وأحيانا أخرى تتعلق بضبط الفوارق بيـن كلمات تبدو متشابهة المعاني مثل كلمتي "العتيق والخلق"، وهناك أمور صرفيّة ونحويّة [738]

3.4 مجالس الخلفاء والوزراء والأمراء :

يُعـدُّ هذا الضرب من المجالس منتديات أدبيّة وعلميّة يلتقي فيها كِبار العلماء والأدبـاء والفلاسـفة في قصور الخلفاء والوزراء، لإجراء مناقشات وعقد الندوات والمناظرات في مختلف أنواع العلوم والمعارف.

ويـبدو أنّ هذه المجالس لم تكن طارئة أو جديدة على هذا العصر، بل وجدت فـي العصـور السـابقة، لكنّها كانت بسيطة ثم أخذت تتطور حتى وصلت إلى ما وصلت إليه في زمان التوحيدي.(739)

وقد كان لهذه المجالس أصول ينبغي على من يحضرها أن يراعيها، منها أنّ رئـيس الجلسة هو الذي يفتتح الجلسة بطرح سؤال أو قضيّة ما للمناقشة والمداولة، ومـن ثـمّ يفتح المجال لكلّ من يحضر بالمناقشة وإبداء الرأي، وعند الانتهاء ينهي صـاحب الجلسة، بأن يطلب مُلْحَة الوداع أو يقول عبارات تشير إلى إنهاء المجلس، وكذلك ينبغي على الحاضرين أن لا يتحدثـوا دون استئذان، ولا يُكثر من التّبسم أو القهقهة، وأن يتصف بحسن الاستماع(740).

وتتضـح هـذه الآداب فـي المجالس التي توقّف عندها التوحيدي، فقد كان الوزيـر ابـن سـعدان هـو الـذي يفتتح المجلس بسؤال أو قضيّة يطرَحها علـى التوحـيدي، فيجيـبه علـى ذلـك مسـتندا إلى ثقافته أو إلى ما سمعه من العلماء المعاصـرين له، ومن ثمّ يشرع بالحديث إلى أن يطلب الوزير من التوحيدي بإنهاء الجلسة بذكر مِلْحَة الوداع، وهكذا على طول صفحات كتابه الإمتاع والمؤانسة.

ذكـر التوحـيدي أنَّ لهذا الوزير منتدى يلتقي فيه مشاهير علماء بغداد ومن خارجهـا، وتضـمُّ المسلم والنّصراني واليهودي والمجوسي، ومن أهم أعضاء هذا المجلس كما ذكرهم التوحيدي: "نظيف الرومي، وابن السمح وعيسى بن علي، وابن عبـيد الكاتـب، والقومسي، ومسكويه، وابن زرعة النصراني، وابن الخمّار، وابن حجـاج الشـاعر الماجـن، وأبـو الوفاء المهندس، وبن شاهويه "(741)، إضافة إلى التوحيدي نفسه.

وكانت هذه المجالس تتناول مواضيع عِدّة، من أهمّها حديثه لابن سعدان عن خلاصـة مـبادئ إخوان الصّفا، وما جرى من مناوشات بين أعضاء جماعة إخوان الصـفا وبين أبي سليمان المنطقي، ويعدُّ التوحيدي المصدر الوحيد الذي ذكر أسماء واضعي هذه الرسائل .(742)

وفـــي إحدى الليالي صوّر الصراع الذي كان بين العرب والعجم، وظهر فيه كراهـــيّة العَجـــم للعرب، وتعصّبهم لبني جنسهم، في حين أنّ التوحيدي تصدى لهم بذكـــر بعض من محاسن العرب ومساوئ العجم، وردَّ على الجيهاني ردًّا عنيفا[743]، وبهذا يكون التوحيدي قد أبدى رأيه بصراحة في هذه المسألة وبجرأة دون أن يمنعه الوزير ذي الأصل الأعجمي من ذلك، فهذا الموقف يدلُّ على حريّة التعبير التي كان وراءها رجال السياسة.

خصصـــت بعـــض الجلسات للحديث عن أمور الحيوانات وصفاتها وأسمائها وكيفـــية حـــياتها [744]، وتطرقت إحدى الجلسات للحديث عن المجون لأنّ النفس في نظـــر الوزيـــر تمـــلّ الجد أحيانا[745]. وتناولت هذه المجالس قضايا الأدب والنحو والشعر والصرف، وكان لقضية المفاضلة بين النظم والنثر النصيب الأوافر في هذا المجـــال، فـــنقل التوحـــيدي آراء القدامى والمعاصرين له بهذا الشأن فكان منهم من مفضل النثر ومنهم من مفضل النّظم.[746]

ومـــن الوزراء الذين اهتّموا بالعلم والأدب ابن العميد، الذي عقد عدة مجالس عـــند حضوره إلى بغداد، وقد أشار إليها التوحيدي، وذكر أن ابن العميد كان يجري جرِيات على طلاّب العلّم والعلماء في مدينته (الري) وفي بغداد.

ويصـــف التوحيدي هذه المجالس قائلا: "دخل شهر رمضان فاحتشد وبالغ، ووصـــل ووهب وجرت في هذه المجالس غرائب العلم، وبدائع الحكمة، وخاصّة ما جـــرى للمتفلسفين... ومن طريف ما جري، وفي سماعه فائدة واعتبار". وأشار إلى تاريخ انعقاد المجلس وهو في جمادى الآخرة سنة أربع وستين وثلاثمائة، و بدأ هذا المجلس بسؤال العامريّ " أبي الحسين " لأبي سعيد السيرافي، عن طبيعة الباء من" بســـم الله الرّحمـــن الرّحيم" فعجب النّاس من هذه المطالبة، لكن أبا سعيد انطقه الله بالســـحر الحلال، وذكر ما أدبه به بعض الموفقين من المتقدمين وأنشد أبياتا شعريّة نالت إعجاب ابن العميد"[747].

وعقـــد ابن العميد مجالس مختلفة في بغداد، فكان يعقدُ للفقهاء يوما، وللأدباء يومـــا وللمتكلميـــن يوما، وللمتفلسفين يوما، وفرّق أموالاً كثيرة على العلماء، وتفقد

السيرافي، وعلي بن عيسى الرماني وغيرهما، وعرض عليهما المسير معه إلى الري، ووعدهم ومنّاهم، وكان يفخر بهم وبحضورهم مجالسه(748)، ويباهي الوزراء بهم على حدّ تعبير التوحيدي.

كان الصاحب بن عباد يعقد مجلسا للعلم والمدّارسة في منزله، وتدور فيه مسائل النّحو والتفسير والفقه والشعر، وتجري فيها المناظرات، كالمناظرة التي جرت بينه وبين اليهودي في إعجاز القرآن، وينقل لنا التوحيدي ملامح الغضب والحدة التي ظهرت على الصاحب بن عبّاد أثناء هذه المناظرة، وكيف استطاع اليهودي أن يفتر من حدة هذا التوتر(749).

وتحدث التوحيدي عن مناظرة أخرى يدّعي الصاحب أنها جرت بينه وبين المراغي في "عسى ولعل وكاد"، ويصف التوحيدي شعور الصاحب وافتخاره" بأبي سعيد السيرافي، وعلي بن عيسى، والمراغي" لوجودهم معه في بغداد(750)، ولكنّنا نرى التوحيدي ينكر هذه المناظرة ويظنّ إنها من ادعاء الصاحب بن عباد.

قدّم لنا التوحيدي صورة أدبية طريفة ساخرة لمجلس الصاحب واصفاً أصحابه بأنّهم "أصحاب الجدل الذين يتشغبون ويحمّقون ويتصايحون، وهو فيما بينهم يصيح ويقول: قال شيخنا أبو علي وأبو هاشم." (751)

ويسجلُ مجلسا آخر جرى بحضرة الأمير عزالدّولة سنة 360هـ في شهر رمضان، ذكر فيه جماعة من مشاهير العلم الذين حضروا ذلك المجلس وهم "أبو حامد المروروذي ،وأبو بكر الرازي ،وعلي بن عيسى، وابن كعب الأنصاري، وأبو الجيش شيخ الشيعة، وابن معروف وغيرهم"، ووصف هذا المجلس بأنه "إيوان فسيح في صدره من حضروا من أجله،وأبو الوفاء المهندس نقيب هذا المجلس ومرتّب القوم..." (752) ونرى أنّ الحدة والتوتر والغضب تظهر أحيانا على وجوه المشاركين،حيث يقول معز الدّولة لأبي الجيش الذي احتدّ وأظهر ثورته في أثناء حديثه :" أنت في معركة لا مبارٍ لك فيها فافرِ كيف شئت وذر والله

المستعان".[753]ونجد انتشار التعصُّب للمذاهب والحدة في الدّفاع عن مبادئها في هذه المجالس.

وقدّم لنا جلسة أخرى في حضرة الوزير عيسى بن علي، ومحور هذه الجلسة "السبب الذي من أجله يولع كلّ ذي علم بعلمه [754]" وأخرى في مجلس الوزير ابن الفرات الذي جرت فيه المناظرة الشهيرة بين أبي سعيد السيرافي ومتى بن بشر القنائي في المفاضلة بين المنطق والنحو[755].

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ هؤلاء الوزراء والأمراء يفتخرون بمن يلوذ بهم من مشاهير العلماء والأدباء والشعراء، فهذا الوزير ابن سعدان يفتخر بمجلسه الذي يضمّ علماء بغداد في عهده ومن مختلف الأجناس والمذاهب قائلاً:" والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير، وإنّهم لأعيانُ أهل الفضل ،وسادة ذوي العقل،... أتظنُّ أنّ جميع ندماء المهلّبي يفون بواحد من هؤلاء، أو تقدّر أنّ جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقلّ مَنْ فيهم ..."[756]

وممّا سبق نرى أنّ هذه القصور ظهرت كمركز لنشر العلم، وتدلُّ على إهتمام رجال الدّولة بالعلم والعلماء الممتازين، وتعدُّ هذه المجالس ثروة زاخرة متنوعة المعارف والعلوم ولا تقتصر على علم محدد، كما صورتها لنا مؤلفات التوحيدي وخاصة في كتابيه الإمتاع والمؤانسة والمقابسات، ووصف النتائج العلمية لهذه المجالس بقوله إنها:" لا تنصرم إلاّ عن فوائد كثيرة ".[757]

4.4 المناظرات والمحاورات :

كانت تعقد هذه المناظرات والمحاورات في المجالس السالفة الذّكر، وتدور في العلوم التي يشتدّ فيها الخلاف والجدل، وتقوم على قرع الحجّة بالحجّة وغلبة الخصم بالحق حيناً وبالباطل أخرى[758]، وكانت هذه المناظرات موجودة منذ العصر العباسي الأول خاصة في عهد المأمون الذي رأى أن مجالس المناظرات تزيل الخلافات بين العلماء، وظهرت بعد بروز الفِرَق الإسلاميّة المتعددة، وكل فرقة أخذت تتثقف ثقافة فرقتها الدّينية، وكان على رأس هذه الفرق المعتزلة وأهل السُّنّة، وتعدُّ مسألة خلق القرآن من أهم مسائل الخلاف[759]، وتوقف التوحيدي عند هذه

المسـألة والتي مفادهـا أن القرآن مخلـوق ومحدث[760]، وتوقف أيضا عند صراع المذاهـب وخاصة بين السنّة والشيعة، ورسالته السقيفة خير مثال على ذلك، فجميع هذه الأمور شجّعت على قيام المناظرات لإبداء كل فريق حجته .

وحفـظ لنا التوحيدي مناظرة ربما كان كتابه "الإمتاع والمؤانسة" أول مصدر رواهـا، وأن جمـيع كتب التراث استقت منه هذه المناظرة، وهي المناظرة الشهيرة التي حدثت بين أبي سعيد السيرافي النحويّ ومتى بن يونس في المفاضلة بين النّحو والمـنّطق، والمنظم لهذه المناظرة الوزير ابن الفرات في سنة 326هـ، ولقد دافع أبو سعيد عن النحو العربي بيّنما دافع متى عن المنطق اليوناني، وقد حضرها الكثير مـن العلمـاء مـن بينهم رسول الإخشيدين بمصر، ورسول ابن طغج صاحب آل سـامان[761]، ويـدلُّ هذا على أن المناظرات يأتي إليها العلماء من شتى البلدان من أجل حضورها ومتابعتها.

بدأ أبو سعيد السيرافي المناظرة بسؤال متى عن المنطق فأجابه قائلا: "أعني بـه أنـه آلة من آلات الكلام يعرف به صحيح الكلام من سقيمه، وفاسد المعنى من صالحه كالميزان، فإني أعرف به الرَّجحان من النقصان، والشائل من الجانح،"[762] فـردّ علـيه أبو سعيد قائلاً: " أخطأت، لأن صحيح الكلام من سقيمه يُعرَف بالنّظم المـألوف والإعـراب المعـروف إذا كنّا نتكلم بالعربيّة، وفاسد المعنى من صالحه يُعرَف بالعقل إذا كنّا نبحث بالعقل"[763] .

وتواصل النّقاش حجة بحجة ورأي برأي، حتى ادّعى أبو سعيد أن متى يدعو إلـى تعلـم لغة اليونان وهو لا يعرفها، وأنها قد درست وعفى الزمان عليها، ويرد مـتى علـيه بـأنّ "الـترجمة قـد حفظت الأغـراض وأدت المعـاني، وأخلصت الحقـائق" [764].

وتوصلت المناظرة بأن سأل أبو سعيد متى عن "(الواو) ما أحكامه ؟ وكيف مواقعـه وهـل هو على وجه أو وجوه ؟ " فأجاب متى بعد أن بُهت قائلا: "هذا هو الـنحو، والنحو لم أنظر فيه لأنه لا حاجة بالمنطقيّ إليه، وبالنّحويّ حاجة شديدة إلى المنطق، لأن المنطق يبحث عن المعنى، والنحو يبحث عن اللفظ..." لكن أبا سعيد لم

يسكت له بل رد عليه بأن قال له:" الكلام والنطق واللغة واللفظ والإفصاح والإعراب... كلّها من واد واحد بالمشاكلة والمماثلة...[765] " وهكذا إلى آخر المناظرة.

فإن هذه المجادلة أو الخصومة ليست ثنائيّة، فمتّى يمثل جماعة بدليل قول السيرافي" هذا باب، أنت وأصحابك ورهطك عنه في غفلة"[766].وكذلك أبي سعيد يمثل جماعة بدليل قول "يكفيني من لغتكم "[767] .

وكانت نهاية المناظرة بانتصار أبي سعيد مناظره، وذلك بأن سأله عدة أسئلة وطلب منه أن يجيب عليها بمقاييس المنطق مثل سؤاله عن الواو وما أحكامه؟ وعن معاني أحرف الجر، وأبدى متّى عجزه عن الإجابة بأن طلب من السيرافي أن يجيب عليها، وأنهى المناظرة بقوله: "إذا حضرت الحلقة استفدت، ليس هذا مكان التدريس هو مجلس إزالة التلبيس[768]".

فهذه مناظرة شيّقة تدفع على القراءة ومتابعة الحديث إلى النهاية، فهي تعبّر عن مقومات لغتين من اللُّغات، وهما اللُّغة العربيّة واللُّغة اليونانيّة، فالسيرافي يمثل اللُّغة العربيّة لغة وثقافة بدفاعه عن النّحو العربي الذي يعدّ أساسها، في حين أنّ متى يمثل اللُّغة اليونانيّة لغة وثقافة بدفاعه عن المنطق اليوناني.

وأشار التوحيدي إلى مناظرة أخرى حدثت بيْنه وبيْن عبيد الكاتب في مجلس الوزير ابن سعدان حول البحث في أيّهما أنفع كتابة البلاغة والإنشاء أم كتابة الحساب، فكلّ منهما أدلى بحجته وقرع خصمه[769].

فقد انتصر أبو حيان إلى البلاغة وكتابة الإنشاء، فبينما انتصر عبيد الكاتب إلى كتابة الحساب، والتي يعدّها" أنفع وأفضل وأعلق بالملك والسلطان إليه أحوج وهو بها أغنى عن كتابة البلاغة والإنشاء"[770] فالإنشاء بنظره هزل لأن فيها "الخداع والكذب والتشدق"، في حين أن كتابه الحساب هي من قبيل الجد لأنها حاضرة الجدوى، سريعة المنفعة، فأمّا البلاغة زخرفة وحيلة، وهي شبيهه بالسراب "[771].

ويــردُّ علــيه التوحيدي بأن البلاغة وكتابة الإنشاء يحتاج إليهما السلطان قبل احتــياجه إلـــى الحســاب؛ لأنه في سياسته" يأمر وينهي ويلاطف ويخاطب ويحتج وينصــف ويوعد... ويذيق الرعيّة حلاوة العدل، ويجنبهم حرارة الجَور، ثم يجبي، فــإذا جبـــي احتاج إلى الحساب حتى يكون بالحاصل عالما". فنرى أن السلطان في جميع ما تقدّم يحتاج إلى لسان فصيح قائم على البلاغة والقدّرة على الإنشاء، أما إذا أراد جــباية الأموال احتاج إلى كتابة الحساب، فاستمر التوحيدي في الردّ على عبيد الكاتــب حجة بحجة ومن ثمّ نجده يردُّ على ادعاء عبيد بأن الإنشاء هزل والحساب جــد بقولــه:" البلاغــة هي الجد، وهي الجامعة لثمرات العقل"، ويعلل السبب بأنها "تحق الحق وتبطل الباطل على ما يجب أن يكون الأمر عليه."(772)

وقــد سطّر لنا التوحيدي مناظرة أخرى جرت في مجلس الصاحب بن عباد، وكانــت بيــن الصاحب والخشوعي حول الجسم حيث قال المناظر الثاني "... وكان إثبات العقل لمن هو غير الجسم في المشاهدة غير معقول وجب أن يكون جسماً لأنه قد دخل في قسمة المعقول، وإن بطل أن يكون جسما بطل أن يكون معقولا وقد ثبت أنــه معقــول فإذن قد ثبت أنه جسم" فكان ردّ ابن عباد "هاتوا مسألة أخرى فسماع الحُكْــل (مــا لا فــائدة منه) أرجح بالفائدة من هذا".(773) . وبهذا قد أنهى ابن عباد المناظرة بأنه لم يفهم شيئا من كلام الخشوعي .

وقد روى لنا في كتابه "البصائر والذخائر" مناظرة جرت بين بشر بن الحسين قاضي القضاة وأبي عبدالله الطبري بشأن جعفر بن أبي طالب وحديث إسلامه، وهل يقــع التفاضــل بيــنه وبين عليّ عليهما السلام، فقد جاءت على سبيل المقارنة بين إسلامهما وكيفية قتلهما واستشهادهما (774).

ومــا تقــدَّم مــن أمثلة على بعض من المناظرات والمحاورات التي سطّرها لنا التوحــيدي فـــي مؤلفاته، يمكنْ أن يعكس لنا بجلاء نوعا من الصراع الفكري بين العلمــاء المســلمين مع أنفسهم أو مع غير المسلمين، وربما يأتي بعضها ليعبّر عن الفكــر العربي في مقابل الفكر اليوناني، وأساسها الردُّ على الخصم حجة بحجة دون

التّهاون أو التّساهل معه، وهي لم تقتصر على نوع محدد من العلوم بَل جاءت شاملة لفنون النحو واللغة والفقه والفلسفة بخاصة بين أصحاب الكلام والجدل.

ويمكـــنْ أن يعدّ كتاب "الهوامل والشوامل" وسيلة أخرى من وسائل نشر العلم والمناظرات والمجالسات، فالتوحيدي يقدّم الأسئلة في شتى المعارف ومسكويه يجيب علـــيها حسب معرفته وعلمه وثقافته، فهو كما تشير مصادر ترجمته تأتيه أسئلة من بلـــدان مخـــتلفة فيجيـــب عنها، لأنه" شيخ زمانه ثقة ومعرفة ودينا وفضلا" على حد تعبير التوحيدي(775).

فهـــذه المناظرات تعدُّ من أشهر وسائل نشر العلم والمعرفة في بغداد آنذاك، فهـــي تخلّـــدُ لنا أقوالَ المتناظرين، ومدى قُدْرَتِهِمْ على الإقنَاع والجَدَل والصبْر على الخَصِـــم وتحمُّلِه، وأسهمت في تحريك النّشاط الأدبي والعلمي، وفتحت الباب واسعا أمام المشتغلين بالعلم والأدب أن يقولوا ما بأنفسهم دفاعا عمّا يؤمنون به، فكانت هذه المجالس متنفسا لهؤلاء العلماء والأدباء، أو المنارة التي تشعُّ منها أنوارهم المعرفية وفضائلهم العلمية.

ونرى أن هذه المجالس دار فيها الكثير من الموضوعات المعرفيّة التي شغلت النخبة المثقفة ببغداد قلما نجد فنا إلاّ وكان له نصيب في المداولة والمناظرة كالأمور الفلســـفيّة والأدبـــيّة والدّينـــيّة، ومن الملاحظ أنّ هذه المناظرات لا تخلُ من النزاع والهجـــاء والسِـــبَاب، والمناظر ينتصر أحيانا و ينهزم أحيانا أخرى، فعلماء بغداد لا يكلّون ولا يملّون دائما من جَدَل أوحِوار أونِقاش (776).

5.4 الامتزاج العلمي:

تعـــدُ ثقافة أيُّ أُمّة من الأمم نتاجا حضاريّا، يخضع للتّفاعل مع المجموعات البشريّة الأخرى بالمجاورة أو التزاوج أو التجارة والمعاملات ،ولم تُعْرَف أيُّ ثقافة قامتْ من العَدَم، أو تطورت بحركة ذاتيّة مستقلّة، فجميع الحضارات تتلاقى وتتفاعل وتـــتأثر ببعضها لتنتج حضارة متطورة تلبي حاجات العصر الجديد، وليس من شك فـــي أنّ اتصال أيُّ ثقافة بأخرى يولّد آثارا شتى ومتنوعة وليس على الثقافة فحسب، بل في النُظم الإداريّة والسياسية، والعادات والعقائد واللّغة واللّباس (777).

وهكـــذا نجـــد الثقافـــة العربيّة اتصلت مع ثقافات وحضاراتَ الأمم الأخرى، وطبعتها بطابعها، لكن هذا الامتزاج أو الاتصال يختلف تبعا لعوامل القوة والضعف والحرب والسلّم، والمودّة والعداوة، ويتفاوت في التأثير والتأثر.

لقـــد كانـــت الدَّولـــة العباسيّة في بداية تكوينها حذرة في الاتصال مع الأمم الأخرى[778] وخاصة دولتي الفرس والتُّرك، إلا أنها لم تبقَ على هذا الحذر في أوج نشـــاطها وازدهارهـــا وتطورهـــا، بل على العكس تفاعلت معها، وتأثرت بعادتها، ونظمهـــا الإداريـــة وعقائدها، وكان من نتائج هذا الاتصال ظهور النَّزعة الشعوبيّة التي تُحَقِّر العرب وتحطُ من شأنِهم وتقلل من ثقافتهم وعلمِهم، و سطّر لنا التوحيدي هـــذه الـــنزعة في كتابه "الإمتاع والمؤانسة"، وردّ علي من يحتقر العرب ردا قاسيا وعنـــيفا[779]، وذكر محاسن العرب وقلّل من شأن الموالي كما مر معنا في الفصل الثاني.

ولا بدّ من الإشارة هنا أنّ بغداد كانت شديدة التأثر بالعنصر الفارسي خاصة وذلك لأنّ الدّيالمة الذين يسيطرون على بغداد كانوا من العنصر الفارسي، ونجد هذا التأثـــير فـــي التفنـــن في بناء القصور والمنازل والجنان والبساتين، كذلك التفنن في وســـائل الـــتّرف واللهو وعقد مجالس الشراب والغناء، ومن أهم نتائج هذا الاتصال دخول الجواري والإماء إلى بيوت العامة والخاصّة في بغداد، ولا نكاد نرى بيتا من بـــيوت بغـــداد يخلـــوُ من الجواري والتسرى بهن، وقد أدى ذلك إلى فساد الأخلاق وانتشار المجون والخلاعة في أرجائها[780] ،وصورّ لنا بعضاً من هذه الآثار السلبية في كتابه "البصائر والذخائر".

والذي يهمنا في هذا الفصل هو معرفة مدى تأثر بغداد بالأمم الأخرى علميًا، ومـــا الـــذي ولّده هذه الامتزاج بين المفكرين العرب ؟ وما هو موقف التوحيدي من الامتزاج ؟

فمن خلال مؤلفاته اطّلعنا على العلوم والمعارف التي عرفتها بغداد من الأمم الأخـــرى خاصـــة اليونان، فنجده ينقل الكثير من أقوال وآراء بعض حكماء اليونان

وفلاسفتهم (781). أمثال آرسطو وأفلاطون وسقراط، وثيغانوس، وانكساغورس، وعن غيرهم ممن ذكر اسمه أو اكتفى بالإشارة إليهم.

فمن أقوال أرسطو تعريفه للصديق إذ قال هو:" إنسان أنت، إلا أنه بالشخص غيرك"، وقد رأى التوحيدي أن هذه العبارة تحتاج إلى توضيح وشرح ، فنقل شرحا لها عن أبي سليمان (782).

ومـــن أقـــوال ثيغانوس الفيلسوف في الصديق هو:" الذي إذا قصدت إليه في حاجـــة وجدته أشدّ مسارعة إلى قضائها مني إلى طلبها منه " (783) وهذه مجرد أمثلة على الأقوال التي نقلها لنا التوحيدي.

وعلاوة على ذلك فقد أشار التوحيدي إلى الأمم التي امتزجت في بغداد سوى الفـــرس ومن هذه الأمم التُّرك، والهنود، والزنج، والروم(784) وغيرها حيث تمَّ معها اللقاء الفكري، وتبادل المأثورات الشعبية بشتى أنواعها(785) .

ونلمـــس تأثـــير الأعاجم في اللغة والإعراب، فقد فشا اللَّحن في اللغة؛ بسبب "الســـبايا التي كثرن في الإسلام من الأعاجم وأولادهن، فإنهم "نزعوا في اللَّكنة إلى الأخـــوال" (786)على حد تعبير التوحيدي. وهاهو أيضا يُعيب الفقهاء لفشو اللَّحن فيما يكتـــبونه، استشـــهادا مـــنهم بلغـــة نبيهم ويقولون:" إن الله عزّ وجل أمرنا بالطاعة والإيمـــان وإنْ لم يأمُرْنا بالنَّحو، وإلا فهاتِ أنه يدلُّ على أنه أمرنا بأن نتعلَّم ضَرَبَ عبد الله زيداً.(787) " ففي نظرهم أن اللغة المراد بها هو الإفهام وأن اللَّحن ليس عيبا ما دامت الغاية الحقيقية موجودة.

ويســـخر التوحيدي في موضع آخر ممن يرون إمكان الإفهام مع اللَّحن، لقد قـــال رجل لآخر:اقعد حتى تتغدى بنا. (788) " أي يريد حتى تتغدى معنا، فخرج قوله مخـــرج الضـــحك، فإنّ هذا الكلام يغيّر المراد منه، ويختلف الإعراب، وكما يتغير "الحكـــم فيه باختلاف الأسماء ويتغير المفهوم باختلاف الأفعال"، وبالتالي يؤدي إلى تغيُّر المعنى(789)".

ومـــن العلوم التي استقاها أهل بغداد من الأمم الأخرى علم النَّجوم، وولع به أهلهـــا، خاصـــة مـــن قـــبل ممثلـــي السلطة، ويقوم هذا العلم بتتبع حركة الكواكب

والــــنّجوم، ومعــرفـــة مواضعها وحركاتهـــا وربطـــها بالحوادث والـــولادة[790]، وممّـــا يـــبدو أنّ العـــرب القدماء عرفوا هذا العلم قديما لكنهم أضافوا إليه ما أخذوه وعرفوه من الأمم الأخرى.

وقـــد صـــوَّر لـــنا التوحيدي بعض الصراعات الفكريَّة التي نتجت عن هذا الامـــتزاج والتّفاعل، ولعل من أهمها الصراع الذي سطّره في المناظرة التي جرت بيـــن أبـــي ســـعيد الســـيرافي ومتّى، فهي مناظرة تعبر عن فكرين مختلفين؛ الفكر اليوناني المتمثل بالمنطق الذي دافع عنه متى ويعدّ دخيلاً على اللُّغة العربيّة وثقافتها والفكـــر العربـــي المتمـــثل بالنَّحو الذي تعصّب له أبو سعيد السيرافي وهو الأصل، فالعلماء العرب في بغداد قد عرفوا علم المنطق بعد الامتزاج الثقافي وترجمة الكتب اليونانية.[791]

وممَّـــا لا ريـــب فيه أن النَّحو العربي يعدّ من المقومات الأساسية للحضارة العربـــية الإســـلامية، أمـــام الزحف الجارف للمنطق اليوناني الذي ولع به العلماء، وبخاصـــة أصحاب الكلام، وبهذا نرى أن كل جديد ودخيل إلى أي أمة يمكن أن نجد من يحبذه ويسانده و لا يعدم من ينكره ويتشبث بالأصل[792].

كذلـــك المجادلة التي حدثت بين من ينصر الفلسفة اليونانية وينصر الشريعة الإسلامية، وتظهر من خلال حديث التوحيدي عن مذهب إخوان الصفا ومبادئهم، لقد حاولت هذه الفئة التوفيق بين الفلسفة والشريعة، حيث قالوا: إنّ " الشريعة قد دُنّست بالجهـــالات، واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهرها إلاّ بالفلسفة وذلك لأنهـــا حاويـــة للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهاديّة"، وزعموا أنه "متى انتظمت الفلســـفة اليونانـــية والشـــريعة العربية فقد حصل الكمال"، فإن هذه الجماعة حاولت التوفـــيق بين الفلسفة اليونانية والشرعية العربية، ولكن هذا التوفيق لا يمكن تحقيقه في نظر التوحيدي لأنهما عنصران متباينان، وعندما رأوا صعوبة تحقيق ذلك لجأوا إلى التّقريب فيما بينهما، لكنّ أبا سليمان تصدّى لهم بقوله: " إنّ الشريعة كاملة وهي ليست بحاجة إلى الفلسفة لتكملها"، ويذكر أيضا أن الفِرق الإسلامية التي ظهرت في

بغداد "كالمرجئة والمعتزلة والشيعة والسنة والخوارج فما فزعت إلى الفلسفة والفلاسفة"، وكذلك الفقهاء على اختلاف أحكامهم لم يلجأوا إليها(793).

ويتابع التوحيدي حديثه بهذا الشأن، وينقل إلينا رأى أبي سليمان الذي يفضل النبي على الفيلسوف في قوله:"وبالجملة النّبي فوق الفيلسوف، والفيلسوف دون النّبي، وعلى الفيلسوف أن يتبع النّبي، وليس على النّبي أن يتبع الفيلسوف، لأن النّبي مبعوث، والفيلسوف مبعوث إليه"(794) .

وكذلك الصراع والجدال العنيف الذي حدث بين التوحيدي وعبيد الكاتب بشأن أفضلية كتابة الحساب وكتابة الإنشاء، فالحساب هو العنصر الدّخيل الذي جاء نتيجة الامتزاج العلمي، فبينما كتابه البلاغة والإنشاء عنصر أصيل، وتعدُّ أساس الثقافة العربيّة، فوجد من علماء بغداد من ينصر العلم الدّخيل على العلم الأصيل نظرا لمواكبة التطور والحضارة، فكذلك البلاغة والإنشاء فهي أصيلة وتدخل في الناحيّة التعبيريّة وإطلاق الأوامر السلطانية (795).

وأشار التوحيدي في ثنايا حديثه عن أصناف العلوم المنتشرة في بغداد إلى علم الطبّ والهندسة والرياضيات والفلك والفنون كالغناء والموسيقى وآلاتها مما أخذته العرب عن الأمم الأخرى، و أشار إليها التوحيدي في أثناء حديثه عن أصناف العلوم المنتشرة في بغداد (796).

من الآثار الموسيقية التي أخذتها العرب من اليونان آلة العود وقال فيه: "صَنَعَهُ أصحابُ الهنّدسة على هيئة طبائع الإنسان، فإن اعتدلتْ أوتارهُ على الأقدار الشريفةِ جانَسَ الطِّباعَ فأطربَ، والطربُ ردُّ النفس إلى الحالِ الطبيعية دفعةً "(797).

وتعدُّ لعبة الشطرنج من أروع وسائل اللهو الراقي التي أخذتها بغداد عن الهند(798) وما زالت منتشرة إلى يومنا هذا.

ويبدو أنَّ آداب المجالس والمناظرات، وطريقة الكلام والردّ على الخصم كانت مستقاة من الأمم الأخرى، وكان هذا التأثير شاملا لجميع مجالات الحياة الحضارية في اللغة والدّين والأدب.(799)

والواضــح ممّــا خلّفــه لنا التوحيدي أنه كان متمسكاً باللُّغة العربيّة وثقافتها ومنكراً لكل دخيل أو جديد يطرأ عليها، لذا نجده يتجاهل كلمة فارسية، ويستعفى من فهمهـا لأنها دخيلة على اللُّغة وهي كلمة "البخت" ولا توجد في كلام العرب، ويؤنبه صـديقه مسـكويه على هذا بقوله:" كأنك حظرت على نفسك أن تفهم حقيقة إلا أن تكـون في لفظ عربي، فإن عدمت لغة العرب رغبت عن العلوم، ولكنّا- أيداك الله- لا نترك البحث عن المعاني في أي لغة كانت، وبأي عبارة حصلت."(800) فهو ينكر التهاون في مفردات اللغة ومستلزماتها كالنحو والبلاغة، ويتعصب لها تعصبا شديدا، علـى الـرُّغم مـن أنه ذو ثقافة فلسفية منطقية إلا أنه يتشبث بالنحو العربي ويؤمن بامتيازه على المنطق اليوناني(801).

6.4 التّرجمة :

لقد نضجت الأذهان وازداد تنبهها إلى علوم الأقدمين، من خلال ما كان يأتي إلـى بغداد من الأطباء والعلماء سواء من السريان أم الفرس أم اليونان أم الهنود أم الـروم، الذيـن عاشروا المسلمين وامتزجوا بهم، وانصهروا في المجتمع البغدادي، فـأخذوا يباحثون المسلمين ويتعلّمون اللّغة العربيّة، ممّا شجع المسلمين على معرفة علومهـم وتعلمهـا، وخاصـة العلوم التي رأوا فيها فائدة للدّولة والمجتمع كالطّب والهندسة وعلوم الفلك والرياضيات.

ولهـذا نشـطت حركة التّرجمة والنّقل من اللّغات الأخرى إلى اللّغة العربيّة وانتشـرت بشكل واسع في العصر العباسي الأول، ومن ثمّ تطورت حتى شملت كل مـا اسـتطاع العـرب نقله من علوم الأمم الأخرى ومعارفها النافعة، فقد نقلوا من الفرس الفلك والرياضيات، ونقلوا عن اليونان مجموعات العلوم التي تتصل بهم من الرياضيات والعلوم الطبيعية والفلسفية والمنطق(802)، فقد أخذوا من كلّ أمة أحسن ما عندها.

كان للخليفة العباسي المنصور الدّور الأكبر في تشجيع حركة التّرجمة خاصّة والحـركة العلمـيّة عامّـة، فقد أهتمّ المنصور بنقل الكتب السريانية والأعجمية من مخـتلف العلوم(803)، فكان مولعا بالطب والفلك والنجوم، فكاتب ملوك الروم يطلب

مــنهم مــا لديهم في هذا الشأن، وكان أول خليفة ترجمت له كتب أرسطوطاليس في المنطقــيات، كما أمر بترجمة أحد كتب الهند في علم الفلك(804)، ومن ثمّ اتّسع نشاط الترجمة في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي أمر بنقل الكتب من بلاد الروم المفــتوحة إلـــى مقر الخلافة بغداد ثم طلب ترجمتها إلـــى العربية (805)، وفي عهده تـــرجم كـــتاب إقليدس، وأطلق على هذه الترجمة الهارونية تمييزا لها عن الترجمة المأمونية التي نقلها ابنه المأمون فيما بعد(806)، وأكبر دليل على اهتمام المأمون بأمر الـــترجمة ما بعثه إلى ملك الروم بإنفاذ ما لديهم من العلوم القديمة المخزونة ببلدهم، فأجابه ملك الروم بعد امتناع، ومن ثمّ أمر بترجمتها إلى اللغة العربية(807).

وكانـــت منهجيّة التّرجمة تقوم على منح الحريّة الفكريّة للمترجم والنص في آن واحد، وكما تركت لهم حريّة الاعتقاد، بأن يختار ما يشاء من الأديان والمذاهب، ولا يجبرون على اعتناق الدّين الإسلامي(808).

لا بـــدّ مـــن الإشارة إلى أن التّرجمة ازدادت حـــدّة وقوة ونموا فـــي هـــذا القـــرن، بحيث انتقلت من الترجمة الحرفيّة التي تمتلئ بالهنات والعثرات والوضوح والدقة والأمانة في أداء النّص المترجم إلى ترجمة الجمل والفقر بالمعنى، أي اختيار مـــا يطابقها في المعنى في اللغة العربيّة، سواء تساوت الجملتان في عدد الكلمات أم اختلفتا، وتعد هذه الطريقة من أجود الطرق في نظر الكثير من الباحثين. (809)

ولا ننســـى دور خلفـــاء بنـــي العباس في تشجيع المترجمين وإغداق الأموال علـــيهم، إضافة إلى شهرتهم اللّغوية، والمكانة التي احتلوها في المجتمع من احترام رجال العلم والدّولة (810).

ويـــبدو أن الـــتّرجمة إلى العربيّة كانت تتم أحياناً من خلال السريانيّة، وذلك لوجـــود النســـخة الســـريانية القديمة، أو لأن الترجمة تقوم وفق مرحلتين :المرحلة الأولـــى من اليونانية إلى السريانيّة، والمرحلة الثانية من السريانية إلى العربيّة(811)، وهـــذه الطـــريقة فـــي نظـــر التوحيدي تخلُّ بخواص المعاني وأبدان الحقائق، وهذا الإخلال لا يخفى على أحد، يقول:" فلو كانت معاني اليونان تهجس في أنفس العرب مع بيانها الرائع وتصرفـــها الواسع، واقتنائـــها المعجز وسعتـــها المشهورة، لكانت

الحكمــة تصل إلينا صافية بلا شوب، وكاملة بلا نقص.(812) " ونستنتج من حديثه أنّ الأوائل لم يتقنوا اللُغة اليونانية، وبهذا استعانوا بالسريانيّة لترجمتها وفهم ما يراد من كلامهم وعلمهم.

نقــل إليـــنا التوحـــيدي الكثـــير مـــن أقوال علماء وحكماء اليونان وغيرهم كارســـطاطاليس وبطلـــيموس وأفلاطـــون وبقراط وديوجانس وغيرهم ممّا لا يمكن استقصاؤه، فالذي يتبادر إلى أذهاننا الآن هل كان التوحيدي يعرف اللُغة اليونانيّة أو غيرها من اللُغات حتى حشد لنا الكثير من أقوال وآراء هؤلاء الحكماء والعلماء، أم استند إلى ما تُرجم في زمانه من كتبهم وأقوالهم ؟

وأيّـــا كانت الإجابة فإنّ مؤلفاته ضمت هذه النقولات، ويمكن أن تدلّ على أنّ التوحـــيدي قرأ لهؤلاء الفلاسفة، وأخذ من كتبهم ما وقعت عليه عينه ويده، ومن هنا نـــرى أن كتبه كانت ملتقى لجميع الثقافات في القرن الرابع الهجري في بغداد سواء الثقافة العربية أم الثقافة اليونانيّة مع وجود ثقافـــات لشعوب أخرى فـــي ذلك الوقت (813).

ومـــن الأقوال المترجمة التي نقلها: "قال أرسطاطاليس فيما ترجم من كلامه عيســـى بن زرعة المنطقي البغدادي أبو علي، الإنسانية، أوالإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع، ودائر على مركزه... "(814)

واطلعـــنا التوحـــيدي علـــى بعـــض أمـــثال وحكـــم الفرس واليونان والهند المـــترجمة، فكـــتابه "الإمتاع والمؤانسة" و"الصداقة والصديق" و"البصائر والذخائر" تزخـــر بهذه النقولات التي جاءت شاملة في الموسيقى والغناء والصداقة وفي العلوم الطبيعية والفلسفية (815).

ومـــن أشهر المترجمين الذين توقف عندهم التوحيدي ونقدهم، يحيي بن عدي المنطقـــيّ الذي اشتهر بكثرة تأليفه ونقله من السريانيّة واليونانيّة إلى العربيّة، وكان رئـــيس المناطقة في زمانه، فأخذ العلم عن بشر بن متى والفارابي، وقد عمّر إحدى وثمانيـــن ســـنة، وكـــان فيها ذا حركة دائبة، وألّف مقالات كثيرة في المنطق وفي الإلهـــيات، ومـــات فـــي بغـــداد سنة 364، ووصفه التوحيدي بأنه:" كان شيخا ليّن العـــريكة، مشـــوه الترجمة رديء العبارة، ولكنه كان متأنيا في تخريج المختلفة...

وكان مبارك المجلس.(816) " لقد أتهمه التوحيدي أنه مشوه التّرجمة ورديء العبارة، ونـــرى وجود نقد لاذع -عند التوحيدي- للمترجمين وللنصوص المترجمة على حد سواء.

وأمـــاّ أبـــو علـــي إسحاق بن زرعة النصرانيّ الذي اشتهر بالمنطق وعلوم الفلســـفة والنّقل إلى العربيّة، فإنه" حسن التّرجمة صحيح العبارة وكثير الرجوع إلى الكتـــب محمـــود النقل(817)." نرى التوحيدي يفضله على يحي بن عدي في الترجمة والنقل.

كذلـــك ابن الخمّار وهو أبو الخير الحسن بن سوار، وكان طبيبا نصرانيّا وقد نقـــل كتـــبا كثيرة من السريانيّة إلى العربيّة، وصفه التوحيدي بأنه "مرضي الترجمة والنقل، وكثير التدقيق(818)".

وكـــان القـــس نظـــيف النفس الرومي عالما جيّدا في النقل من اليونانية إلى العربـــية، وهـــو من أفاضل الأطباء في بغداد، عيَّنه عضد الدَّولة على البيمارستان الـــذي أنشأه ببغداد، وقال فيه التوحيدي:" ويده في الطب أطول ،ولسانه في المجالس أحول، ومعه رفق وحذق في الجدل (819)."

وقـــد عُـــرِفَ عـــن بشر بن متى القنّائي بأنه عرف النَّقل من اليونانية إلى الســـريانية ومـــن ثـــمّ إلى العربيّة كما يبدو من حديث التوحيدي عنه، وقال بشر إنَّ الـــتّرجمة قد حفظت لنا تراث اليونان، وإن كانت لغتهم قد اندثرت وبادت في نظره، حيث قال:"حفظت الأغراض وأدّت المعاني وأخلصت الحقائق.(820)"

ويـــبدو مـــن حديـــث التوحيدي أنَّه يشكك في التَّرجمة على لسان أبي سعيد السيرافي قائلا:" إذا سلّمنا لك أنّ التّرجمة صدقت وما كذبت، وقوّمت ما حرّفت ... ولا تعصّـــبت ولا قدّمـــت ولا أخّـــرت، ولا أخلّتْ بمعنى الخاص والعام(821)." بهذا نســـتدلُ على أن بعض الترجمات لا تخلُ من الهِنَات والعَثَرات، أو يكون فيها بعض الزيادة أو النُّقصان.

ولا شـــك في أنَّ كثيرين قد عنوا بالتّرجمة ببغداد واشتهروا بِها ، ونقلوا إلى العربـــيّة معظم ما كان معروفا من علوم وفنون وآداب الأمم الأخرى، فهم لم يتركوا

لســانا من ألسنة الأمم المعروفة دون أن ينقلوا منه شيئا وإن كانت معظم ترجماتهم عــن الفــرس والهــند والــيونان، وأكثر ممّا ترجموه في الطّب والهندسة والفلسفة والمنطق والموسيقا والنُجوم والحساب.(822)

الفصل الخامس

الحركة الدِّينية

تنوعــت المذاهــب والــنِّحل فــي بغداد، ففيها المسلم واليهودي والمجوسي والنصــراني، كذلــك الملحد والدّهري، والشيعي، والمعتزلي، والمرجيء، الخرمي، والسـنّي، فكلّ فريق من هؤلاء يتعصب لعقيدته ومبدئه، ويعمل على نشره في بغداد ومــا يجاورهــا لتكون له الغلبة والقوة، وآية ذلك ما وصفها به آدم متز بقوله:" إن جمــيع الحــركات الروحــيّة في مملكة الإسلام تتلاطم أمواجها في بغداد، وكان بها لجمــيع المذاهــب أنصار، ولكنْ أبرز حزبين كانا بها في القرن الرابع الهجري هما الحزبان المتشددان في التّمسك بمذهبيهما وهما الحنابلة والشيعة " [823].

يــتوقف التوحــيدي عــند هــذه الفِرق معلناً أنها سبب أغلب الاضطرابات والفوضت التي حدث في بغداد آنذاك، فهي من وجهة نظره دائمة التّنافر والتّعصب، حــتى اســتبيح الــدّم والمال، ويقول الوزير ابن سعدان واصفاً هذا الأمر في سؤاله للتوحــيدي عن سبب اختلاف المذاهب والفرق:" من أين دخلت الآفة على أصحاب المذاهــب حــتى افــترقوا هذا الافتراق، وتباينوا هذا التّبايُنَ، وخرَجوا إلى التكفير والتّفســيق وإباحــة الــدّم والمــالِ وردِّ الشّهادَةِ، وإطــلاقِ اللسان بالجرح والقذْع والتّهاجُر والتّقاطُع"[824] .

فأجــاب التوحيدي بأنّ" المذاهبَ فُرُوعُ الأدْيان، والأدْيان أصولُ المَذاهِب فإذا ســاغ الاخــتلافُ فــي الأديان _ وهي الأصول _ فلِمَ لا يَسوغُ في المذاهبِ وهي الفروع "[825].

وقد نبه التوحيدي إلى نتائج تعدد هذه الفرق فقد صار النّاس أحزاباً في النِّحل والأديــان، وفشا التّعصب للمذاهب وانتشرت الفتن والحروب فيما بينها حتى خربت بغــداد، ويشــير بــأن الصــفة الأساســية الملاصــقة لهذه الفرق هي كثرة الجدل والمناظرات حتى طال القيل والقال وفشا فيما بينها، وبعد إبرازه لهذه النتائج السلبية تــابع حديثه بذكر هذه الفــرق قائــلاً: "فهذا نُصَيْــرِي[826] وهــذا أشجَعيّ وهــذا جارُودِيّ[827]، وهذا قَطْعيّ[828]، وهذا جُبَائيّ، وهذا أشعَرِيّ[829]، وهذا خارحيّ وهذا

شُعَيبي"[830]، وهذا قَرمَطي"[831]، وهذا راوَنْديّ [832]وهذا نَجّاريّ[833]، وهذا زَعْفَرَاني"[834]، وهذا قَدَرَيّ[835]، وهذا جَبْرِيّ [836]، وهذا لفظيّ، وهذا مستدْرَكي"[837]، وهذا حارَثيّ [838]، وهذ رافِضِيّ، ومن لا يحصى عَدَدَها إلاّ الله الذي لا يُعجِزُه شيء"[839].

ويفسر التوحيدي سبب ثورة العيارين سنة 362هـ بقوله:" وطائفة وجدت فرصتها في العَبَثِ والفَسادِ والنّهب والغارة بواسطة التّعصبِ للمذاهب"[840]، وبهذا صارت بعض المذاهب والفرق تحمي الثوار وتواليهم، فيقول إن أسود الزبد بعد ما أغار ونهب ذهب إلى نقيب الشّيعة ببغداد، أبي أحمد الموسوي، واحتمى به وصار من رجاله[841]، وهذا الفعل يدّعم الآراء والأقوال المنتشرة بأن المذاهب هي وراء الثورات الدّامية التي بثت الرُّعب والخوف في قلوب النّاس في بغداد وغيرها [842]

ونرى أنّ بغداد قد غلب عليها التّعصب المذهبي والدّيني الأمر الذي ساهم في إخلال الأمن والاستقرار فيها، فهي تعاني من قلق ديني دائم ومستمر ما دامت هذه الفرق والملل قائمة فيها.

فقد كانت ديانة الإسلام هي الدّيانة الرسميّة المنتشرة في أرجائها[843]، إلا أنها لم تسلم من سّهام النقد والمعارضة التي سددت نحوها من قبل الدّيانات والفرق الأخرى التي ظهرت نتيجة الاختلاط والامتزاج مع الأمم الأخرى، وكان الهدف من ذلك هو تشويه صورة الإسلام ، ومن هنا ظهرت الشيّعة التي تناور السنّة، وكثيراً ما تحدث الحروب والفتن فيما بينهما، وعلاوة على ذلك الزندقة قد تخفّت وراء شعار المجون والظرف ودعت إلى الإباحية والابتعاد عن الإسلام وانتهاك حرماته، كذلك المعتزلة، والحنابلة الذين كانوا يثورون بين الفينة والأخرى بسبب الظروف الاجتماعية السيئة السائدة في بغداد مثل انتشار شرب الخمر وكثرة الجواري الماجنات وشيوع الغناء.

ونتيجة لهذه الصراعات والظروف السيئة ظهر المتصوفة والزّهاد في هذه الدُّنيا الفانية، داعين إلى الانقطاع إلى عبادة الله تعالى، والابتعاد عن كل محرمات الحياة، فقد كان الإسلام لا يقوى على تحمل هذه السّهام التي توجّه إليه وتهدد وحدة

الأمـــة الإسلاميّة فهو ينازل ويحارب هذه الفرق جميعها على صعيد واحد، وأصبح ســكان بغداد من الخاصة والعامة منقسمين إلى أحـــزاب سياسية لا تنفك عن مناوأة بعضها بعضا[844].

والســؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا الآن ما هو موقف التوحيدي من هذه الفرق؟ و إلـــى أيّـــة فرقة ينتمي ويتعصّب؟ وقبل الإجابة عن هذا السؤال لا بدّ من الحديث الموجز عن مبادئ هذه الفرق ودعوتها.

1.5 السنَّة:

كانـــت منتشـــرة فـــي معظم بغداد، وتسيطر على الخلافة العباسية في بغداد وغـــيرها، فهـــي المذهـــب الوحيد الذي ينادي بمبادئ الإسلام وقيمة وتقف في وجه المذاهب الأخرى المناوئة لها وتحاربها وتدافع عن قيمها ومبادئها.

ومـــن الحقـــائق المســـلّم بهـــا بـــأن يـــتولى الخلافة مسلم سني مهمته تنفيذ الأحكـــام الشرعيّة وفروضها، وحماية حدود بلاد الإسلام والدّفاع عنها وغيرها من الأمـــور الماليّة والمهام التي تفرضها الشريعة الإسلاميّة، ويعيّن الخليفة عن طريق البيعة أو بعهد من الخليفة السابق، ولا يشترط فيه أن يكون أعلم المسلمين[845].

وتعدّ السنة أساس التشريع، فإذا لم يجدوا نصاً في القرآن الكريم في مسألة ما يلجـــأ الفقهـــاء وأئمة الدّين إلى السنّة وأحاديث الرّسول صلى الله عليه وسلم، ولكن ينبغـــي علـــى هؤلاء تمييز الأحاديث الصحيحة من الأحاديث الموضوعة التي فيها كـــذب وتلفـــيق[846]، وهـــذا طريق صعب وشائك، بخاصة في هذا القرن الذي نحن بصـــدد دراسته حيث كثرت فيه الأحاديث الموضوعة بسبب تعدد الفرق، التي شنت غـــارة علـــى أهـــلْ السُنّة، وأصبح كل فريق يأخذ الأحاديث التي تتمشى مع مذهبه ومـــبادئه، وكذلـــك وقـــع الخلاف الذي سببه كثرة النِّحل، وتعادى المسلمون وكفّر بعضهم بعضا، وأتوا بطعون شديدة ضد أهل السُنَّة[847].

ويعـــدُّ التوحيدي السُنَّة النبوية ثاني منبع لـــ" أمهات الحكم وكنوز الفوائد" بعد القـــرآن الكريم، يقول:" فإنها السبيل الواضح، والنَّجم اللائح، والقائد الناصح والعلَم

المنصـــوب، والأمَمُ المقصود، والغاية في البيان، والنِّهاية في البُرّهان، والفزع عند الخصام، والقدوة لجميع الأنام" [848].

والمعــروف أن أي فترة زمنية أو أي عصر لا يعدم الفقهاء المجتهدين الذين يشرّعون للمسلمين على أساس القرآن الكريم والسُّنّة النبويّة فيما يستجد من أمور في المجــتمع الإســلامي عن طريق فتاوى يصدرونها وفق اجتهاداتهم العقلية، ومن هنا ظهرت عدة مذاهب انتشرت في أرجاء العالم الإسلامي، وكان لها كثير من الأشياع والأتباع الذين يتعصّبون لها وينشرون مبادءها بين النّاس، وهذه المذاهب هي مذهب أبي حنيفة المتوفى سنة 150هــ ببغداد، ومذهب مالك بن أنس المتوفى بالمدينة سنة 179هـــ، ومذهــب الشــافعي المــتوفى بمصر 204هــ، ومذهب أحمد بن حنبل البغدادي المنشأ وتوفي فيها سنة 241هــ[849].

وقد أطلعنا التوحيدي أيضا على أقوال وآراء هذه المذاهب في الفقه والتّشريع الإسلامي، ويمكننا أن نسلّم بأنَّ هذه المذاهب قد سادت ببغداد، ومن هذه الأقوال: ما قالــه هؤلاء الأئمّة الفقهاء في نجاسة الكلب، حيث قال الشافعي: "يوجب غسل الآنية من وُلُوغهِ سبعَ مرَّات، أولاهنَّ أو أُخرهُنَّ بالتُّراب، وأبو حنيفة يواطئهُ على النَّجاسة ولا يغسلُ هكذا، ويرى له ثَمناً، والشافعي يرى لهِ قيمةً لنجاسةِ عينه، ومالكٌ يرى أنَّ الكلــبَ طاهــرٌ ولحمه مأكولٌ...[850]" ويعقّب التوحيدي على هذا الكلام بأن "وجوه اخــتلاف الفقهاء متقاربة وأدلّتهم مُستَوسِقة"، وإنما البلاء وأصل الاختلاف في نظره هو من أصحاب الكلام، "الذين يظنّون أن التوحيد لا يصحُّ إلاّ بنظرهــم والــدّين لا يثبت إلا بنصرتهــم، والحق لا يِعرف إلا بمقــاييسهم" [851]. وهذا مجرد مثال على مــا ذكــره التوحــيدي مــن أقوال الأئمة الأربعة التي يمكن بها أن نخلص إلى أن التوحــيدي اطّلع عليها أو نقل أقوالهم من المجالس التي كان يحضرها أو من خلال مهنة الوراقة التي باشرها.

ويبدو أن التوحيدي يتعصب للسُّنّة في أغلب الأحيان، فهي بنظره ثمرة النُّبوة، وأشرف من الأدب، وكما اعتبرها الجامعة للأدب النبوي،والأمر الإلهي[852]. وقدمها أيضـــا على إنّها علم من أصناف العلوم التي أشار إليها في رسالته المسمّاة برسالة

العلـــوم، فهـــي مـــتممة لكـــتاب لله تعالى وتالية له في "حدوده ورسومه، وأسمائه، ومعانيه، وأسبابه، وأغراضه[853]..."

2.5 الزندقة:

الزندقة في الإسلام هي الخروج عن دين الإسلام مع اعتقاد الكفر سواء أكان الخـــروج علـــناً أم سراً، وقيل إنَّها أُطلقت على أشخاص وآراء ومواقف كان هدفها محاربـــة الإســـلام، وأطلقت على من بدل دين الإسلام بآخر ومن طعن في القرآن، وعلـــى مـــن أنكر التوحيد، وقال بوجود إلهين: إله للنور وإله للظلمة، وأطلقت على الدَّهريّة والمانويّة وأهل المجون والظرف، فهي تدعو إلى الإباحية والتّهتك، والطّعن في الدّين الإسلامي والنّبوات، والتشكيك في التّعاليم الإسلاميّة[854] ، وهي تشمل كل مـــن جاهر بالعصيان والفسق. والزندقة انبعثت من الشعوبيّة فيقول الجاحظ: "ثم إنّك لم ترَ قوماً أشقى من هؤلاء الشعوبيّة ولا أعدى على دينه ولا أشدّ استهلاكاً لعرضه، ولا أطـــول نصيباً ولا أقل غنماً من أهل هذه النِّحلة [855]". ولذلك فأن الزندقة كانت من أعظم الأخطار التي تهدد الإسلام، لأن أصحابها يتظاهرون بالدّين، ويسعون إلى تدمـــيره فـــي الباطن، وقد أطلقت لفظة زنديق على كلٍّ من لا دين له وعلى الملحد أيضا [856].

والـــزندقة في نظر التوحيدي هي الإلحاد والخروج عن الدّين، يقول: "إن الآفة دخلـــت على الدّين من قوم دهريّين وملحدين" والذين هم عنده " ركبوا مطيه الجدل والجهـــل، ومـــالوا إلـــى الشـــغب بالتّعصـــب، وقابلوا الأمور بتحسينهـــم وتقبيحهم وتهجيـــنهم .."[857] وكثـــيراً ما وجدناه يطلق هذه اللفظة على من يكرهه وينعته بأنه زنديق وملحد، أو على الكلام الذي لا فائدة منه كقوله " كلام الزنادقة " [858] .

مـــن خـــلال قراءتـــي لترجمة التوحيدي، وجدت ان بعضاً من المترجمين له يشـــككون في عقيدته، ويرمونه بالزندقة، أمثال ابن الجوزي، الذي قال: "إنّ زنادقة الإســـلام ثلاثة وهم: ابن الراوندي، وأبو العلاء المعري والتوحيدي" [859]. في حين رأى آخـــرون رأيـــاً مخـــالفاً لذلك ونفوا عنه هذه التّهمة التي لا تستند إلى دليل أو حجـــة[860]، فالتوحيدي لم يذكر شيئا من كلام الزّنادقة أو مبادئها في مؤلفاته، فهو

كـــان يُكثر من أحاديث الزُّهَّاد والمتصوفة، ونجد أن الصبغة الصوفيّة قد طغت على مؤلفاتـــه، وفـــوق ذلـــك فإن الزّنديق أو الملحد الذي يجاهر بعدائه للإسلام وتشويه معالمـــه وصورته لا يستطيع أن يؤلف كتابا ككتاب الإشارات الإلهية الذي يناجي به ربـــه، ويدعـــو فـــيه إلـــى غفـــران ذنوبه، حاثا فيه نفسه على الزّهد في هذه الدّنيا والانصراف عن مقاعها.

3.5 المعتزلة:

ويســـمون أنفســـهم أصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدّريّة والعدليّة، وذلك لأنّهـــم قـــالوا إن لفـــظ القدريّة يطلق علـــى من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالـــى [861].

وارتـــبط اسم المعتزلة بموقف واصل بن عطاء الذي اختلف مع أستاذه الحسن البصري بشأن مرتكب الكبيرة وفي القدر، فكانت الحلول المعروضة لمرتكب الكبيرة غير مرضيّة للجميع، وظنّ واصل بن عطاء إنّ في مقدوره أن يجيء بحكم خير من الأحكـــام التي صدرت بشأن مرتكب الكبائر، فقرر أنه لا مؤمن ولا كافر بل هو في المنزلة بين المنزلتين: الإيمان والكفر، ولهذا أبعده الحسن البصري هو وجماعته من مجلسه، فاعتزلـــوا إلى سارية من سواري مسجد البصرة، فقيـــل له ولأتبـــاعه اسم المعتزلـــة [862].

والعـــدل في نظرهم ينفي القدر، إذ يقولون إن الإنسان هو موجد أفعاله تنزيهاً لله تعـــالى على أن يضاف إليه الشّر، وأما التوحيد عندهم فهو نفي الصفات القديمة والدّفاع عن وحدانية الله عز وجل، فقالوا: "إنّ الله هو عالم بذاته، وقادر بذاته،وحيّ بذاته"، واتفقوا على أن كلامه محدث ومخلوق[863] .

وتمـــيزت هذه الفرقة بخمسة أصول، وهي: التوحيد وهو الإيمان بوحدانية الله تعـــالى، والعـــدل هـــو تنزيه الله عن كل قبيح، وان أفعاله كلّها حسنة، والمنزلة بين المنزلتين والأمر والمعروف والنهي عن المنكر والوعد والوعيد أي أن يفي بما يعد سواء من الثواب أو العقاب[864] .

ووصــف التوحــيدي كــلام المعتزلة وجدلهم بــ" التشقيق والتمطيط والدّعوى والإعــراب، والعصــبية، والتشيع [865]". ويذكر في موضع آخر إنهم " ادّعوا العدل وعملــوا بــالجور، وأمروا بالمعروف وركبوا المنكر، ودعوا الناس إلى الله بالقول، ونفّروا عنه بالفعل، ولم يرجعوا فيما نصروه، وذبوا عنه إلى ورع ظاهر[866]" فينكر مــا ذهــبوا إليه من الأصول التي نادوا إليها، ويبدو أن موقفه من المعتزلة جاء من موقفه من الوزير الصاحب بن عباد الذي غلب عليه مذهب الإعتزال [867].

ونــبه التوحــيدي على قضية أثارها المعتزلة، وهي قضية خلق القرآن الكريم، فهــم يــنفون أن يكون القرآن الكريم قديماً، بل القديم هو الله تعالى وحده لا يشاركه بهــذه الصــفة أحــد، فالقول بأن القرآن كلام أزلي ينفي التوحيد الذي دافعوا عنه، وعــدوه قضيتهم، ومن هنا عُدَّ القرآن محدثا ومخلوقا،[868] وروى التوحيدي حواراً بيــن جعفــر بن محمد بن حرب أحد المعتزلين، وأبي الهذيل، حيث سأل الأول أبا الهذيــل عمّن لم يقل من العامّة القرآن مخلوق أيكفر ؟ فأجاب: لا، ثم قال: والسماء ليســت مخلوقــة، أيكفر؟ قال: نعم، قلت: وما الفرق ؟ فقال: لأن الأول مختلف فيه، والثانــي مجمع عليه[869]. وعلّق التوحيدي على هذه الرواية قائلاً:" وأرى المعتزلة فــي دهــرنا يتسارعون إلى التكفير كتسارع المورد إلى المنهل وما أدري ما بعثهم على ذلك إلا سوء الفسق والهتك، والله تعالى لهم ولكل من سلك سبيلهم"[870] .

ومن أقوالهم التي نقلها إلينا التوحيدي قول الإسكافي، وهو من أئمة المعتزلة، وإلــيه تنسب الفرقة الإسكافيّة وتوفي سنة 240 هــ:" يجوز ان يكون الإنسان قاعداً قائمــاً، ومــتحركاً ساكناً"، فلم يعجب هذا الكلام التوحيدي بأن قال "إنّ هذه الطائفة اتبعــت آراء مشــوهة، وأهــواء فاســدة، وخواطر لم تخمر وفروعاً لم يؤسس لها أصول"[871].

وممّا سبق نجد أن التوحيدي لا يعترف بكلام المعتزلة،ولا ينتمي إلى مذهبهم كمــا ظنّ بعض الباحثين الذين ظنوا أن لقب التوحيدي جاء من المعتزلة، الذين لّقبوا بــأهل العــدل والتوحيد، صحيح أن التوحيدي تحدث عن التوحيد في ثنايا مؤلفاته،

ولكن هذا الأمر لا يعني أنه كان على مذهبهم بل إنه كان شديد الهجوم على المعتزلة وأصحاب الكلام، ويتهمهم بالتخبط والعشوائية.

4.5 التشيع:

يعدُّ التَّشيع من أقدم الفرق الدِّينية في الإسلام، وأبرزها أثراً في الحياة السياسية، فأساس التّشيع هو الاعتقاد بأن عليّا وذريته أحق بالخلافة نصا ووصية، وأن لا تخرج الخلافة من أولادهم، ويعدُّ العراق هو الموطن الأصلي للتّشيع، وخاصة منطقة الكوفة وهم ثلاثة فرق: الإمامية، الذين استمروا على الاعتقاد بالخلافة "الإمامة"، والأخرى الزّيدية وهم اتباع زيد بن الحسين بن علي، وتنادي هذه الفرقة بإمامة المفضول مع وجود الأفضل، أي أن عليا أحق بالخلافة، وفي الوقت نفسه يقبلون خلافة أبي بكر، والفرقة الثالثة الكيسانية، نسبة إلى مولى علي بن أبي طالب، واسمه كيسان، دعا إلى هذه الفرقة المختار بن أبي عبيد الثقفي (872).

وأساس الخلاف بين الشيعة وغيرهم من الفرق هو مسألة الخلافة لمن تكون، فهم ينادون بأن الإماميّة تكون بالنّص لا بالانتخاب وأن محمداً صلى الله عليه وسلّم نصّ صراحة على علي بن أبي طالب، وإنهم يوجبون العصمة للإمام، فهو رئيس المسلمين ومعلمهم بفضل ما وهبه الله من صفات، وبحكم وراثته لرسول الله صلى الله عليه وسلّم(873).

والفرق بين السُّنّة والشّيعة في أمور تتصل بالعقيدة ومثال ذلك معرفة الله تعالى هل هي بالعقل أو بالشرع؟ فذهبت الشيعة بأن معرفة الله تجب بالعقل لا بالشرع، أي أن الذي أوجب على الإنسان أن يعرف خالقه، فأما أهل السُّنَّة ذهبوا بأن معرفة الله تجب بالشرع لا بالعقل،أي أن الله وحده هو الذي أوجب على النَّاس أن يعرفوه، والفرق الآخر هو بتعيين الإمام كيف يتم؟ هل بالانتخاب أو بالنص؟ واختلفوا أيضاً في فهم بعض آيات القرآن الكريم، وإن اتفقوا بأن الدّين عندهم هو الإسلام، والطريق إليه هو الكتاب وسنَّة نبيه، واتفقوا أن الكتاب هو المصدر الأول من مصادر التشريع(874).

ويقـــبل الشّيعة الأحاديث التي رواها أهل السُّنّة خاصة التي تؤيد مذهبهم ولا تعارضــــه، ومما ينبغي قوله إن الشيعة لا تعارض أهل السُّنّة بصفتهم منكرين للسُّنّة بل بصفة أنهم أولياء أهل البيت [875].

ويقـــول آدم مـــتز: إنّ الشيعة لم يكنْ لهم مذهب كلامي خاص بهم في القرن الـــرابع الهجري، فقد كانوا من حيث العقيدة والمذهب ورثة المعتزلة[876] لأنهم كما صرّح المقدسي يوافقون المعتزلة في أكثر الأصول[877] .

وذكر التوحيدي أن الشيعة نادوا بالبَدَاء وزعموا أن أصل هذا القول نشأ عن المختار، فإنه كان يَعِدُ أصحابه بالنّصر والظفر، وإنّ الله تعالى هو الذي أخبره بذلك وعندما هزم أصحابه قالوا له لماذا تَعِدُ بالنصر على عدونا ، فقال: إنّ الله تعالى كان قد وعد في ذلك لكنه بدا له[878] واستشهد على ذلك بقوله تعالى: (يمحُو الله ما يشاءُ ويُثْبِتُ) [879] فهذا كان سبب القول بالبَداء، أي بمعنى بدا الله ، بدلا من القول أخلف الله. والصـــفة الأخـــرى التـــي اتصـــفت بها الرافضة أو الشيعة والتي أطلق عليها التوحـــيدي لفظة "الحيلة" وهي التقية وتعني أن تقول أو تفعل خلاف ما يعتقد وتؤمن بها، حفاظاً على نفسك ومالك وكرامتك كما لو كنت بين قوم أو فئة لا تدين بما تدين وعُـــرف عنهم التّعصب والمغالاة بمذهبهم، فإنّكِ تقوم بمجاراتهم بالقول والعقل وألا هلكت وعرضت نفسك للتهلكة [880].

والرّافضة في نظر التوحيدي ينادون بأشياء لا حقيقة لها كالإمام المنتظر، فإن من عجائبهم" تشريف علي، ونشر فضائله، والاقتداء بأفعاله"[881] وأخذ عليهم تفضيل مذهبهم على غيره من المذاهب، حيث قال أحد زعماء الشيعة: إننا نفضل الأمة لأنها "تمنّت كلها أنها منّا، ولم تتمن أنّا منها "[882]

وأشـــار فـــي موضـــع آخر إلى أن مذهب الرافضة يقوم على "سبِّ السلف وتضليل الأمة وثلب الصالحين، وتكفير السابقين وتدنيس الظاهرين[883] "

لعـــل من أهم الأسباب التي دفعت التوحيدي إلى بغض كل من الصاحب بن عـــباد وابن العميد "أنهما كانا في شعار إمام الرافضة وعصمته المعروفة"[884] وكان يـــبغض كـــل مـــن يناصر الشّيعة ويلعن الصحابة، فهو دائم الهجوم على المذاهب

جميعها وخاصة مذهب الشيعة، وكان سبب تحامله على مسكويه المؤرخ ليس حسداً لــه علــى علــم أو قرب من الدولة بل لتشيعه[885]، وتقربه من ابن العميد فيقول: "والتشيّع بذكر الرّجال واضع من قدر الرجال[886]".

ويــبدو أنّ ثــورة أبي حيان على هذه الفرق لم تكن إلاّ من النّاحية المذهبيّة والآراء التــي تنادي بها، أما من الناحية الفكرية والأدبية فإننا نجده عاقداً للصداقات ومقــيماً للعلاقــات الطيبة مع شتى الملل والنّحل فهو كما يذكر إحسان عبّاس "واسع الصدر، كثير التّسامح"[887].

5.5 الزُّهد والتصوف:

ازدهــر الــزّهد والتّصوف في العصر العباسي بسبب تعقد الحياة والظروف القاسية التي يمر بها الإنسان، فيهرب من هذه الظروف بالانقطاع عن الدُّنيا وملذاتها وأهوائهــا إلى عبادة الله تعالى، ولاشك في أن بعضاً من الزهاد قد أقبلوا على الزُّهد والتّصــوف إيمانــاً بالله تعالى، وبعقابه وثوابه، وهم بهذا يبتعدون عن الحياة كي لا ينغمســوا فــي شرورها وآثامها التي يحملونها معهم في الآخرة وتقودهم إلى عذاب جهنم[888].

والــزُّهد يعــتق النّفس الإنسانيّة من رِقِ الدُّنيا وعبوديتها ويستريح من ثقلها وأعــبائها، ويــنجو بذلــك الزاهد من آثامها وشرورها، ويصبر على منع نفسه عن شــهواتها الدّنــيوية، ممّا يوصله إلى خيرات الآخرة، ويظفر بالفوز والنّعيم والجنة، فالزهد راحة للإنسان من كل مستهجنات الحياة[889].

ويقصــد بالزهد أيضاً أن تكون حال الإنسان في المصيبة تماما كحاله إذا لم تصــبه، وهــو ثلاثــة أصناف: الأول الزّهد في الحرام، والآخر الزّهد في الحلال، والصنف الأخير هو السلامة أي الزهد في الشبهات، وبهذا يكون للإنسان أجران في الآخــرة أجــره في قمع نفسه والصبر على ذلك، والأجر الآخر هو الزّهد في الدنيا وبملذاتها [890].

وقيل" إنّ "الدُّنيا والآخرة كضرتين، رضا إحداهما في سخط الأخرى، وإنّهما بمنزلة المشرق والمغرب، ومن استقبل إحداهما استدبر الأخرى، وإنّها بمنزلة كفتي

الميزان رجحان أحدهما بنقصان الآخرى." [891] فالدُّنيا والآخرة لا يمكن أن يجتمعا علـــى أي حال من الأحوال في كفة واحدة، فإذا أراد الإنسان الآخرة والفوز بالجنة يبتعد عن الدّنيا الملونة بألوان زائفة تخدع الناظر فيها، وأما الذي يتكالب عليها فإنه يكـــون مشغولاً عن الدّين والآخرة بالركض وراء مصالحه الدّنيويّة التي قد تحقق له السـعادة فـيها، لكـنه في النهاية قد يشقى في الآخرة وذلك لأن الإنسان كما يقول التوحـيدي: "صغير الحجم، ضعيف الحول، لا يجمع بين شهواته وأخذ خطوط بدنه، وإدراك إرادته، وبين طلب السعي في طلب المنزلة عند ربه، بأداء فرائضه، والقيام بوظائفه[892]." والزّاهد في نظر التوحيدي كما نقله عن السلف هو من "خلع الرّاحة، وبـذل الجهـد، وقطع الأمل والثقة بالله، والتبرؤ من الخلق، والإخلاص في العمل، واحتمال الذُّل [893]."

وقـد كـان الزّهاد على طبقات منها، جماعة من الفلاسفة، وطوائف من أهل الأديـان والمذاهـب والأهواء ، وفي الإسلام قوم سموا أنفسهم بالصوفية الذين حرّم قوم منهم المكاسب.[894] "

ويلاحـظ أن التوحيدي معجب بكلام الزّهاد والمتصوفة ولهذا السبب نقل إلينا الكثـير مـن أقوالهم وآرائهم قائلاً: "ما أحوجنا إلى عالم منطيق يكشف لنا كلام هذه الطائفـة، وسأسـوق إليك من غرائب ألفاظ الصوفية وبدائع النُّساك، ومحاسن كلام أربـاب المقالات وطرائف ما لاح لذوي الآراء والدّيانات على غير إطالة مملة، ولا إيجـاز مخـل، مـا يكون غُرة هذا الكتاب [895]" فقول التوحيدي السالف يعكس لنا اطلاعـه علـى مصنفات الصوفيّة من خلال ثقافته الموسوعية وحضوره مجالس المتصوفة ومرافقته لهم.

وعلاوة على ذلك فقد ذكر التوحيدي على لسان أبي حامد القاضي: "أن الزّهد في الدّنيا لا يصح؛ لأن الإنسان خُلق منها وليمعرها ويسكن فيها فلا يمكن أن ينسلخ أو ينفصـل عنها، فمن يقوم بعمارتها والعمل من أجل إحيائها، وبهذا يرى أبو حامد بـأن الزهد " إصلاح القلب بحسن النيَّة في الخير، وبَذْلِ المجهود (أي بذل المحمود من الوجود) من الموجود، لِمَنْ يَحْسُنُ معه الجُود"[896] .

أمـــا التَّصـــوف فهــو مرحلة متطورة عن الزّهد، ويتجلّى في العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن الحياة، وقد بدأت مقدمات التّصوف تظهر في أواخر القرن الثاني الهجري، وكانت نشأته بسيطة وساذجة ثم أخذ يتطور تبعاً للفلسفات التي أخذت تزدهر في القرن الرابع الهجري بعد تسرب عناصر العقائد والـــثقافات الغربـــية كالبوذية والهندية، إذ كانت مرحلته الأولى مرحلة خوف وزهد وتعبد لله قبل أن يتعقد [897].

والتّصوف اسم يجمع أنواعا من الإشارات وضروباً من العبادة، وجملة ما فيه التذلل للحق والتعزز على الخلق[898].

ويعنـــي التصوف في نظر التوحيدي "علم يدور بين إشارات إلهيّة وعبارات وهميّة وأغراض علويّة، وأفعال دينيّة، وأخلاق ملوكيّة "[899].

وكلمة التصوف قيل إنها مشتقة من الصوف، لأن أهل الصوفيّة كانوا يلبسونه تمييزاً لهم عن أهل الرفه والنّعيم، وقيل إنّها من الصفاء أو من الصُّفّة نسبة إلى أهل الصـــفَة الذين كانوا ينقطعون للعبادة في مسجد رسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة، ولكـــنْ جميع الآراء اتفقت على أنها نسبة إلى الصوف الذي كان زهّاد القرن الثاني الهجـــري يلبســـونه، وشاع بين الصوفيّة بعد ذلك[900]، ونجد أبا حيان يصرّح أمام الوزيـــر ابـــن سعدان أن من أهم الأسباب التي قربته من أحد غلمان البويهيين هي "مرقعـــته وناسومته"[901] أي دلالة زيه على أن الصوفي يرتدي ثيابا بالية رثة عفى علـــيها الزّمـــن، غالـــبا مـــا تكون من الصوف، وكما تدلُّ هذه العبارة على شغف التوحيدي بالصوفيّة هي التي دفعته إلى الإعجاب بهذا الصوفي.

ومـــن الأمـــور التـــي ينبغي التوقف عندها وصف التوحيدي لحالة جماعة من الصوفيّة، الذين كانوا يأوون إلى دويرة لا يبرحونها فتارة يقرأون، وأخرى يصلّون، وتـــارة ينامون، وتارة يهذون، وكان الجوع يعمل عمله، وكانت الكدية وأحاديث آل ســـامان مدار حديثهم، ويصفون أنفسهم بأنهم "قوم قد رضينا في هذه الدُّنيا العسيرة، ولهـــذه الحياة القصيرة، ،كسيرة يابسة، وخرقة بالية، وزاوية من المسجد مع العافيّة من بـــلايا طـــلاّب الدّنيا..."[902].

وثمة أمر آخر يدلّ على تشرب التوحيدي للتّصوف، هو حجّه ماشيا إلى بيت الله الحرام مع جماعة من الصوفيّة، وروى ما حدث معهم في طريق العودة في صفر سنة أربع وخمسين، حيث لحقهم جهد من عوز القوت، وتعذر ما يمسك الرّوح كما يقول(903).

ويبدو من حديث التوحيدي عن التصوف والزّهد، أنه قريب من هذه الطائفة، وأنه محب للتصوف وأهله، ويمثل التصوف أحد الأركان المهمة في تكوين ثقافته إلى جانب الأدب واللغة والفلسفة.

ولا بد من الإشارة إلى أنّ التوحيدي عرف التصوف وأهله في سن مبكرة، لكنه لم يكن متصوفاً أو اعتنق هذا المذهب، بل كان مقبلاً على الدّنيا محباً لها فيصفها بأنها "حلوة خضرة فالرفاهية فيها مطلوبة، والمكانة عند كل من ذوي الجاه والسلطة مطلوبة ومحبوبة"(904) فإن سلوكه كان سلوك أديب يبحث عن فرصة في الفوز بثمرات الدّنيا، على الرُّغم من إننا نجد كتاباته متأثرة بنبرات الصوفيّة ونفحاتهم، فهذا نتيجة تأثره بالقراءات الصوفيّة ومخالطته لهم أحياناً(905).

ونجد أبا الوفاء المهندس يعيره بصحبته لهذه الطائفة قائلاً : "أتظن بغرارتك وغمارتك "الجهل" وذهابك في فسولتك "ضعفك" التي اكتسبتها بمخالطة الصوفية الغرباء... أنك تقدر على مثل هذه الحال (906)".

فالمتتبع لحياة التوحيدي لا يجده معتنقا مذهب التّصوف، وإن غلبت عليه الصبغة الصوفيّة، وغلبت على مؤلفاته أحاديث المتصوفة والزُّهّاد، لكنّه على ما يبدو لجأ إلى التّصوف والزّهد في المرحلة الأخيرة من الحياة، بعد أن وصل إلى مرحلة اليأس والخذلان، وفقدان الأمل، وبعد أن رأى بأن معطيات الحياة لم تكن بجانبه، ولم تسعفه على تحقيق ما يريد، ويصل إلى ما يطمح إليه، لذا لجأ إلى التّصوف وألف كتابه "الإشارات الإلهية"، الذي ناجي به ربه ويدعاه بأن يغفر ذنوبه، ويقبل فيه توبته، لكننا نجد في ثنايا هذا الكتاب بعضاً من الأصوات التي تدلُّ على أن تعلقه بالحياة والدُّنيا ما زال موجوداً، ونرى الآلام والحسرة تطارده بين الفنية والأخرى ومن ذلك قوله:"...فأما حالي فسيئة كيفما قلّبتها، لأنّ الدُّنيا لم تؤاتني لأكون من

الخائضين فيها، والآخرة لم تَغْلِب علي فأكون من العاملين لها، وأما ظاهري وباطني فمـــا أشدّ اشتباههما لأني في أحدهما متلطخٌ تلطخاً لا يقربني من أجله أحـــد، وفي الآخر مُتَبَذِّخ تبذُّخا لا أهتدي فيه إلى رَشَد... "(907).

والثابـــت أن التوحـــيدي كـــان يجـــاهد نفســـه فـــي التخلُّص من أسر الدّنيا ومعضـــلاتها، ويـــتجلى ذلـــك فـــي مرحلة الصراع القائم في نفسه بين تعلقه بالدُّنيا وانقطاعـــه إلى العبـــادة، (908) والتوبة والرجوع إلى الله تعالى كما يتضح من بعض أسطر كتابه الإشارات الإلهية الذي يعدُّ من الكتب الصوفيّة ذات الصبغة الأدبيّة.

وختاماً فإنَّ التوحيدي لم يتعصب إلى طائفة أو إلى مذهب معين، فلقد أعطى نفســـه حـــريّة الغوص في جميع المذاهب، ومعرفة مبادئها وعقائدها مؤيداً لبعضها ومعارضاً لبعضها الآخر.

6.5 الخاتمة:

توقفت الدِّراسة عند بغداد في القرن الرابع الهجري إبّان تسلُّط الحكم البويهي عليها، وتعرفنا على معاناة النّاس الذين كابدوا البؤس والشقاء والذّل على يد أولئك الطُّغـــاة، وعلـــى الرغم من هذه الظروف ظهرت فئة مثقفة سجّلت لنا تلك الظروف العصـــيبة، فكـــان مـــن بينهم التوحيدي فيلسوفِ الأدباء وأديب الفلاسفة كما وصفه ياقوت الحموي.

وقدَّمـــت الدِّراســـة تمهـــيدا أوضح لنا الظروف القاسية التي مرت ببغداد في جمـــيع جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدِّينية، ومن ثمَّ توقف عند شخصـــية التوحـــيدي وطبـــيعة الظـــروف التـــي نشأ وترعرع فيها، فهي شخصيّة موســـوعية متنوعة المعارف والعلوم، وبيّنت الأسباب التي كوّنت شخصيته الثقافيّة والعلمـــيّة فمن أهمها حرفة الوراقة، وحضوره المجالس الأدبيّة والعلميّة التي كانت تعقد في عصره ببغداد وغيرها من حواضر مشرق العالم الإسلامي.

وبيِّن لنا الفصل الأول من الدّراسة بعضا من الجوانب الاجتماعية التي كانت ســـائدة في بغداد وتوقف عندها التوحيدي، فمن أهمها الفئات التي تقاسمت المجتمع الـــبغدادي وهما فئتان: الخاصّة والعامّة، وتوقفت عند طبيعة الحياة التي تعيشها كلُّ

منهما، وأهم العادات والتقاليد التي تمتاز بها كل فئة، وكشفت أيضا بعضا من مظاهر الفساد الأخلاقي الذي انتشر في أرجاء بغداد، ومن ثمّ تناولت فئة اجتماعية ظهرت متمردة على الأوضاع السياسية والاقتصادية السيئة وتعلن الرّفض وهي فئة الشطار والعيّارين.

وعرض الفصل الثاني الظروف السياسية التي ساهمت في إضعاف السلطة في بغداد، وسبب تدهور الحياة السياسية المتمثلة بالحكام والخلفاء، والوزراء والأمراء الذين كانت تهمهم المصالح الشخصية أكثر من المصالح العامة للدولة والرعيّة، وذكرت بعضا من المظاهر التي انتشرت في بغداد من جراء الظروف السياسية المترديّة التي تتجلى أول مظاهرها في مصادرة أموال رجال الدّولة والأغنياء، وكانت نتيجتها دفن الأموال في الأرض وبموت أصحابها تضيع الأموال، والمظهر الآخر الصراع بين العرب والفرس وغيرهم من الموالي الذين أظهروا عداءهم للعرب وتعصبوا لبني جنسهم، والمظهر الثالث الحركات الانفصالية وكذلك الطائفية التي جرّت البلاد إلى الكثير من الويلات والخراب، وإنّ ما نلمسه من خلال آثار التوحيدي أنّ بغداد لم تنعم بالسكينة والاستقرار في القرن الرابع الهجري، بل فقدت جميع المقومات التي تعدّ من أسباب قيام الدولة التي تنعم بالأمن والاستقرار.

وتناولت الدّراسة في الفصل الثالث أهم الأسباب التي أثرت على اقتصاد بغداد وكان من أهمها الظروف السياسية السائدة فيها، وجَود الطبيعة وقحطها، والآفات كالجراد والزلازل والأمطار الغزيرة وغيرها. وفوق ذلك فإنّ الدراسة كشفت عن وجود تفاوت كبير بين فئات الشعب: فالخاصة تحيا حياة النعيم والبذخ في حين أن العامة ومن ضمنها الأدباء يعيشون حالة تعمها الفقر المدقع والبؤس والشقاء، ومن ثم أبرزت الدراسة أهم المظاهر التي نتجت من جراء تدهور الظروف الاقتصادية ومنها الفقر والتسول والزهد والتصوف والتطفل، وذكرت أهم موارد رزق الدولة كالتجارة والصناعة والحرف الأخرى الصغيرة كالحجامة والحياكة والدباغة وغيرها،وكذلك الخراج والجزية.

وتوصلت الدراسة في الفصل الرابع إلى ازدهار الحركة العلميّة والثقافيّة في بغــداد أبــان هــذه الانحطاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وواكبت التطور والحضارة، وتمازجت مع الأمم الأخرى، وأخذت أحسن ما عندها من العلوم والآثار العلمــيّة، وقــد كان أصحاب السلطة وراء هذا الازدهار والتطور، وشجعوا حركتي الترجمة والتأليف، وانتشرت في بغداد المجالس العلمية والأدبيّة التي شجعها الخلفاء والوزراء والتي تعدُّ ثروة زاخرة ساهمت في نشر العلم بين فئات الشعب.

وبينت في الفصل الخامس تنوع النحل في بغداد فكان فيها المسلم والمجوسي والنصــراني والــيهودي، ومــن المذاهب السنة والشيعة والمعتزلة وأصحاب الزهد والتصوف والزنادقة، وكان لكل مذهب أو ملة أو نحلة أنصار ومؤيدون ، مما جعل الحياة في بغداد دائمة التناحر والصراع.

وأخــيرا يعــدُّ التوحيدي من ألمع مفكري القرن الرابع الهجري وأدبائه، فقد وقف من البيئة البغدادية مصوراً وناقداً بصيراً لجميع الظروف المحيطة بها، فهو لم يكــن مجــرد مصور وشاهد عيان، كان معترضاً وناقماً على كلّ مظاهر الفساد في ذلك المجتمع.

قائمة الهوامش

*بنــو بويــه : هــم قــواد مرتــزقة من الفرس، من أصل شيعي علوي، أسس أسرتهم ثلاثة أخوة وهــم:علــي الملقــب بعماد الدولة، وحسن الملقب بركن الدولة، وأحمد الملقب بمعز الدولة، الذين ســاروا إلــى مرداويج، ومعهم جماعة من القواد، وساعدهم بتأسيس دولتهم، التي امتلكت ناصية بــلاد العراق وما يحيط بها من البلاد الإسلامية، وبعد ذلك ارتفع شانهم وظهر ذلك النسب العالي، الشــيخ محمــد بك الخضري، تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية): دار المعارف بيروت - لبنان 3750 ــ 368

(1) الأثــير، الكــامل فــي التاريخ: دار صادر بيروت، 1399هــ- 1979م،8/ 449 ؛ ابن كثير، الــبداية والنهاية، تحقيق احمد أبو ملحم نجيب عفوي، الأستاذ مهدي ناصر الدّين، دار العلمية بيروت، ط1405،1 هــــ - 19985م،223/11 ؛ المقريزي، كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشــم: حققــه وعلــق حواشــيه. د/ حســين مؤنــس، دار المعارف:109؛ محمد كرد علي: أمراء البيان،مطــبعة لجــنة التألــيف والــترجمة/القاهــرة،1355هــ-1938م،2/ 489؛ أحمد أمين، ظهر الإسلام، ط3 ،1364هــ-1945م،216/1.

(2) بن الأثير، الكامل 8 :381

(3) ابــو حيان التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة ،تحقيق احمد أمين واحمد الزبن، منشورات دار مكتبة الحــياة -لبــنان 3/ 160 ؛ د. محمــد رجــب النجار، حكايات الشطار والعيارين، عالم المعرفة في التراث العربي، 1400هــ -1981 م: 120.

(4) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ط1 ،مطبعة دائرة المعارف العثمانيّة،1357،6/ 135 ؛ مسكويه، تجارب الأمم ،دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ،1ج :73

(5) ابــن الأثــير، الكامل ج8 : 381 ،ج 9 :171 ، 178؛ ابن كثير، البداية والنهاية ج 13: 235 ابن الجوزي، المنتظم ج6 :394 -395.

(6) ابن الأثير،الكامل ج8 :452

(7) التوحــيدي ،رســائل أبي حيان التوحيدي، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، طلاس للدراسات والترجمة والنشر:12

(8) التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة 1 /16

(9) نفسه:17

(10) نفسه 3 :85-88

(11) نفسه 3 /210-214

(12) أنظر التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة 1/ 48 ؛ إبراهيم الكيلاني ،رسائل التوحيدي :16 -15

(13) التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة 3 /151-158 ؛ابن الأثير ،الكامل 8 /455 حوادث سنة 361

(14) الحبيب شبيل ، المجتمع والرؤية قراءة نصيّة في كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ،ط1،المؤسسة الجامعية ،1412- 1993 :31.

(15) الكر: مكيال من مكايل أهل العراق، ويساوي أثني عشر وسقا، وكل وسق يساوي ستين صاعا.

(16 الطبري ، تاريخ الطبري، تحقيق: إبراهيم أبو الفضل، ط3، دار المعارف القاهرة ج3: 308، ابن الأثير : الكامل : ج8: 391؛ ابن كثير :البداية والنهاية:ج11 212 ،249، 270، السيوطي : تاريخ الخلفاء: تحقيق محي الدين عبد الحميد، 394

(17) السيوطي، تاريخ الخلفاء: 398 ؛ التنوخي ، نشوار المحاضرة ، تحقيق: عبود الشالجي،1390 -1971 ،ج1: 352 .

(18) مسكويه، تجارب الأمم ج1 :73

(19) السيوطي، تاريخه: 384 ؛ مسكويه، تجارب 1 :348.

(20) عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ط3، مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت 1995، 258-260

(21) إبراهيم الكيلاني، رسائل التوحيدي: 22 -23

(22) ماريوس كنار، بغداد في القرن الرابع الهجري، ترجمة أكرم فاضل، مجلة المورد ،م2 -ع4 حزيران 1993 -1973: 18

(23) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ط1، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت 1 :401-411

(24) أحمد أمين، ظهر الإسلام 1 :96

(25) محمود إبراهيم ،أبو حيان التوحيد في قضايا الإنسان واللّغة والعلوم ،دار المتحدة للنشر: 23

(26) عبد الغني الشيخ ،أبو حيان التوحيدي ورأيه في الإعجاز ،الدار العربية للكتاب، ج1 :494

(27)التوحيدي ،الصداقة والصديق، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، ط2 ، دار الفكر المعاصر، بيروت 1416هـ -1996م :80

(28 التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة ج1 :33 ؛ أحمد أمين ،ظهر الإسلام ج1 :229

(29) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار إحياء التراث العربي،بيروت ،د.ت ، ج15 :5 ؛ابن حجر العسقلاني "852هـ" لسان الميزان ،ط1 ،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،1407هـ-

1978م ،ج7 :39 ؛ابــن خلكــان ،وفــيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،تحقيق :إحسان عباس، دار صــادر بــيروت،1397هـــ-1970م،م5 : 112 ؛ جــلال الدّين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات النحويين ،تحقيق:أبو الفضل إبراهيم ،ط3 دار الفكر 1399هـ- 1979م،ج2 :190

(30) يــاقوت الحمــوي، نفسه؛ الذهبي ،سير أعلام النبلاء ، تحقيق :سعيد الأنرؤوط ،ط5، مؤسسة الرسالة ،1405هـ - 1983م ج17 :119

(31) مرجلــيوث ،دائرة المعارف الإسلاميّة ، ترجمة محمد مهدي علاّم وآخرون، د.ط ،1930 م ، م2 : 333 ؛ أحــلام الزعــيم ،قــراءات في الأدب العباسي ،الحركة النثريّة، د.ط مطبعة الاتحاد – دمشــق، 1411هـــ-1991م :272؛ محمد كرد علي أمراء البيان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة – القاهرة ،1355هـ -1937م ،ج2 :492 .

(32) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1 :85

(33) محمــد كرد علي، كنوز الأجداد، ط3 ، دار الفكر للطباعة والنشر-دمشق، 1440هـ-1984م: 210

(34) عبد الغني الشيخ، أبو حيان التوحيدي ج1 :151-153

(35) ابــن خلكــان، وفــيات الأعــيان م5 :113 ؛محمد كرد علي، أمراء البيان ج2 :492 ؛دائرة المعارف الإسلاميّة ج2 :333

(36) السيوطي، بغية الوعاة ج2 :190

(37) التوحــيدي الإمــتاع والمؤانسة ج1 :54 ؛الهوامل والشوامل، تحقيق: أحمد أمين والسيد أحمد صــقر، مطــبعة لجــنة التألــيف والترجمة والنشر –القاهرة، 1370هـ -1951م :135؛ البصائر والذخائر، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر بيروت ج4: 216

(38) نفسه ج15 :20

(39) عــبد الــرزاق محــي الدين، أبو حيان التوحيدي سيرته –وآثاره ،ط1 الناشر مكتبة الخانجي، 1949م :10 ،33 ؛أيمــن فــؤاد ســيّد، أبــو حيان التوحيدي ومؤلفاته المخطوطة والمطبوعة ،مجلّة فصول ،م4، ع3 ،خريف 1995 :11

(40) العســقلاني ،لســان الميزان ج7 :39 ؛ السيوطي، بغية الوعاة ج2 :190 الذهبي، سير أعلام النبلاء ج17 :120

(41) نفسه ج15 :5

(42) أمراء البيان ج2: 494

(43) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج2 :155

(44) التوحيدي، البصائر ج8 :124

(45) محمـــد رجـــب السامرائي، ابو حيان التوحيدي،ط1 ، الأوائل للنشر والتوزيع2002 :24 محمد كرد علي ،كنوز الأجداد:211

(46) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1 :5

(47) إبراهيم الكيلاني، أبو حيان التوحيدي،ط4 ،دار المعارف، د.ت :18- 17

(48) التوحـــيدي، مثالـــب الوزيريـــن ،تحقـــيق :إبراهيم الكيلاني ،دار الفكر-دمشق :325 ياقوت الحموي، معجم الأدباء ح15 :34

(49) عـــبد الأمير الأعسم، أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد،1986- 1406 : 60

(50) نفسه :55

(51) التوحيدي، الصداقة والصديق : 34.

(52) التوحـــيدي، الإشـــارات الإلهية ،تحقيق: وداد القاضي ،ط2 ،1402 هـــ- 1982م:228-229 قمن، المنزل الجدير بأن يحل به.

(53) محمد رجب السامرائي، أبو حيان التوحيدي: 20

(54) ياقوت الحموي ،معجم الأدباء ج15 : 5

(55) التوحيدي، الإشارات الإلهية:356

(56) زكـــي مـــبارك، النثر الفني في القرن الرابع الهجري ،د.ط ،دار الجيل-بيروت،1931 ،ج2: 167

(57) محمـــد علـــي الصـــباح، أبو حيان التوحيدي فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، ط1 دار الكتب العلمـــيّة – بـــيروت 1990 – 1411 :44، 32؛ زكريا إبراهيم ،أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء ،المؤسسة المصرية العامة للتأليف 13:

(58) محمد الصباح ،أبو حيان التوحيدي :32

(59) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ج15 :6-5

(60) نفسه: 18-16

(61) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1 :13

(62) إحسان عباس، أبو حيان التوحيدي، دار بيروت للطباعة والنشر،1956 :16

(63) آدم متز، الحضارة الإسلامية ج442:1

(64) ياقوت احموي، معجم الأدباء ج15 :6

(65) إحسان عباس ،أبو حيان التوحيدي :36 ؛ محمد رجب السامرائي ،أبو حيان التوحيدي : 30

(66) العسقلاني، لسان الميزان ح7 :42، 40

(67) دائرة المعارف الإسلامية ج1 : 333

(68) التوحيدي، الإمتاع، المقدّمة ،س ،8

(69) التوحيدي، البصائر ج9 :235-233

(70) نفسه ج7: المقدمة،6-5 ،ج9 : 241

(71) التوحيدي، الصداقة والصديق:14 - 24

(72) التوحـــيدي، مثالـــب الوزيرين: المقدمة: ي ؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 15: 26 ،33 محمود إبراهيم، التوحيدي، مجلّة فصول، م4 ،ع3 ،1995، 32

(73) التوحيدي، المقابسات،11-10

(74) التوحيدي، الإشارات الإلهيّة: المقدمة :5 ،21 وما بعدها

(75) التوحيدي ، الهوامل والشوامل: المقدمة، ج ،3 محمود إبراهيم، التوحيدي: 32

(76) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج 2: 76

(77) التوحيدي، البصائر ج1 :40،10؛ المقابسات:47

(78) نفسه ج1: 48

(79) إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، دار صادر بيروت ج2 :338

(80) التُنّاء: أصحاب الأراضي والفلاحين

(81) التوحيدي، الصداقة والصديق :33 -32

(82) التوحـــيدي، البصـــائر ح5 :52 ؛ الآبـــي ،نـــثر الدر، تحقيق محمد علي قرنة مراجعة :علي محمد البجاوى، الهيئة المصريّة العامة للكتاب،1981 ج7 :73

(83) الجاحظ، رسائل الجاحظ ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل -بيروت ، ج1 : 282

(84) التوحيدي، الصداقة والصديق : 32-33

(85) الأنمـــاط:ضرب من البسط، والحنّاطين: بائع الحنطة، الجلابين: هم التجار الذين يجلبون العبيد والرقـــيق للـــتجارة، البـــيازرة: القائم بأمر الباز، الجاحظ، الحيوان، تحقيق:عبد السلام هارون، ط3، شركة مصطفى الباني الحلبي وأولاده -مصر، 1386هـــ-1967م، ج4 :435 -434

(86) أنظر التوحيدي، البصائرج8 :116؛ المقابسات:178 ،222

(87) فهمـــي ســـعيد، العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين، الأهلية للنشر والتوزيع، 1983م: 62

(88) التوحيدي، المقابسات :120

(89) نفسه .

(90) نفسه: 172

(91) التوحيدي، مثالب الوزيرين :12

(92) التنوخـــي، نشـــوار المحاضـــرة ج1 :249، 240، 184؛ التوحيدي، الهوامل والشوامل :303، 304، 213؛ الصـــابي، رســـوم دار الخلافة تحقيق مخائيل عواد، مطبعة العاني- بغداد 1964 – 1383م:21

(93) أنظـــر حـــول هـــذا التقسيم: التوحيدي، البصائر ج 5 : 52،ج3 : 194 ، ج4 : 34 إخوان الصـــفا، الرسائل: ج1 258 ، 286 ؛ شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، ط 8، دار المعارف، 1973م :53

(94) عـــبد العزيـــز الـــدوري، نشوء الأصناف والحرف في الإسلام، مجلة كليّة الآداب –بغداد، ع1 حزيران 1959م:2

(95) أبـــو عبـــيدة، الأموال، تحقيق: محمد خليل هراس، ط3 دار الفكر، 1981–1401: 10 –12؛ المـــاوردي، الأحكام السلطانيّة والولايات الديّنيّة، تحقيق: خالد رشيد المجلي، بغداد، 1989 – 1409 م: 227؛ الحبيب شبيل، المجتمع والرؤية:56

(96) الصابي،رسوم دار الخلافة:21؛ مسكويه ج1 :235، 237

(97) السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق، محمد محي الدّين عبد الحميد: 384؛ مسكويه ،ج1: 8

(98) التوحيدي،البصائر ج1 :201

(99) المقدســـي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، مكتبة مدبولي القاهرة، 1411هـــ– 1991م: 449

(100) ابـــن الجوزي، مناقب بغداد،عني بتصحيحه: محمد بهجة الأثري البغدادي، مطبعة دار السلام بغداد 1342هـــ :15

(101) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج3 : 223

(102) التوحيدي، الهوامل: 333 ؛ الإمتاع والمؤانسة ج2 : 25–24

(103) التنوخي، نشوار ج1: 74

(104) التوحيدي، الرسائل:390

(105) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج3:76: الآدم: ما يؤتدم به الخبز.

(106) نفسه: 80

(107) التوحيدي، البصائر ج4 :199

(108) التوحيدي،الإمتاع والمؤانسة ج 1 :61 -60

(109) عـــروة بـــن الورد،الديوان،تحقـــيق وشرح:أسماء أبوبكر محمد، د.ط، دار الكتب العلميّة – بيروت 1998- 1418 :79

(110) التوحيدي، البصائر ج4 :199

(111) التوحيدي، الرسائل :306 - 307

(112) التوحيدي،المقابســـات:120، 172 ، الرســـائل :327،362 الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السّلام منذ تأسيسها حتى سنة 436 هـــ ، دار الكتب العلميّة -بيروت ج3 ،:235

(113) ابـــن مـــنظور، لســـان العرب ،دار العرب -بيروت ،م2 :885 ؛ الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، طبعه أحمد زكي بك ،المطبعة الجمالية -مصر ،1910 - 1329 :10

(114) بـــدري فهد، العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري ،مطبعة الإرشاد ،1387هـــ-1967م: 15

(115) التوحيدي، المقابسات :172

(116) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج 1:205

(117) التوحـــيدي، المقابســـات،120، 172 ؛ الإمتاع ج1 :12 ؛ الصداقة: 33 ؛ مثالب الوزيرين: 60 88 ؛ البصـــائر ج2 :12 ، ج4 :43 ؛ إخـــوان الصـــفا ج2 :339 ، الثعالبي، ثمار القلوب في المضـــاف والمنسوب ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيمَ ، د.ط، دار المعارف، د.ت :271- 270 ؛ التنوخـــي الفرج بعد الشدة ،تحقيق :عبود الشالجي ، دار صادر - بيروت ،1987- 1398 ج4 : 367

(118) التوحيدي،الصداقة والصديق :33

(119) التوحيدي،الصـــداقة والصـــديق: 34؛ الإمـــتاع والمؤانســـة ج3 :61؛ الهوامل:86 الطبري، تاريخه ج8 : 448 ، 496، 363 ؛ التنوخي، الفرج بعد الشدة ج 1 :225

(120) التوحيدي، الرسائل :362

(121) التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة ج2 : 26

(122) التوحيدي ،الصداقة والصديق ،33

(123) التوحيدي ،البصائر ج9 : 71

(124) التوحيدي، الهوامل :213 الجنائب :الذّواب

(125) التوحيدي، المقابسات ،196

(126) الثعالبـــي، خـــاص الخـــاص ، شرحه وعلق عليه: مأمون بن محي الدّين الجنان ، دار الكتب العلميّة –بيروت: 78

(127) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج2 : 26

(128) نفسه ج1 :225

(129) التوحيدي ، المقابسات :122 ، 153 ، 346 ،457

(130) ابـــن الجـــوزي، أخـــبار الحمقى والمغفلين، تحقيق: الشيخ محمد شريف سكر، ط1 ، دار إحياء العلوم –بيروت، 1406هـ – 1998م: 159

(131) الجاحظ ، الرسائل ج1 :285- 283

(132) التوحيدي ،ا لهوامل 251

(133) التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة ج1 :205 ؛ البصائر ج5 : 214

(134) التوحيدي، الصداقة والصديق : 135

(135) التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة ج2 : 41

(136) نفسه ج2 : 59

(137) نفسه

(138) التوحيدي ،مثالب الوزيرين: 72 ؛ البصائر ج3 :74

(139) التنوخـــي، نشـــوار ج1: 22-19، ج2 : 88-87 ؛أحمد أمين، ظهر الإسلام ج1 : 15 - 14

(140) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1 :159- 158

(141) نفسه.

(142) التوحيدي، الهوامل : 116- 115

(143) التوحيدي، الصداقة :65

(144) التوحيدي، مثالب الوزيرين :23

(145) التوحيدي، الإشارات الإلهية : 168

(146) نفسه: 100 ، 142

(147) التوحيدي، الإشارات الإلهية: 202

(148) التوحيدي ،الصداقة والصديق :30

(149) البصائر ج9: 104- 105

(150) التوحيدي، الصداقة والصديق:125، 142؛ الهوامل: 70

(151) وداد القاضـــي، الركائـــز الفكريّة في نظرة أبي حيان التوحيدي إلى المجتمع ، مجلّة الأبحاث الجامعة الأمريكيّة (4-1) ،1970: 22

(152) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1 : 16 -15

(153) وداد القاضي، الركائز الفكريّة : 23

(154) التوحيدي، الإشارات الإلهيّة : 201

(155) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1 : 17، 141 ،البصائر ج8 :60

(156) التوحيدي، الرسائل : 366 ؛ الصداقة والصديق : 89

(157) التوحيدي، الصداقة والصديق :33-32

(158) ظافــر القاســمي، الصـــداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي، مجلّة المعرفة، (12-7) ع8، 1962م : 42

(159) خـــوان أنطونيو باتشيكو بانياجوا، أبو حيان التوحيدي العالمي الفرد، مجلّة فصول،ع3 ، م4 ، 1995م : 50

(160) التوحيدي ،الهوامل :199

(161) التوحيدي ،المقابسات : 450

(162) التوحيدي، مثالب الوزيرين: 21

(163) التوحيدي، الصداقة والصديق: 278

(164) القفطـــي، كـــتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء، عني بتصحيحه: السيّد محمد أمين الخانجي، مطبعة السعادة – مصر ،1226: 107 ؛ التنوخي، نشوار ج 2 : 328 -327

(165) القفطي، نفسه

(166) نفســه:125، 143 ، 287 ؛ التوحـــيدي، البصائر ج3 :66—65 ؛ المقابسات :68 – 65 ؛ الهوامل: 34

(167) التوحيدي، المقابسات :61

(168) التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة ج 1 : 40 ؛ البصائر ج4 :87

(169) التوحيدي ،مثالب الوزيرين : 89 ؛ابن الجوزي ،المنتظم ج 6 : 101

(170) التوحيدي ،المقابسات : 333 ؛ وانظر البصائر ج3 : 65 ؛ الصداقة والصديق : 17 ، 30

(171) التوحيدي، البصائر ج3 :29

(172) نفسه: 28

(173) التنوخي، الفرج بعد الشدّة ج1 : 184 ،197، 205

(174) التوحيدي، البصائر ج3 : 66-65

(175) نفسه ج 4 :93

(176) نفسه

(177) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج 1 :40

(178) التوحيدي، الهوامل : 114

(179) الخطيب البغدادي، تاريخه ج1 :123

(180) التوحيدي، الهوامل :144

(181) أنظـر الجـاحظ الحـيوان ج4: 184 ؛ التنوخي، الفرج بعد الشدة ج1 :225 ؛ نشوار ج3 : 149 -151

(182) التوحيدي، المقابسات: 288

(183) نفسـه: 209 – 208 ؛ أنظـر المسـعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الشركة العالميّة للكتاب، 1989 ،ج 2 :340

(184) التوحيدي، الهوامل: 340 - 341

(185) نفسه

(186) التوحيدي ،الهوامل ، 200-204 ؛ الإشارات الإلهية :234 ؛ البصائر ج6 : 17

(187) نفسه ؛ ابن قتيبة ،عيون الأخبار ، د.ط دار الكتب العلميّة ، د.ت ،ج1 :218

(188) ابن قتيبة، نفسه: 243 ، التوحيدي ،الهوامل : 200 ، الإمتاع والمؤانسة ج2 :162-163

(189) سورة الحديد آية :22

(190) التوحيدي، الهوامل :166-167

(191) التوحـيدي، الإمـتاع والمؤانسـة ج 1 :18 ؛ الهوامل :215 ، 373 ؛ البصائر ج 8 :24 ؛ الجاحظ، الحيوان ج4 :147 ؛ التنوخي، الفرج ج4 : 312 ، ج3 : 46

(192) المسعودي، مروج الذهب ج4 : 636 ؛ آدم متز، الحضارة الإسلامية ج2 :257

(193) ابن النديم، الفهرست، تحقيق: رضا تجدد :168

(194) الأزدي، حكايـة أبي القاسم البغدادي، أعاد طبعه بلاوفست مكتبة المثنى – بغداد ،كرل ونتر في هيدبرج، 1902م: 93 وما بعدها

(195) الجاحظ، الحيوان ج4: 147 حديث سكّر الشطر نجي

(196) التوحـيدي، مثالـب الوزيريـن: 89 ؛ التنوخـي، نشـوار ج1 :266 ؛ آدم متز، الحضارة الإسلاميّة ج2 :259

(197) التوحيدي، الهوامل: 331 ؛ البصائر :45

(198) الصــابي، الــوزراء وتحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق: عبد الستار فراج، دار إحياء الكتب العربيّة: 156

(199) التوحيدي، الهوامل: 331، 332

(200) آدم متز، الحضارة الإسلاميّة ج2 : 262

(201) التوحــيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1 :59؛ الطبري، تاريخه ج9 :114 ؛ فهمي سعيد ، العامة في بغداد: 259

(202) فهمي سعيد، العامة في بغداد :259

(203)التوحيدي، البصائر ج3 : 42

(204)آدم متز، الحضارة الإسلاميّة ج2 :266

(205)الخطيــب الــبغدادي، تاريخــه ج3 :123؛ ابن الجوزي،المنتظم ج8 :10، المقريزي، الخطط المعــروف بذكر الخطط، المعروف بخطط المقريزي، د.ط ، دار صادر بيروت، د.ت، ج2: 253 – 253

(206)التوحيدي، مثالب الوزيرين : 117 ؛ آدم متز، الحضارة الإسلاميّة ج2 : 148

(207)بدري فهد، العامة ببغداد :227

(208)التوحيدي، البصائر ج3 :156 ؛ الإمتاع والمؤانسة ج3 :15

(209)نفسه ج2 : 184 ؛ج4 :218 –219

(210)آدم متز، الحضارةْ الإسلاميّة ج2 :148 ؛ بدري فهد ،العامة ببغداد : 229

(211)ا بــن الجوزي، تلبيس إبليس ،تحقيق السيد الجملي، ط1 ،الناشر دار الكتاب العربي ،1985– 1405 :150

(212)الخطيــب الــبغدادي، تاريخــه ج3 :124؛ الثعالبي، خاص الخاص:110 ؛ المسعودي مروج الذهب ج4 :615

(213) المقريزي ،الخطط ج3 :253

(214) ابن الجوزي، تلبيس إبليس : 149 ، 151

(215)آدم متز، الحضارة الإسلاميّة ج2 :153 ، بدري فهد، العامة ببغداد :234

(216)ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين :168

(217)الآبي، نثر الدر ج4 :274

(218)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1 : 225

(219)ابن الجوزي، المنتظم ج7 : 19، 23 ، 24

(220)الصابي، رسوم دار الخلافة : 10- 9

(221)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج3 :5 ؛ التنوخي، نشوار ج1 :197

(222) التوحيدي ،الإشارات الإلهية :259 ؛ الهوامل : 81

(223)التوحيدي، البصائر ج7 :184 ، ج6 :236 ، ج5 :59؛ المسعودي، مروج الذهب ج4: 589

(224)ابـــن تغري بردي ،النّجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصريّة العامة للتأليف والترجمة والطباعة، 1383 - 1963 ،ج3 : 234

(225)ابـــن الجـــوزي، المنتظم ج8 :140 التوحيدي ؛الإمتاع والمؤانسة ج3 : 78؛ البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية ،دار صادر -بيروت : 334

(226)التوحيدي، البصائر ج5 :15 ؛ المقريزي، الخطط ج1 :268 ؛ البيروني، الآثار الباقيّة: 216

(227)التوحـــيدي ، مثالـــب الوزيريـــن : 112 ؛ التنوخي ، نشوار ج1 : 294-293 ، ج2 :232 المقريزي ، الخطط ج1 : 268

(228)التوحيدي ،الهوامل : 81

(229)التوحيدي ،البصائر ج8 : 194- 193

(230)التوحيدي، البصائر ج8: 185 ، ج1 :234 ؛ الإمتاع والمؤانسة ج3 :4

(231)التوحيدي، البصائر ج2 : 84 ، ج9 : 80

(322)التوحيدي ، البصائر ج2 :99

(233)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1 :177

(234)التوحـــيدي، الإمـــتاع والمؤانســـة ج2: 102، مثالـــب الوزيريـــن: 40، البصـــائر ج4 : 105،203،110 ؛التنوخي ،الفرج بعد الشدة ج3 :150 ،ج4 : 334 ، 366

(235)التوحيدي، البصائرج4 : 154

(236)انظر نفسه ج5: 93 ، ج4: 190 ، 195 ،ج3 76: ؛الإمتاع والمؤانسة ج3 : 174؛ الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي : 19

(237)التوحيدي، البصائر ج4 :185

(238)انظر نفسه ج5 : 71 ، ج1 : 112 ،ج4 :205 ، 69 ، ج2 : 194

(239)آدم متز ،الحضارة الإسلامية ج2 : 176

(240)انظـــر الخطيـــب البغدادي ،تاريخه ج4 :442 وما بعدها ، التنوخي ،نشوار ج1: 222 - 224

(241)الماوردي ،الأحكام السلطانية :111

(242)التوحـيدي، الإمـتاع والمؤانسـة ج2 : 183 ، صباح الشيخلي ،نشوء الأصناف في العصر العباسي نشأتها وتطورها : 87

(243)أنظـر التوحـيدي ،الإمـتاع والمؤانسة ج2 : 50 ؛ مثالب الوزيرين : 134 ؛ البصائر ج2 : 199 ،ج4 :155 ،ج 3 : 87 ؛المقابسات : 175

(244)التوحيدي، البصائر ج7 : 186

(245)نفسه ج9 : 214

(246)سـعيد أبـو العينيـن، حكايات الجواري في قصور الخلافة ،دار أخبار اليوم -قطاع الثقافة ، 1998 : 10- 9

(247)لليعقوبي ، كتاب البلدان ،ط1 دار إحياء التراث العربي ، 1408 - 1988 : 17 ؛ التوحيدي، البصائر ج2 :36 الإمتاع والمؤانسة ج3 : 161

(248)سعيد أبو العينين، حكايات الجواري :10

(249)شوقي ضيف ،العصر العباسي الثاني : 83

(250)التوحـيدي، البصائر ج1: 186 ،ج4: 150، ج5 : 43؛ آدم متز، الحضارة الإسلاميّة ج1 : 302-303 ؛ علـي محمـد هاشـم، الأندية الأدبيّة في العصر العباسي في العراق حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ط1، منشورات دار الآفاق الجديدة -بيروت، 1402هـ - 1982م: 152-153

(251)الجاحظ، الرسائل ج1 : 177

(252)فهمي سعيد، العامة في بغداد 287

(253)شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني: 84

(254)التوحيدي: البصائر ج5: 115، التنوخي، الفرج بعد الشدة ج4 : 36

(255)أبـو الفـرج الأصفهاني، القيان، تحقيق: جليل العطية، رياض الريس للكتب والنشر، 1378 : 82 ؛ آدم متز ،الحضارة الإسلامية ج1 : 296

(256)التوحيدي، مثالب الوزيرين: 219 ؛ الصابي، الوزراء:105 ؛ ابن الأثير، الكامل ج8: 37

(257)الجاحظ، الرسائل ج1 : 128

(258)التوحـيدي، البصائر ج2 : 45 ، الإمتاع والمؤانسة ج2 : 129 ؛ التنوخي، الفرج بعد الشدة ج 2 : 36

(259)نفسه : 145

(260)التوحـيدي، الإمتاع والمؤانسة ج2: 56 ، ج3 : 165 ، وما بعدها؛ الأصفهاني، القيان ، 10 ،

123 –124 ؛ مصطفى هدارة، بائع الجواري، مجلة العربي، (233-236) ربيع الآخر1398هـ – 1978م :83

(261)التوحـــيدي ،البصـــائر ج4 : 90 ؛وانظر التنوخي الفرج بعد الشدة ج4 : 316 ، نشوار ج2 : 60 ،ج1 :186

(262)نفسه ج1 :98

(263)التنوخي؛ الفرج بعد الشدة ج4 : 316 ؛ الخطيب البغدادي، تاريخه ج5 : 92

(264)ســليمان حريتانـــي، الجواري والقيان في المجتمع العربي الإسلامي، ط1 ،دار الحصار للنشر والتوزيع – دمشق،1997 :115

(265)التنوخي، نشوار ج1 :184، 187 ، ج2 : 62-60 ؛ الفرج بعد الشدة ج4 : 334

(266)الجاحظ ،الرسائل ج2 :175

(267)الأزدي ، حكاية أبي القاسم : 72

(268)أنظر التوحيدي، البصائرج3: 76، 162،78، 181،ج4: 155، 157، ج9: 57، 118.

(269)التوحيدي، البصائر ج9: 22

(270)الجاحظ، الرسائل رسالة في القيان : 158

(271)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج2 : 180

(272)نفسه ج2 : 183 ، 174

(273) فهمي سعيد ، العامة في بغداد:272

(274) الصـــولي، أخبار-الراضي والمتقي بالله ، من كتاب الأوراق م2 ، عني بنشره ج -هيورث ط 3 ، دار المســيرة ،1403- 1983 : 55-65 ؛أحمد أمين ، ظهر الإسلام ج2 :22 علي محمد هاشم ،الأندية الأدبية :165

(275)آدم متز ،الحضارة الإسلامية ج2 : 244 ؛ فهمي سعيد ، العامة في بغداد : 273

(276)التوحيدي، الهوامل :10

(277)التوحـــيدي، الإمتاع والمؤانسة ج2 180 ، 171-165 : ؛ الأزدي ، حكاية أبي القاسم البغدادي: 79 ،71 ، 46، وصـــرفين: قـــرية مـــن قـــرى بغداد ، قرب عكبر، وهي قرية كبيرة كانت تشتهر بالبساتين، وينسب إليها الخمر

(278)التوحيدي، مثالب الوزيرين : 274، الجُمّار:شحم النخلة وقلبها وهو أبيض.

(279)عـبد اللطـيف الراوي ،المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري، مكتبة النهضة بغداد، 1971 :287

(280)التوحيدي، البصائر ج2 : 46

(281)التنوخي، نشوار ج1 : 295 -303

(282) الثعالبي،يتــيمة الدهــر تحقيق: محمد محي الدّين ،ط1، دار الكتب العلميّة،1399-1979، ج 2:335-336 .

(283)التوحيدي ،البصائر ج5: 191

(284)نفسه ج1: 133

(285)التوحيدي، البصائر ج5 : 71 ،ج4 : 114، ج3: 113

(286)نفسه ج4: 22

(287)الثعالبي، خاص الخاص :95

(288)التوحيدي، البصائر ج4 : 33 ؛ أنظر ابن الجوزي، تلبيس إبليس: 284 ،275،291

(289)الثعالبي، خاص الخاص :96

(290)التوحيدي، البصائر ج3: 55

(291)المسعودي مروج الذهب ج4: 590

(292)التوحيدي، الهوامل: 335

(293)محمــد زغلول سلاّم، الموسيقى والغناء في كتابات أبي حيان التوحيدي، مجلّة فصول، م15 ع 1 ،1996 م:129

(294)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج2 : 165

(295)نفسه: 165-179

(296)محمد زغلول سلاّم ،الموسيقى والغناء :131

(298)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج3: 144

(298)نفسه ج3: 144 ،165 وما بعدها ذكر مجموعة من أسماء الجواري المغنيات

(399)نفسه: 183 ؛ويشير الأزدي إلى إحصائية أخرى في حكايته:87

(300)الخطيب البغدادي، تاريخه ج1 : 232

(301)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج2 : 165-183

(302)نفسه: 181-182

(303)الأزدي، الحكاية :35

(304)التوحيدي، البصائر ج4 :185

(305)سعيد أبو العينين، حكايات الجواري في قصور الخلافة :43

(306)التوحيدي، البصائرج2 : 108

(307)التوحيد، المقابسات :113

(308)التوحيدي، الرسائل:251

(309) التوحـــيدي، الهوامل: 336 ،البصائر ج3 :161؛ المقابسات 233، 409 ؛ الخطيب البغدادي ج5 :20 ؛ ابن الجوزي ،تلبيس إبليس ، 286 ، 287 ،أخون الصفا ج1 :202 القسم الرياضي

(310)بـــدري فهد، العامة ببغداد :97 ؛عبد اللطيف الراوي ،المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع : 300

(311)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج3 :4

(312)التوحيدي، البصائر ج2 : 34

(313)التوحيدي، الإمتاع والمؤنسة ج3: 3-6

(314)التوحـــيدي، البصائر ج3: 35 ؛ الإمتاع ج3 : 77؛ ابن قتيبة ،عيون الأخبار ج3 :236 ؛ آدم متز، الحضارة الإسلامية ج2: 237 -238

(315)التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة ج3 :7، المكوك:من مكاييل العراق، وهو صاع ونصف.

(316) نفســـه ج3 : 76 . المصـــوص: لحـــم يطبخ وينقع في الخل ، ويكون من لحم الطير خاصة، والهلام: مرق السكباج المبَرّد المصفّى من الدهن.

(317) الصابي، الوزراء:261

(318)الأزدي، الحكاية: 39 ؛ التنوخي، نشوار ج2 : 123

(319) التوحـــيدي، الإمـــتاع والمؤانســـة ج3 :78، 75 ؛البصـــائر ج1 :215 ؛ الجاحظ ، البخلاء، تحقيق: طه الحاجري، ط5 ، دار المعارف-مصر:107

(320)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج2 : 87

(321)نفســـه :151؛ الأزدي، الحكاية: 101 ؛ الثعالبي،ثمار القلوب:612 ، والسكباجة كلمة فارسية معربة

(322)التنوخي، نشوار ج1 :121، 123، ج2 :9

(323)التنوخـــي ،الفرج بغد الشدة ج4 :358، 367 ؛ انظر أطعمة الملوك الثعالبي ، خاص الخاص: 87-89

(324)التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة ج3 : 69 ،76، 77

(325)فهمي سعيد : العامة في بغداد : 268

(326)التوحـــيدي ،الإمتاع والمؤانسة ج3 :77 ؛ الرازي ، منافع الأغذية ودفع مضارها ، دار إحياء

العلوم –بيروت :257–261 ذكر أنواع الحلوى ؛ بدري فهد ، العامة ببغداد :131–132

(327)التوحيدي ،البصائر ج5 : 76

(328)ابـن قتيـبة ،عـيون الأخـبار ج3 :227 ؛التوحـيدي ،الإمتاع والمؤانسة ج3 :4 ؛ الأزدي، الحكاية: 92

(329)المسـعودي، مروج الذهب ج4 : 645 ؛ التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج2 :180 ،ج3 : 3 ، 77 ؛ البصـائر ج6:75 ،ج4 :104 الثعالبـي، يتيمة الدهر ج4 :171 التنوخي، نشوار ج4 :104؛ الجاحظ، البخلاء: 179

(330)التوحيدي، البصائر ج4 :104 ،ج8 :187

(331)التوحـيدي، الإمـتاع والمؤانسة ج2: 180 ،ج3 :11–12؛ أنظر ابن الأخوة معالم القربة في أحكـام الحسـبة، تحقيق، محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى الطبعي ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976 :185 وما بعدها

(332)التوحيدي ،البصائر ج2 :143–144

(333)التوحـيدي ،الإمـتاع والمؤانسـة ج3 : 16 ؛الأزدي ،الحكاية :92 ؛فهمي سعيد ، العامة في بغداد : 266

(334)الخشـنكار: هـو ما خشن من الدقيق وهي كلمة فارسية ويسمى أيضا النخالة. الرازي، منافع الأغذيّة: 41

(335)التوحيدي، الإمتاع ج3 : 12 ،15 ،76 ؛ البصائر ج4 78 ،157 البخلاء: 106

(336)التنوخي، الفرج بعد الشدة ج4 : 211 ؛ مؤلف مجهول ،العيون والحدائق ،ج4، ق1: 381

(337)التوحـيدي ،البصائر ج3:89 ، ج5 :164 ،الأزدي ،الحكاية :42 ؛الخطيب البغدادي، تاريخه ج9 : 190

(338)الأزدي، الحكاية: 42؛ التنوخي، نشوار ج3 :189–191

(339)الصابي، رسوم دار الخلافة :20

(340)التوحيدي، مثالب الوزيرين : 122 ؛بدري فهد ،العامة ببغداد : 122

(341)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج3 :75 ابن الجوزي ،المنتظم ج7 :74

(342) التوحيدي، البصائر ج4 :23–24 ،ج1 :79 ؛بدري فهد ، العامة ببغداد :114

(343)التوحيدي، البصائر ج1 :241 ،ج2 :287

(344)نفسه ج9 : 28

(345)الجاحظ :البخلاء : 179

(346)الأزدي ،الحكاية : 41 ؛ بدري فهد ،العامة ببغداد :116-117

(347)التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة ج3 : 5 ، 74 قدّم لائحة ذكر فيها مجموعة من الأطعمة

(348)ابن منظور، لسان العرب م2 :315-316

(349)نفسه :940

(350)ابن الجوزي، تلبيس إبليس :473 ؛التوحيدي ،مثالب الوزيرين :194

(351)التوحيدي، المقابسات :458 ؛البصائر ج1 : 100

(352)عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي : 108 ؛ محمد رجب السامرائي ،أبو حيان التوحيدي: 139

(353) الطبري، تاريخه، طبعة دار المعارف ج8 : 551

(354)عبد العزيز الدوري ،نشوء الأصناف والحرف في الإسلام ،مجلّة الآداب-بغداد ،ع1 حزيران 1959 :25

(355) نفسه:26

(356)التنوخي، الفرج بعد الشدة ج4 :239-240

(357)نفسه: 238 و ما بعدها

(358)محمد رجب النجار، حكايات الشطار والعيار :121-122

(359)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج3 : 151 ؛ حسن منيمنة ،تاريخ الدولة البويهية :76؛ الدوري، نشوء الإصناف 26

(360)الذهبي، كتاب دول الإسلام في التاريخ /ط1 ،مطبعة دائرة المعارف النظامية – مدينة صدر آباد 1337 ،ج1 :175 ، 180 ؛ ابن تغري بردي ،النجوم الزاهرة ج4 :107

(361)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج3 : 153

(362)نفسه ج3 : 151-152 ؛البصائر ج4 :147 ؛ ابن الأثير ،الكامل ج8:618-191

(363)التوحيدي ،البصائر ج4 : 114 ، 157 ؛المسعودي، مروج الذهب ج4 :382 ؛ التنوخي ، الفرج بعد الشدة ج 4 :241 ؛الآبي ،نثر الدرر ج3 : 299

(364)الجاحظ ،البخلاء :67

(365)إبراهيم الكروي ،طبقات مجتمع بغداد في العصر العباسي الأول ،ط3 ، مؤسسة شباب الجامعة _الإسكندرية ،1989 : 101 ؛ صالح زهير الدين ،أهل الفتوة والفتيان في المجتمع الإسلامي ،ط1 ، المركز العربي للأبحاث والتوثيق ،1998 : 50 ؛ يحي أحمد عبد الهادي حسين، الفتوة في بغداد في العصر العباسي الأخير ، رسالة ماجستير غير منشورة ،بإشراف الدكتور عبد

العزيز الدوري ،1412-1992 الجامعة الأردنية :87

(366)مؤلف مجهول،العيون والحدائق ج4 ،ق2 : 288 ؛ الصولي ،أخبار الراضي، 25

(367)ابن الجوزي ،المنتظم ج7 :220

(368)التوحيدي ،الصداق والصديق : 64

(369)التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة ج3 :160-162

(370)التوحيدي ،البصائر ج4 : 157-160؛ انظر أيضا الآبي نثر الدرر ج3 :299 وما بعدها

(371)الصولي ،أخبار الراضي: 223؛ ماريوس كنار المستشرق الفرنسي ،بغداد في القرن الرابع الهجري ،ترجمة: أكرم فاضل ،مجلة المورد ،م2 ع2 ،1973 :22

(372)ابن الجوزي ، تلبيس إبليس :474

(373)عبد العزيز الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ،ط1 ،دار الطليعة للطباعة والنشر -بيروت ،1969 :78-79

(374)التنوخي ،الفرج بعد الشدة ج4 :238

(375)التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة ج3 :160- 161

(376)الجاحظ، الحيوان ج2 :366-367

(377)التوحيدي، الصداقة والصديق :64 ؛ التنوخي الفرج بعد الشدة ج4 ،231

(378)التوحيدي، مثالب الوزيرين ،194 ،والسّبال :هو مما على الشارب من الشعر، وهو أيضا مقدّم اللحية

(379)ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر _ بيروت :361 _ 365؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء : 381 _ 384

(083)مسكويه، تجارب الأمم ج1: 13

(381)محمد الخضري، محاضرات في تاريخ الدولة الإسلامية، دار المعرفة بيروت: 346 ؛ ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانيّة: 280 ؛ أحمد أمين ، ظهر الإسلام ج2 : 15

(382)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1 : 16

(383)نفسه:17

(384)التوحيدي، الإمتاع ج1: 17

(385)التوحيدي، المقابسات :287

(386)الماوردي، نصيحة الملوك، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد ،مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندريّة ، 1988: 208

(387)التوحيدي ،الهوامل :333-334 ؛ البصائر ج1 : 171 ، ابن الطقطقا ، الفخري في الآداب السلطانيّة :17

(388)ابن الطقطقا ،الفخري :17-19 ،انظر الشروط التي يجب توفرها في سائس الرعيّة الماوردي ،الأحكام السلطانيّة :16-17

(389)الماوردي، نفسه

(390)ابن قتيبة ،عيون الأخبارج1 : 84

(391)التوحيدي ،الإمتاع ج1 :21

(392)ابن قتيبة ،عيون الأخبار ج1 :55

(393)التوحيدي ، الهوامل والشوامل : 333

(394)التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ج2 :24؛ ج1 ؛ الهوامل : 333 ؛الآبي، نثر الدرر ج4: 237

(395)التوحيدي ،الصداقة :152 ؛البصائرج4 :239

(396)الماوردي ،نصيحة الملوك : 53 ،208

(397)التوحيدي ،البصائرج8 : 164 ؛ الآبي نثر الدرر ج4 : 231

(398)التوحيدي ، مثالب الوزيرين: 214

(399)التوحيدي ، المقابسات :27

(400)التوحيدي ،الإمتاع ج2 :24

(401)ابن كثير، البداية والنهاية ج11 :225 ؛ محمد كرد علي، أمراء البيان ج1 :216

(402)التوحيدي ،البصائر ج1 : 201

(403)نفسه ج4 :202 ؛ الإمتاع ج2 :33

(404)نفسه ج1 : 14

(405)التوحيدي ،الإشارات الإلهية :403

(406) التوحيدي ،الصداقة : 277

(407)نفسه :32

(408)التوحيدي ،الإمتاع ج2 :195 ؛البصائر ج1 :201

(409)ابن الجوزي، صيد الخاطر، تحقيق عبد القادر قط ،طبعه محققة تحقيقا علميّا ، مكتبة الكليات الأزهريّة : 500-501

(410)التوحيدي ،الإمتاع ج2 : 33

(411)ابن قتيبة ،عيون الأخبار ج1 :57

(412)التوحيدي ،الإمتاع ج2 : 33

(413)نفسه ج2:87

(414)الآبي ، نثر الدرر ج2: 232

(415)التوحيدي ،الإمتاع ح2 :87-88

(416)ابن قتيبة ،عيون الأخبار ج1 :62 ؛ التوحيدي ،الإمتاع ج2 :25 ؛ الهوامل :333

(417)التوحـــيدي ،الإمتاع ج3 : 151-152 ؛ابن الأثير ،الكامل ج 8: 618 ؛ مسكويه، تجارب ج 2 : 303 -305

(418)التوحيدي، نفسه ج3 :152

(419)الحبيب شبيل ،المجتمع والرؤية : 33

(420)التوحيدي، الإمتاع ج3 :153

(421)الحبيب شبيل، السابق :34

(422)التوحيدي ،الإمتاع ج3 :156 وما بعدها

(423)نفسه:88، 148 .

(424)نفسه ج2 :147 ؛ الهوامل :68 ؛ الرسائل :389

(425)ابن الأثير، الكامل ج8 :323 ، 452 ابن الطقطقا ،الفخري :282

(426)التنوخي، نشوار ج2 : 29-32 ؛ حسن منيمنة ، تاريخ الدولة البويهية :54

(427)أكرم فاضل، بغداد في القرن الرابع الهجري :13

(428)وداد القاضي، الركائز الفكرية : 26

(429)الآبي، نثر الدرر ج4 : 243

(430)التوحيدي ،الرسائل :374

(431)نفسه : 373- 374 أنظر سوء أدب البواب مثالب الوزيرين : 132

(432)التوحيدي، الرسائل:374

(433)نفسه :379

(434)نفســه: 382؛ البصـــائر ح8:7-9؛ ابـــن الأثـــير ،الكـــامل ج8 : 628 ؛ آدم متز، الحضارة الإسلامية ج2 : 192

(435)التوحيدي، الرسائل:392

(436)التوحيدي، الصداقة والصديق: 152 ، ابن الطقطقا ،الفخري :226- 227

(437)آدم متز ،الحضارة الإسلامية ج2 : 193 ؛ أحمد أمين ،ظهر الإسلام ج2 :13

(438) ابن الطقطقا ،الفخري ،267-268

(439) التوحيدي ،الإمتاع ج3 :64-65؛ البصائر ج9: 18-19

(440) التوحيدي، مثالب الوزيرين : 64

(441)الماوردي، الأحكام السلطانيّة : 42 ،45

(442)التوحيدي، الرسائل :379

(443)التوحيدي، البصائر ج6 : 16

(444)التوحيدي، الإمتاع ج1 : 48

(445)نفسه ج2 : 115 -116

(446)نفسه ج3 :63

(447)نفسه ج1: 41-45

(448)نفسه ج3 :63

(449)نفسه ج2 :116

(450)الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي :296

(451)ابن الأثير ،الكامل ج8 : 546-547

(452)مسكويه ،تجارب ج1 :32 ؛ الدوري ،تاريخ العراق :297

(453) ابن الطقطقا ، الفخري: 26 ؛ جرجي زيدان ، تاريخ التمدن اللإسلامي ج1 : 415

(454)مسكويه ،تجارب ج1 : 123 ؛ الصابي ،الوزراء :151 ؛ أحمد أمين ،ظهر الإسلام ج2 : 13

(455)أحمد أمين ،نفسه ج2 :7-10

(456)الدوري ، تاريخ العراق : 298

(457)التنوخي، نشوار المحاضرة ج4 :51، ج1 :29 ؛ مسكويه، تجارب ج2 :88 ج1 :14، 16 ؛ ابن الجوزي ،المنتظم ج7: 156 ، ابن الكثير ،البداية والنهاية ج11: 215 ؛ جرجي زيدان، تاريخ التمدن ج1 :416

(458)التوحيدي ،الإمتاع ج3 :88

(459)نفسه ج3: 91

(460)التوحيدي، مثالب الوزيرين :150

(461)حسن بزون ،القرامطة بين الدّين والثورة ،ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر -بيروت ،1408 - 1988 :70

(462)أحمـــد علبـــي ،ثورة الزنج وقائدها، دار الفاربي –بيروت ،طبعة جديدة منقحة،1991 : 71 ، 114

(463)أحمد أمين ، ظهر الإسلام ج1 :70

(464)آدم متز ،الحضارة الإسلامية ج1 : 295-296

(465)مؤلف مجهول ،العيون والحدائق ج4، ق1 :16

(466)نفسه ؛ أحمد أمين ،ظهر الإسلام ج1 :70

(467)التوحيدي ،الإمتاع ج1 :74 ؛ آدم متز ،الحضارة الإسلاميّة ج1 :305

(468)أحمد أمين السابق :74 ؛آدم متز ،السابق :305

(469)التوحيدي ،السابق :71

(470)مؤلف مجهول ،العيون والحدائق ج4 ق1 :16 ؛ أحمد عُلبي ، ثورة الزنج:109

(471)الطـــبري ، تاريخـــه ج9 :410-415 ؛المســـعودي ، مروج الذهب ج4، 568 ؛محمد عبد الغني الشيخ ،ابو حيان التوحيدي ج1 : 133

(472)التوحيدي ،الإمتاع ج1 ،212 والفسولة تعني النذالة

(473)التوحيدي ،الهوامل :210-212

(474)الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي : 73

(475)أحمد أمين، ظهر الإسلام ج1 : 71

(476)الطبري، تاريخه ج9 :415 ؛ المسعودي ،مروج الذهب ج4 : 578

(477)نفسه ج9 :654 وما بعدها ؛ المسعودي ،نفسه :581

(478)محمد عُلبي ،ثورة الزنج :137-138

(479)الدوري ،مقدمة في التاريخ العراق الاقتصادي :75-76

(480)حسن بزون ،القرامّطة:86

(481)مسكويه ،تجارب الأمم ج1 :201 ؛ السيوطي ، تاريخه 383

(482)تاريخه ج10 :24- 27

(483)الســـيوطي ،تاريخـــه :382 ؛ ابن تغري بردي ،النجوم الزاهرة ج3 :78 ؛ الخضري، الدولة العباسية : 351 -353 ، 366

(484)التوحيدي ،البصائر ج9 :62 ،والسروب واحدها سرب وهي القطيع من الغنم والظباء

(485)نفسه ج6 :217-218 ؛ الإمتاع ج1 :44

(486)ابن الأثير ،الكامل ج8 :125، 132

(487)نفسه 236 ؛ حسن بزون ،القرامطة :168

(488)الطبري، تاريخه ج10 :26

(489)التوحيدي ،الإمتاع ج2 :77-78

(490)نفسه :75

(491)أحمد أمين ،ظهر الإسلام ج2-4 :5

(492)التوحيدي ،رسالة السقيفة :209وما بعدها

(493)زكي مبارك ،النثر الفني ج1 : 348

(494)ابن الجوزي ،تلبيس إبليس : 118-119 ؛آدم متز ،الحضارة الإسلاميّة ج1 : 142

(495)التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسةج2 :2

(496) التوحيدي، البصائر ج4: 233

(497) نفسه وانظر مسكويه تجارب الأمم ج2 :334 ؛ ابن كثير ،البداية والنهاية ج11 :246

(498) التوحيدي، البصائر ج4: 233

(499) ابن كثير ،البداية والنهاية ج11 : 269 ؛ آدم متز ،الحضارة الإسلامية ج1 : 143

(500) التوحـيدي ،مثالب الوزيرين : 262 -262 ،195 الإمتاع ج1 : 35 ، 55 ،ج2 :10 15 ، 39،؛ البصائر ج4 :20-21

(501) ابن الأثير ،الكامل ج8:307-309

(502) المقدسي ،أحسن التقاسيم :36

(503) التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة ج3 :188 ؛البصائرج4 :43-44

(504) المقريزي ،النزاع والتخاصم :111 ؛الدوري ،مقدمة في التاريخ الاقتصادي:65

(505) التوحـيدي ،الإمـتاع والمؤانسـة ج1 :211-212 ؛زاهـية قـدورة ،الشـعوبيّة في الحياة الاجتماعـية السياسـية فـي الحـياة الإسلاميّة في العصر العباسي الأول ،ط1 ،دار الكتب العلميّة – بيروت 1972: 22-23

(506) نفسه ج2 :76 ؛ الهوامل :12

(507) محمـد كـرد علـي ، رسـائل البلغاء ،دار الكتب العربيّة الكبرى ،1331 -1913 269 ، الجـاحظ ، البيان والتبين ج3 ،5 وما بعدها ؛ الدوري ،الجذور التاريخيّة للشعوبيّة ،ط1 ،دار الطليعة للطباعة والنشر -بيروت ،1962 :62 ،94-95

(508) إحسان عباس ،أبو حيان التوحيدي :11

(509) التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة ج1 :70- 73

(510) نفسه :7473-

(511) نفسه ج1 :76

(512) نفسه :77

(513) التوحيدي، الهوامل : 104

(514) التوحيدي ،المقابسات :328

(515) التوحيدي ،البصائر ج1 :228

(516) الجيهانــي :نسبة إلى مدينة جيهان ،مدينة بخرسان ،وهو عبدالله أحمد بن محمد وزير صاحب خرسان ،وله من الكتب كتاب المسالك والممالك ... ابن النديم ، الفهرست :153

(517) التوحيدي ،الإمتاع ج1 :79 ويتعاورون ،أي يذكر بعضهم عورة الآخر

(518) نفسه 80

(519) نفسه: 80 -86

(520)نفسه: 86-89

(521) نفسه: 87-59

(522) محمد كرد، رسائل البلغاء : 285 وانظر الإمتاع ج1 :211

(523) مؤلف مجهول، العيون والحدائق ج4 ق2 :353 ؛ ابن كثير ،البداية والنهاية ج11 :227

(524) التوحيدي ،الرسائل:411

(525) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ج15 : 10

(526)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1 :31

(527) التوحيدي، الرسائل :407 ، 362

(528) انظــر التوحــيدي، الإمتاع والمؤانسة ج3 :152 ؛ مسكويه، تجارب الأمم ج1 : 8، 226 ، 239 ،241 ؛ أحمد أمين، ظهر الإسلام ج2 :7 ؛ حسن منيمنة، تاريخ الدولة البويهية: 54 .

(529)التوحيدي :الإمتاع ج3 : 151

(530) انظر الحنبلي، شذرات الذهب ج2 :186

(531) انظر التوحيدي ،الإمتاع ج3 : 160- 162 ؛ أحمد أمين ،ظهر الإسلام ج2: 10

(532) مســكويه، تجــارب الأمم ج2 : 168، ابن الأثير الكامل ج9 : 9 ،15 ،ج8 :520، 505ابن الجوزي، المنتظم ج6: 390 ، 387

(533) السيوطي ،تاريخه :353

(534) نفسه :410

(535) نفسه :402

(536)التوحيدي ، الهوامل :261 ، البصائر ج5 ،133-134

(537) التوحيدي ،الإمتاع ج991- 98:

(538) الماوردي ،الأحكام السلطانيّة :225،227

(539) التو حيدي ،الإمتاع ج1 :98 -99 ؛ الماوردي، الأحكام السلطانيّة :231-233 ، 301

(540)التوحـــيدي، نفسه ج2 :126 ،قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة ،،شرح وتحقيق محمد حســين الزبـــيدي، دار الرشـــيد للنشر، 1981 217 : ؛ الماوردي، الإحكام السلطانيّة:295 ؛ صباح الشيخلي ، نشوء الأصناف :15-16

(541) قدامةبن جعفر ،الخراج : 218

(542) صباح الشيخلي ، الأصناف في العصر العباسي : 19 .

(543) التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ج1 : 99 ، 163 ، 164 ، 166.

(544) نفسه : 99.

(545) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار صادر بيروت، ج2 : 483 .

(546)آدم متز، الحضارة الإسلامية ج2 : 371 .

(547) الدّمشـــقي، الإشارة إلى محاسن التّجارة وغشوش المدلسين فيها ، اعتنى به محمود الأرناؤط، ط1، دار صادر بيروت ، 1999 : 62 .

(548) المقدســـي، احسن التقاسيم 101 : ؛ آدم متز، الحضارة الإسلامية ج2 :388 ، 390 ؛ التنوخي ، نشوار المحاضرة ج8 : 41.

(549) التنوخـــي، نشـــوار المحاضرة ج1 : 327 ؛ ابن الأخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة : 25 - 27 .

(550) ابـــن الجـــوزي ، مناقـــب بغداد : 14 ، 26 ، 27 ، 28 ؛ اليعقوبي ، البلدان ، 17 - 18 ؛ الخطيب البغدادي ج1 : 68 .

(551) الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة : 63 .

(552)نفسه : 66.

(553) نفسه 67

(554) التوحيدي ، المقابسات : 401

(555) التوحيدي ،الإمتاع ج3 :61-62 ، انظر البصائر ج2 :96

(556) التوحيدي ،الصداقة والصديق : 189

(557) نفسه :32

(558) التوحيدي ،البصائر ج4 : 26-27

(559)الثعالبي، خاص الخاص :120

(560)ابن الجوزي ،صيد الخاطر :494

(165) الدّانــق سدس الدّرهم ، والقيراط : نصف الدانق ، والحبة : وزن شعيرتين ، والطسوج : ربع الدانــق. التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ج1 : 34 ،36 ؛ الهوامل والشوامل 161 -164 ؛ آدم متز، الحضارة الإسلامية ج2 :375 ،

(562) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1: 98

(563) إخوان الصفا، الرسائل ج1: 289

(564) نفسه :291

(565) نفسه:288

(566) نفسه :286

(567) نفسه :286

(568)نفسه:284 -285

(569) أحمد أمين ،ظهر الإسلام: ج2 :16

(570) الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي : 117

(571) التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة ج1 : 121 ، ج2 :4

(572) ابــن الجــوزي، المنــتظم ح7 :127 ، الدمشــقي، الإشارة إلى محاسن التّجارة: 37 – 39 التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسةج2 : 179

(573) الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي :117

(574)الأزدي، :الحكاية، 36 ؛ الوزراء ، الصابي : 20-21

(575) التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ج1 : 122

(576)التوحيدي ،البصائر والذخائر ج9 : 100 ، 167

(577)الخطيب البغدادي ، تاريخه ج1 :70

(578)التوحيدي، البصائر ج3 : 38

(579) نفسه، ج3 :38

(580) نفسه ج3 : 35 ؛ الدمشقي الإشارة إلى محاسن التجارة 31 - 33

(581) التوحيدي ،الإشارات الإلهية: 62

(582)التوحيدي ،البصائر والذخائر ج2: 69

(835) التوحـــيدي، الهوامـــل والشـــوامل: 346 ؛ الخطيـــب البغدادي ، تاريخه ج1 :104 ،مؤلف مجهول، العيون والحدائق ج3: 366 ؛ الدمشقي ، الإشارة إلى محاسن التجارة : 26 – 29

(584) ابن الجوزي ، مناقب بغداد :26

(585) ابـــن الفقـــيه ،مختصر كتاب البلدان ،دار إحياء التراث العربي ،ط1 ، 1408 هـــ –1988م 231 ؛ التوحـــيدي البصـــائر والذخائـــر ج1 :13 ؛ الإمـــتاع والمؤانسة ج1 :102 ؛الدوري تاريخ العراق: 131

(586) التوحيدي ،المقابسات :233 ؛ مثالب الوزيرين : 101

(587) الأزدي ،الحكاية :140

(588) التوحـــيدي ، الهوامـــل والشوامل :62 – 63 ؛ح ابن الإخوة ،معالم القربة في أحكام الحسبة: 173 – 174

(589) التنوخي، نشوار المحاضرة ج2 :132 ؛ التوحيدي ، البصائر والذخائر ج3: 123

(590) التوحيدي ،نفسه ج9 76-75 :

(591) نفسه ج1: 14 ،ج7: 111

(592)نفسه ج1: 13

(593) مؤلـــف مجهول، العيون والحدائق ج4 ق2 : 183؛ الخطيب البغدادي ، تاريخه ج1 : 116 ، ابن الجوزي، مناقب بغداد: 26

(594)ابن الأخوة ،معالم القربة :348 –349

(595)التوحيدي ،البصائر والذخائر ج8 : 171 ، ج9 : 62 ؛ التنوخي ،نشوار المحاضرة ج6: 33

(596) التنوخي ،نفسه ج2 : 112 –113

(597)التوحيدي ،البصائر ج1 : 111–112

(598)المقدســـي، أحسن التقاسيم :129 ، الأزدي، الحكاية: 41– 42 . والأشنان: نبات لا ورق له، إلاّ ان أغصانه دقيقة رخصة.

(599) التوحيدي ،مثالب الوزيرين : 307 ؛المقابسات :233

(600) التوحيدي ، مثالب: 23 ؛ ابن الجوزي ،مناقب بغداد : 26

(601) التوحيدي ، الصداقة والصديق : 34

(602) التوحيدي ،البصائر والذخائر ج3 : 68–69

(603)نفســـه ج5: 123 ،117 ، 42 – 43 ، ج3 : 69 ؛ مثالـــب الوزيريـــن : 101 ، والهوامـــل

والشوامل :261

(604)الدوري ، نشوء الأصناف والحرف في الإسلام :10

(605) التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ج3 : 132 .

(606)نفسه ، ج1 : 48 .

(607)إخوان الصفا ، الرسائل ج1 : 289.

(608)الجاحظ ، البيان والتبين ج1 : 249 .

(609) الخطيب البغدادي ، تاريخه ج12 : 124.

(610) التوحيدي ، البصائر والذخائر ج6 : 192 .

(611) التوحـيدي ، الإمـتاع والمؤانسـة ج2 : 26 ، ج3 : 188 ؛ صباح الشيخلي ، الأصناف في العصر العباسي: 136 .

(612) التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ج2 : 88-90.

(613) أحمد أمين ، ظهر الإسلام ج 1 : 97-98.

(614) التوحيدي ، البصائر والذخائر ج5 : 133-134 .

(615) ابن الأثير ، الكامل ج8 : 391 ، 377 ، 465 .

(616) التوحيدي ، مثالب الوزيرين : 79 ، 200 ؛ الهوامل والشوامل : 239.

(617)المقدسي ، احسن التقاسيم : 449.

(618) التوحيدي ، مثالب الوزيرين : 56.

(619) ابن الأثير ، الكامل ج8 : 116 حوادث سنة 307 هـ .

(620) الصولي، اخبار الراضي : 71 .

(621)التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ج2 : 26 .

(622) التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة ج3 : 5

(623) الصابي ، الوزراء : 163

(624)التنوخي ، نشوار المحاضرة ج4 : 163 ،ج1: 22

(625) انظر التوحيدي ، البصائر والذخائر ،ج3: 89، ج4 :45، 205؛ الصداقة والصديق :33

(626)التوحيدي ، مثالب الوزيرين : 327 -328

(627) التوحيدي ، الرسائل : 362

(628) التوحيدي ،الإمتاع ج1 :105

(629) التوحيدي، مثالب الوزيرين :51-52

(630)نفسه :708

(631)التوحيدي، الإمتاع ج1: 7-8

(632)التوحيدي، البصائر ج7 :177

(633) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج2: 179- 180 ؛ الإشارات الإلهية :358

(634) التوحيدي، رسائله :390

(635) السيوطي، تاريخه :374

(636) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج3: 223

(637) نفسه ج3: 88

(638) نفسه ج1: 16

(639) التوحيدي، مثالب الوزيرين :25

(640) التوحيدي ، المقابسات :222 ؛ البصائر والذخائرج5 :170

(641) أحمد أمين ، ظهر الإسلام ج1 :10

(642) الثعالبـــي، التمثـــيل والمحاضرة، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، طبعة جديدة 1983م: 394

(643) المكي ، قوت القلوب ج1: 242 وما بعدها

(644) التوحيدي ، الإشارات الإلهية : 188 -189

(645) نفسه:116

(646) التوحيدي، المقابسات : 195 .

(647) التوحيدي، البصائر والذخائر ج7 : 279.

(648) نفسه ج3 : 24 ؛ الخطيب البغدادي تاريخه ج7 : 246

(649)نفسه ج8 : 33-34 ، ج3 : 97.

(650) التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة ج311:

(651) التنوخي ، نشوار المحاضرة ج2 : 275 .

(652) التوحيدي ، البصائر والذخائر ج4 : 45.

(653)التوحيدي ، المقابسات : 196 .

(654) مؤلف مجهول ، العيون الحدائق ج4، ق2: 353؛ ابن الأثير، الكامل ج9: 94.

(655)المقريـــزي ، إغاثة الأمة في كشف الغمة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1359هـ - 1940 م . 67 .

(656)التنوخي ، الفرج بعد الشدة ج4 : 237 .

(657) الجاحظ ، البخلاء : 49.

(658) التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة ج3: 160

(659) ابن الجوزي ،المنتظم ج7: 47

(660) التوحيدي ،البصائر والذخائر ج6: 172

(661) نفسه ج3 :148

(662) الجاحظ ، البخلاء :46 وما بعدها

(663)أحمد حسين ،أدب الكدية في العصر العباسي ،دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا – اللاذقية، ط1 ،1986 :30

(664)نفسه :34-35

(665) الثعالبي ،يتيمة الدّهر ج3: 355

(666)التوحيدي ،البصائر والذخائر ج6: 145 والزنبيل :القفة

(667) نفسه ج8: 90

(668) نفسه ج2 :214

(669) الثعالبي، يتيمة الدهر ج3: 369 ، والقن: العبد ، والمذقان :المحراب

(670) التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسةج3: 34

(671)أبو عمرة : الجوع

(672) التوحيدي :الإمتاع والمؤانسة ج3: 70

(673)التوحيدي ،مثالب الوزيرين :51-52

(674) التوحيدي ،البصائر ج4: 64

(675)الآبي ، نثر الدرر ج2: 354

(676) الأزدي ،الحكاية:13 -14

(677) التوحيدي ، البصائر والذخائر ج8: 20-21

(678) الآبي ،نثر الدرر ج2 :337 ؛ التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة ج3 :36

(679) التوحيدي ،البصائر والذخائر ج5 : 165

(680) نفسه ج5 :165 . السكورجات ، جمع سُكُرُجَة وهي إناء صغير يؤكل فيه الشيء من الأدم

(681)نفسه :110- 111

(682) نفسه ج2 : 96

(683)نفسه ج9 :41

(684)سورة الكهف :62

(685)الآبي نثر الدرر ج2: 236

(686)محمود إبراهيم، أبو حيان التوحيدي:24؛ عبد الغني الشيخ، أبو حيان التوحيدي ج1: 26

(687)التوحـــيدي، الإمـــتاع والمؤانسة ج1 : 32 ، ج2 14 ؛ محمود إبراهيم، أبو حيان التوحيدي : 27.

(688)محمود إبراهيم، أبو حيان التوحيدي : 23- 24.

(689)إبراهـــيم أبـــو الخشب، تاريخ الأداب العربي في العصر العباسي الثاني ،د،ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية د،ت:32

(690)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1 :8

(691)التوحيدي، الصداقة والصديق : 35

(692)أبو الفداء، المختصر في أخبار بني الشر، ط1 ،المطبعة الحسينية المصريّة ، ج1-2 :129

(693)محمود إبراهيم، أبو حيان التوحيدي:25 ؛ عبد الغني الشيخ، أبو حيان التوحيدي ج1 :33

(694)آدم متز، الحضارة الإسلامية ج1 :322

(695)المقدسي، أحسن التقاسيم : 449

(696)التوحيدي، البصائر والذخائر ج1 : 41.

(697)محمـــد محاسنه، أضواء على تاريخ العلوم عند المسْلمين ، ط1 ، دار الكتاب الجامعي،العين : 2000- 2001 :157- 158 .

(698)التوحيدي، مثالب الوزيرين 228 : ؛ الإمتاع والمؤانسة ج1 : 35.

(699)مسكويه، تجارب الأمم ج2 :42- 52

(700)التوحيدي ، مثالب الوزيرين : 325

(701)عـــبد الغنـــي الشـــيخ ، أبـــو حـــيان التوحيدي ج1 : 35- 36 ؛ محمود إبراهيم ، أبو حيان التوحيدي : 26.

(702)ابن الجوزي، المنتظم ج7 : 172.

(703)التوحيدي ،البصائر ج6: 114؛ آدم متز ،الحضارة الإسلامية ج1 : 332- 333.

(704)شـــوقي ضـــيف، العصر العباسي الثاني : 123 ؛ محمد محاسنه ، أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين : 143

(705)التوحيدي ، مثالب الوزيرين : 223، 325.

(706)يـــاقوت الحموي، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي ط1، 1993م ج 2 : 877 .

(707)نفسه ج6: 2427 .

(708)التوحيدي، مثالب الوزيرين : 229.

(709)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1 : 33.

(710)التوحيدي، الرسائل : 273، 279 .

(711)التوحيدي، مثالب الوزيرين : 10، 55 ، 56، 82؛ 113.

(712)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1 : 34- 35 .

(713)الحبيب شبيل، المجتمع والرؤية : 91.

(714)عبد الغني الشيخ ، أبو حيان التوحيدي ج1 : 39- 41.

(715)التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ج1 : 108.

(716)التوحيدي ، الرسائل : 326 وما بعدها.

(717)التوحيدي ، مثالب الوزيرين : 26.

(718)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج2: 34 .

(719)نفسه ج1 : 33.

(720)التوحيدي ، الإمتاعْ والمؤانسة ج1 : 32.

(721)نفسه ، 136- 140.

(722)عبد الغني الشيخ ، أبو حيان التوحيدي ج1 : 29 ؛ أحمد أمين ، ظهر لإسلام ج1 : 229 .

(723)التوحيدي ،المقابسات :75

(724)نفسه :146 103، 169،

(725)نفسه :164 ، 241، 244 ؛أحمد أمين ،ظهر الإسلام ج2 :225

(726)نفسه :301 ، 303 ؛ البصائر ج4 :26 الإمتاع والمؤانسة ج2 :92 ؛أحمد أمين ،ظهر الإسلام ج2 :224-225

(727)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج2 : 130-147

(728)التوحيدي، المقابسات :146، 169

(729)التوحيدي، البصائر والذخائر ج4 : 101.

(730)نفسه ج6 :36

(731)التوحيدي، المقابسات :129

(632)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1 :132

(733)التوحيدي، المقابسات :129

(734)التوحيدي، البصائر ج1: 184 ؛ج5 :144 ؛ج6 :218

(735)التوحيدي، البصائر ج6 :36، 37 41، 40، ؛ج1 :184 ؛ج5: 121

(736)التوحيدي، المقابسات : 55

(737)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج:29، 42

(738)نفسه ج1 : 24

(739)محمد محاسنة، أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين : 141

(740)نفسه :141

(741)التوحيدي، الصداقة والصديق :80 ؛المقابسات :85 ؛ الإمتاع والمؤانسة ج1 :32

(742)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج2 :5

(743)نفسه ج1 :70 وما بعدها

(744)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1: 159

(745)نفسه ج2 : 50

(746)نفسه ج2 : 130

(747)التوحيدي، مثالب الوزيرين : 271.

(748)التوحيدي، مثالب الوزيرين : 270 ؛ياقوت الحموي، معجم الأدباء ج2 :909

(749)نفسه: 198.

(750)نفسه: 115.

(751)التوحيدي، الصداقة والصديق : 80

(752)التوحيدي، مثالب الوزيرين 137 –139

(753)التوحيدي، مثالب الوزيرين:140

(754)التوحيدي، المقابسات :95

(755)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1 :108

(756)التوحيدي، الصداقة والصديق :80

(757)التوحيدي، المقابسات : 274

(758)شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني : 122.

(659)علي محمد، الأندية الأدبية:128

(760)انظر التوحيدي، مثالب الوزيرين :167 ؛البصائر ج4 :216

(761)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1 :108 ؛ ياقوت الحموي ،معجم الأدباء ج2 :894

(762)نفسه :109 ،الشائل: المرتفع ،الجانح :المائل

(763)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة : 109.

(764)نفسه: 111 .

(765)نفسه: 114.

(766)نفسه: 115.

(767)نفسه: 115 .

(768)نفسه: 119

(769)نفسه ج1 : 96.

(770)نفسه.

(771)نفسه.

(772)نفسه : 100 –101

(773)التوحيدي، مثالب الوزيرين : 154 .

(774)التوحيدي، البصائر والذخائر ج7 : 66– 68.

(775)التوحيدي، البصائر والذخائر ج7 : 113.

(776)أحمد أمين، ظهر الإسلام ج2 :229 ؛ شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني :439

(777)أنظـــر أحمـــد الحوفـــي، تيارات ثقافية بين العرب والفرس، دار النهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة _القاهرة ،ط3 ،1398هـــ –1978م : 106،98، 49–57 ،126

(778)نفسه: 98– 99.

(779)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1 : 78– 91.

(780)انظر التوحيدي، البصائر والذخائر ج4 : 150 ؛ ج3 :181 ؛ أحمد الحوفي ، تيارات ثقافية: 120– 125 .

(781)التوحيدي، البصائر والذخائر ج3 : 179– 180 .

(782)التوحيدي، الصداقة والصديق : 69.

(783)نفسه : 71.

(784)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1 : 74.

(785)عبد الغني الشيخ، أبو حيان التوحيدي ج1 : 38.

(786)التوحيدي، البصائر والذخائر ج1 : 181.

(787)نفسه :179- 180

(788)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج 1 :102

(789)نفسه : 102

(790)التوحيدي، المقابسات :58 ،60 -61 ؛البصائر والذخائر ج3 :29

(791)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1 :109

(792)الحبيب شبيل، المجتمع والرؤية :99

(793)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج2 :9.

(794)نفسه: 10.

(795)نفسه.

(796)التوحيدي، رسائله :319 وما بعدها

(797) التوحيدي، البصائر ج3 :112.

(798)التوحيدي، الهوامل :215 ؛ البصائر ج8 :24 ؛ مصطفى الشكعة ،معالم الحضارة الإسلامية، دار العلم للملايين ،د0ط ،د0ت:131.

(799)الحبيب شبيل، المجتمع والرؤية :100

(800)التوحيدي، الهوامل :104.

(801)إحسان عباس، أبو حيان التوحيدي :20-21.

(802)عبد الغني الشيخ، أبو حيان التوحيدي ج2 :43 ؛ سمير الدروبي، منهجيّة المسلمين في الترجمة في العصر العباسي، مجلة ترجمان ،1999 ،مجلد 8 -ع1 :60-61

(803)السيوطي، تاريخه: 259-263 ، 269

(804)صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق: حياة بوعلون، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، ط1 ،1985 130 -131

(805)ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، دار الثقافة بيروت ،ط4 ،1408هـ - 1987م ج1 :124

(806)القفطي، أخبار الحكماء :46 -47

(807)ابن النديم، الفهرست :303 -304

(808)سمير الدروبي، منهجيّة العلماء المسلمين في الترجمة :59

(809)نفسه: 80-85

(810)مـــريم ســـلامة كـــار، الـــترجمة في العصر العباسي – مدرسة حنين بن إسحاق وأهميتها في الترجمة ، ترجمة :نجيب غزاوي ،منشورات وزارة الثقافة –سوريا /دمشق 1998 ،دط:36-37

(811)التوحيدي، المقابسات: 266 – 267 ؛ الإمتاع والمؤانسة ج1 :111

(812)التوحيدي، المقابسات:266- 267

(813)محمـــود فهمي، الفكر اللُغوي في إطار لقاء الثقافات ،مجلّة فصول ،1996م، ع1-2 ، م15 : 191

(814)التوحيدي، المقابسات :164

(815)التوحيدي، البصائر :179 –181 ؛ج3 :177 ،172

(816)التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1: 32 ،37، ابن النديم ،الفهرست :322

(817)نفسه: 32، 33

(818)نفسه: 33-34

(819)نفسه 32 ،37

(820)نفسه:111

(821)نفسه: 112

(822)عبد الغني الشيخ، أبو حيان التوحيدي ج1 :43

(823) آدم متز، الحضارة الإسلاميّة ج1 : 133

(824) التوحيدي، الإمتاع ج3 : 186

(825) نفسه

(826) نصـــيري فـــرقة مـــن غـــلاة الشيعة، كانوا يؤلهون علي، وينسبون إلى رجل اسمه محمد بن نصـــير ادّعى النبوّة وأباح المحارم ونكاح الرّجال بعضهم بعضا/ الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، دار الفكر:188 .

(827)الجاروديـــة: فرقة من الزيدية، ينسبون إلى أبي الجارود ،يزعمون أن الرسول صلى الله عليه وســـلّم نـــصّ علـــى إمامة عليّ بالوصف دون الاسم وكفّروا الصحابة لتركهن بيعة عليّ/ البغدادي، الفرق بين الفرق ، دار الكتب العلميّة –بيروت: 22

(828)القطعـــيّة، ويقـــال لهم الأثني عشريّة، وذلك لدعواهم أن الأمام المنتظر هو الإمام الثاني عشر، ويـــزعمون أنّ النبـــيّ صـــلى الله علـــيه وسلّم نصّ على لإمامة عليّ ،وإن عليّا نصّ على إمامة ابنه الحسن وهكذا الشعري / الفرق بين الفرق:43

(829)الجبائـــيّة: فـــرقة من المتكلمين تنسب إلى أبي محمد بن عبد الوهاب الجبائي، والأشعريّة فرقة

مــن المتكلميــن أيضــا، وأصـــحاب أبي الحسن الأشعري من أهل السّنّة/ الفرق بين الفرق: 135، الشهرستاني، الملل والنحل:78، 94

(830)الخــوارج هــم الذين خرجوا على علي في حرب صفين، وتطلق على كل خارج على الإمام المــتفق علــيه، نفســه 51 ومــا بعدهــا، الشعيبية: فرقة من الخوارج ينسبون إلى رجل منهم اسمه شعيب/نفسه 64

(831)القــرامطة: هم أتباع الزنادقة من الفلاسفة ، القائلين بنبوة زرادشت وماني ومزدك، ظهروا في نــواح عــدة، أشهرها البحرين سنة 278 هــ ، وقد أباحوا المحرمات وقطعوا طريق الحج وهاجموا البيت الحرام/ الإمتاع ج3: 77.

(832)الــراوندية: هم اتباع عبدالله الراوندي ، نادوا بألوهية الخليفة المنصور/ الإمتاع والمؤانسةج2: 78 .

(833)الــنجارية: أصــحاب الحســين بن النجار المعتزلي /الفرق بين الفرق :155 ؛ الشهرستاني، الملل والنحل:88

(834)الزعفرانــية: فــرقة مــن من النجاريّة ، وينسبون إلى الزعفراني/ البغدادي، الفرق بين الفرق 157

(835)القدريــة: فــرقة تنفــي القدر عن الله عز وجل وتقول: إن العبد مخير في أفعاله، وليس للقدر دخل فيها/ الشهرستاني، الملل والنحل:43

(836)الجبريّة: فرقة تثبت القدر على الله تعالى وتقول: إنّ العبد مجبر في أفعاله/نفسه

(837)المســتدركية: فرقة من النجارية، استدركوا على أسلافهم ما فاتهم/ البغدادي، الفرق بين الفرق: 157

(838)الحارثــيّة: فرقة من الأباضيّة ينسبون إلى حارث بن مزيد الاباضي ،وهم الذين قالوا في باب القدر بمثل قول المعتزلة .وزعموا أيضا أن الاستطاعة قبل الفعل/ الإمتاع ج2 ،78

(839)التوحيدي ،الإمتاع ج2 : 77 – 78

(840) نفسه ج3 :151

(841)نفسه : 161

(842)الحبيب شبيل ،المجتمع والرؤيّة :68

(843)أكرم فاضل ، بغداد في القرن الرابع الهجري :15

(844)أكرم فاضل، بغداد في القرن الرابع الهجري:15

(845)آدم متز ، الحضارة الإسلامية ج1 : 143

(846)محمــد الخضــري ، تــاريخ التشريع الإسلامي ،ط7 ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، 1401هـ -1981 م: 182 وما بعدها

(847)نفسه :186

(848)التوحيدي ، البصائر ج1 : 6

(849) محمد الخضري ، تاريخ التّشريع الإسلامي : 229 -261

(850)التوحيدي ،البصائر ج8 : 137-138

(851)نفسه: 32 ،138؛ أنظر ج9 : 7 ج7 :61، 63، ج4 : 239.

(852)التوحيدي، الإمتاع ج2 : 76

(853)التوحيدي، الرسائل : 330- 331

(854)شـوقي ضيف ،العصر العباسي الثاني :101 ؛ عاطف شكري أبو عوض ، الزندقة والزنادقة، د.ط ، دار الفكر - عمان :111 -113

(855)الجاحظ ، البيان والتّبين ج3 :29 -30

(856) محمــد الفيومــي، الفرق الإسلام، وحقّ الأمة السياسي، ط1 ، دار الشروق ،1419 - 1998 295، 301

(857) التوحــيدي، الإمتاع ج2 : 20 ؛ انظر مثالب الوزيرين: 57 ، 109؛ البصائر ج7 :108 ، ج 9 : 53

(858)التوحيدي ، البصائر ج7 : 108 ، ج9 :53 ؛ مثالب الوزيرين : 57

(859)العسقلاني ، لسان الميزان ج7 : 39

(860)ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ج15 : 5

(861)الشهرستاني ،الملل والنحل :43

(862) البغدادي ،الفرق بين الفرق :15 ،81 وما بعدها

(863)الشهرستاني ، الملل والنحل :44 -45 ؛ محمد الفيومي ،الفرق الإسلاميّة :413

(864)الأبادي ،الأصول الخمسة ،حققه وقدّم له :فيصل بدير عون ، ط1 ، لجنة التأليف والتعريب - جامعة الكويت ، 1998 : 67 - 72 ، التوحيدي ، مثالب :102

(865)التوحيدي ، الهوامل : 135

(866)التوحيدي ،مثالب الوزيرين : 312

(867)التوحيدي ،الإمتاع ج 1 :54

(868)التوحيدي ،مثالب :167 ،19 ، البصائر ج7 : 121

(869)التوحيدي ،البصائر ج4 :215 -216

(870)نفسه

(871)نفسه ج1032 :

(872)الشهرســـتاني ،الملل والنّحل :146 وما بعدها ؛ عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ،ط4 ،دار العلم للملايين ،1983 م :211

(873) الشهرستاني ، نفسه 146 ؛ آدم متز ،الحضارة الإسلاميّة ج1 : 143

(874) محمد جواد مغنيّة ،الشيعة في الميزان ، دار الشروق :75 وما بعدها

(875) آدم متز ،الحضارة الإسلاميّة ج1 : 144

(768) نفسه : 124

(778)المقدسي ، أحسن التقاسيم :238

(878)التوحيدي ، البصائر والذخائر ج7 : 254 ؛ البغدادي، الفرق بين الفرق : 33 _ 34

(879)سورة الرعد آية : 39

(880)التوحيدي ، البصائر ج1628 : محمد مغنية ، الشيعة في الميزان : 48

(881)التوحيدي ، مثالب الوزيرين : 26 ؛ البصائر والذخائر ج8 : 134

(882)التوحيدي ، البصائر والذخائر ج8 : 162

(883)التوحيدي ، مثالب الوزيرين : 312

(884)نفسه 55

(885)عبد الغني الشيخ ، أبو حيان التوحيدي ج1 : 124

(886)التوحيدي: الصداقة والصديق : 78

(887)إحسان عباس ،أبو حيان التوحيدي :15

(888)عبد اللطيف الراوي ،المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري : 215

(889)التوحـــيدي، الإشـــارات الإلهيّة:414 ،415 ؛الإمتاع والمؤانسة ج1 :1 ؛ المقابسات ،415 ؛ المكي، قوت القلوب ج2481 :

(890) نفسه ج1 : 268

(891)نفسه :262 ؛ التوحيدي ،الإمتاع والمؤانسة ج1 :15

(892)التوحيدي ،نفسه ج1 :17

(389)نفسه ج2 : 127

(894) التوحيدي الهوامل: 35

(895)التوحيدي : البصائر ج1 : 152

(896)نفسه ج1 : 203 -204

(897)أحمد أمين ، ظهر الإسلام ج1 : 227

(898)التوحيدي ، الإشارات الإلهية :113

(899)التوحيدي ، الرسائل : 343

(900)عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي :470 ؛ شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني : 106

(901) المــرقعة ، مــن لباس الصوفيّة لما فيها من الرقع ، والناموسية ،هي كلمة شائعة في استعمال العامّة وهي نوع من النِّعال البالية يلبسه الفقراء ،الإمتاع ج1 :51

(902) نفسه ج3 :92

(903) نفسه ج2 :155-157

(904) التوحيدي ،الإمتاع ج1 : 13

(905) فايــز طـــه عمـــر ، النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي ، ط1 ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 2000 م : 162

(906) التوحيدي ، الإمتاع ج1 : 7

(907) التوحيدي ، الإشارات الإلهيّة : 18 -19

(908) فايز طه، النثر الفني عند أبي حيان : 167

المراجع

الأبــادي" القاضـــي عــبد الجــبار بت أحمد الأسد المتوفى 415هــ"، (1998م) **الأصــول الخمســة**، حققــه وقــدّم له: فيصل بدير عون،ط.1، لجنة التأليف والتعريب – الكويت

الآبي "الوزير الكاتب أبي سعيد منصور بن الحسين المتوفى421 هــ"،(1981م) **نثر الــدّر**، تحقيق: محمد علي قرنة، مراجعة علي محمد البجاوي، الهيئة المصريّة العامة للكتاب.

إبراهــيم، زكــريا، (د.ت) **أبــو حيان التوحيدي،أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

إبراهــيم، محمــود، (د.ت) **أبــو حــيان التوحــيدي فــي قضايا الإنسان واللُّغة والعلوم**، دار المتحدة للنشر، د.ن.

ابــن الأثــير " الشيخ عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عــبد الكــريم "،(1399هــــ- 1979م) **الكامل في التاريخ**، دار صادر- بيروت.

ابن الأخوة، (د.ت) **معالم القربة في أحكام الحسبة**، تحقيق: محمد محمود سفيان، وصدّيق أحمد عيسى المطيع، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب

إحســان النص، محمد(1982) مواقف لأبي حيان التوحيدي ونظراته الاجتماعيّة واللغوية، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، ع8،م2،ص116

الأزدي " محمــد بــن أحمد المطهر"،(1902م) **حكاية أبي القاسم البغدادي**، طبع بمطــبعة كــرل ونــتر في هيدلبرج ،أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد.

الأصفهاني، ابو الفرج، **القيان**، تحقيق:جليل العطيّة، رياض الريس للكتب والنشر، د.ن.

الأعســم، عــبد الأمــير،(1406هــــ-1986م) **أبــو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات**، دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد، ط1.

ابـــن أبي أصيبعة، (1408هـــ -1987م) **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، دار الثقافة – بيروت، ط4.

أمين، أحمد،(1364هـــ -1945م) **ظهر الإسلام**، د.ن، ط3 .

لأندلســـي، صـــاعد،(1985م) **طــبقات الأمم**، تحقيق: حياة بوعلوان، دار الطليعة للطباعة والنشر – بيروت، ط1.

بانـــياجو، خوان أنطونيو بانتشيكو ،(1995م) أبو حيان التوحيدي أو العالمي الفرد، **مجلّة فصول**، ع3، م14،ص48.

بـــزون، حسن ،(1408هـــ -1988م)**القرامطة بين الدّين والثورة**، دار الطليعة للطباعة والنشر– بيروت، ط1.

الـــبغدادي "عبد القاهر بن طاهر بن محمد الإسفرئيني التميمي"،(د.ت) **الفرق بين الفرق**، دار الكتب العلميّة – بيروت.

البيروني،(د.ت) **الآثار الباقية في القرون الخالية**، دار صادر ـــ بيروت.

ابـــن تغـــري بـــردي، (1383هـــــ-1963م) **النّجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف.

التنوخي"القاضي أبي علي المحسن بن علي المتوفى384هـــ"،(1398هـــ- 1978 م) **الفرج بعد الشدة**، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر بيروت.

التنوخـــي، (1390هـــ -1971م) **نشوار المحاضرة**، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر بيروت.

التوحـــيدي، "أبو حيان علي بن محمد بن العباس المتوفى 414هـــ"،(د.ت) **الإمتاع والمؤانســـة**، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت.

التوحـــيدي (1402هـــ -1982م) **الإشارات الإلهية**، تحقيق: وداد القاضي، دار الثقافة بيروت، ط3.

التوحـــيدي (1984م) **البصـــائر والذخائر**، تحقيق: وداد القاضي،ط.1، دار صادر بيروت.

التوحـــيدي (د.ت) **رسائل التوحيدي**، تحقيق إبراهيم الكيلاني، طلاس للدراسات والترجمة والنشر.

التوحـــيدي (1416هـــ- 1996م) **الصـــداقة والصـــديق**، عني بتحقيقه إبراهيم الكيلاني، دار الفكر المعاصر -بيروت، دار الفكر ــ دمشق، ط3.

التوحيدي (1970م) **المقابسات**، حققه وقدّم له محمد توفيق حسين، مطبعة الإرشاد بغداد.

التوحـــيدي (1370هــ- 1951م) **الهوامل والشوامل**، نشره: أحمد أمين والسيد أحمد صقر، مطبعة التأليف والترجمة والنشر.

الثعالبـــي" عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المتوفى 430هــ"، (1983م) **التمثيل والمحاضـــرة**، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، طبعة جديدة.

الثعالبـــي (1538هـــ-1958م) **ثمـــار القلوب في المضاف والمنسوب**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف.

الثعالبـــي (د.ت) **خاص الخاص**، شرحه وعلق عليه مأمون بن محي الدين الجنان، د دار الكتب العلمية ــ بيروت.

الثعالبـــي (1399هــ-1979م) **يتيمة الدهر**، بعناية محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلميّةــ بيروت.

الجـــاحظ، أبـــو عثمان عمر بن بحر،(د.ت) **البخلاء**، تحقيق: طه الحاجري، دار المعارف- مصر ط5 .

الجـــاحظ (د.ت) **البيان والتبين**، شرح وتحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل ــ بيروت.

الجـــاحظ (1386هـــ -1967م) **الحيوان**، تحقيق: عبد السلام هارون، شركة مصطفى الباني الحلبي وأولاده – مصر،ط3.

الجاحظ (1411هــ- 1991م) **رسائل الجاحظ**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل -بيروت، ط1.

ابــن جعفر، قدامة (1980م) **الخراج وصناعة الكتابة**، شرح وتحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر.

ابــن الجــوزي "أبــو الفرج عبد الرحمن المتوفى سنة 597هــ" (1409هــ - 1988م)، **أخــبار الحمقى والمغفلين**، تحقيق الشيخ محمد سكر، دار إحياء العلوم بيروت،ط1.

ابن الجوزي (1405هــ - 1985م) **تلبيس إبليس**، تحقيق: السيد الجميلي، الناشر دار الكتاب العربي، ط1.

ابــن الجــوزي (د.ت) **صيد الخاطر**، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، طبعة محققة تحقيقا علميا، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية، دار الشباب للطباعة والنشر القاهرة.

ابــن الجــوزي (1359هــ) **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، مطبعة دار دائرة المعارف العثمانية، العاصمة حيدر آباد .

ابــن الجــوزي (1342هــ) **مناقب بغداد**، تحقيق: محمد بهجة الأثري البغدادب، مطبعة دار السلام-بغداد.

حجــازي، محمــد فهمــي، (1996) الفكر اللغوي في إطار لقاء الثقافات، **مجلة فصول** ع (1-2) م15،ص190.

الحريتانــي، سليمان ،(1997م) **الجواري والقيان في المجتمع العربي الإسلامي**، دار الحصاد للنشر والتوزيع - دمشق،ط1.

حســين، أحمــد، (1986م) **أدب الكديــة في العصر العباسي**، دار الحوار للنشر والتوزيع-سورية اللاذقية، ط1.

حســين، يحي أحمد عبد الهادي ، (1412-1992) **الفتوة في بغداد في العصر العباســي الأخــير**،رســالة ماجستير غير منشورة، بإشراف الدكتور عبد العزيز الدوري، الجامعة الأردنية.

الحوفــي، أحمد،(1398هــ) **تيارات ثقافية بين العرب والفرس**، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة - القاهرة، ط3.

الحموي، ياقوت، (د.ت) **معجم الأدباء**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الحمـــوي، يـــاقوت،(1993م) **معجـــم الأدباء**، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط1.

الحنبلـــي، ابـــن العمـــاد،(د.ت) **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار إحياء التراث بيروت.

أبـــو الخشـــب، إبراهيم، (د.ت) **تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني**، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية.

الخضري بك، الشيخ محمد،(1401هـ-1981م) **تاريخ التشريع الإسلامي**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط7.

الخضري بك، الشيخ محمد (د.ت) **تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)**، دار المعارف بيروت.

الخطيب البغدادي "أبو بكر أحمد بن علي المتوفى 463هـ"،(د.ت) **تاريخ بغداد أو مديـــنة السّـــلام مـــنذ تأسيسها حتى سنة 463هـ**، دار الكتب العلميّة - بيروت.

ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (1977م) تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت.

الزعـــيم، أحـــلام،(1411هـــ -1991م) **قـــراءات في الأدب العباسي "الحركة النثريّة"**، مطبعة الاتحاد - دمشق ،1411هـ -1991م .

الدروبـــي، ســـمير،(1999م)، منهجيّة العلماء المسلمين في الترجمة في العصر العباسي، **مجلة ترجمان** م8، ع1،ص51.

الدِّمشـــقي "أبـــو الفضل جعفر بن علي"،(1999م) **الإشارة إلى محاسن التجارة وغشـــوش المدلســـين فـــيها**، اعتنى به محمود الأرناؤوط، دار صادر- بيروت،ط1.

الـــدوري، عـــبد العزيـــز، (1950م) **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري**، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ط3.

الــدوري (1962م) **الجذور التاريخية للشعوبيّة**، دار الطليعة للطباعة والنشر – بيروت، ط1.

الــدوري (1969م) **مقدمــة فــي تاريخ الاقتصاد العربي**، دار الطليعة للطباعة والنشر–بيروت، ط1.

الــدوري،(حزيــران 1969م) نشوء الأصناف والحرف في الإسلام، **مجلــة كلية الآداب** – بغداد،ع1، ص1

الذهبــي (شمس الدين أبو محمد بن أحمد المتوفى 747هــ – 1374م)،(1337)، **كــتاب دول الإســلام في التاريخ**، مطبعة دائرة المعارف النظاميّة الكائنة بمدينة صدر آباد، ط1.

الذهبي (1403هــ–1983م) **ســيرأعلام النبلاء**، تحقيق سعيد الأرنؤوط ، مؤسسة الرّسالة، ط5.

الرازي "أبو بكر محمد بن زكريا"،(د.ت) **منافع الأغذيّة ودفع مضارها**، دار إحياء العلوم بيروت.

الــراوي، عبد اللطيف ،(د.ت) **المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري**، د.ن.

زهير الدّين، صالح (1998م) **أهل الفتوة والفتيان في المجتمع الإسلامي**، المركز العربي للأبحاث والتوثيق، د.ن، ط1.

زيــدان، جرجــي، (د.ت) **تاريخ التمدن الإسلامي**، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، ط1.

الســامرائي، محمــد رجب،(2002م) **أبو حيان التوحيدي إنسانا وأديبا**، الأوائل للنشر والتوزيع،ط1.

ســعد، فهمــي عبد الرزاق،(1983م) **العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين**، الأهلية للنشر والتوزيع بيروت.

ســلاّم، محمد زغلول (1996) الموسيقى والغناء في كتابات أبي حيان التوحيدي، **مجلة فصول** م15، ع1،ص124.

سـيد، أيمـن فـؤاد (خـريف 1995م)، أبو حيان التوحيدي ومؤلفاته المخطوطة والمطبوعة، **مجلّة فصول** م14، ع3، ص9.

السـيوطي (جـلال الدّين عبد الرحمن بن أبي بكر المتوفى 911هـ) (1399هـ 1979م)، **بغـية الوعـاة في طبقات النحويين**، تحقيق إبراهيم أبو الفضل، دار الفكر، ط3.

السيوطي، (د.ت) **تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، د.ن.

شبيل، الحبيب، (1413هـ- 1993م) **المجتمع والرؤية قراءة نصية في الإمتاع والمؤانسـة لأبـي حيان التوحيدي**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،ط1

الشهرسـتاني، أبـو الفـتح محمد عبد الكريم بن بكر أحمد (د.ت) **الملل والنحل**، تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، دار الفكر،د.ن.

الشـيخ، عـبد الغني، (1983م) **أبو حيان التوحيدي رأيه في الأعجاز وأثره في الأدب والنقد**،الدار العربية للكتاب.

الشيخلي، صباح،(د.ت) **الأصناف في العصر العباسي، نشأتها وتطورها**، د.ن.

الصابي" أبو الحسين هلال بن الحسن "،(1383هـ -1964م) **رسوم دار الخلافة**، تحقيق: مخائيل عواد، مطبعة العاني- بغداد.

الصـابي،" أبـو الحسن الهلال بن المحسن"،(1958م) **الوزراء تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء**، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربيّة.

الصباح، محمد علي،(1411هـ- 1990م) **أبو حيان التوحيدي فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة**، دار الكتب العلميّة- بيروت، ط1.

الصفا، إخوان، (د.ت) **رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا**، دار صادر -بيروت.

الصـفدي، صلاح الدين أبو الصفا خليل بن أبيك الصفدي، (1329هـ- 1911م) **نكـت الهمـيان فـي نكت العميان**، طبعة الأستاذ أحمد زكي بك المطبعة الجمالية مصر.

الصــولي "أبو بكر محمد بن يحي المتوفى 335هـ" (1403هـ 1983م)، **أخبار الراضــي والمتقي بالله أو تاريخ الدّولة العباسية من سنة 322-333هـ من كتاب الأوراق**، عني بنشره ج.هيورث، د.ن، دار المسيرة -بيروت، ط 3.

ضيف، شوقي ، (1973م) **العصر العباسي الثاني**، دار المعارف، ط8.

الطــبري،(د.ت) **تــاريخ الطبري**، تحقيق: إبراهيم أبو الفضل، دار المعارف - القاهرة، ط3.

ابــن الطقطقــا، محمد بن علي بن طباطبا، (د.ت) **الفخري في الآداب السلطانيّة والدول الإسلاميّة**، دار صادر- بيروت.

عباس، إحسان،(1965م) **أبو حيان التوحيدي**، دار بيروت للطباعة والنشر.

عــبد المولــى، محمد أحمد،(1410هـ-1990م) **العيارون والشطار في التاريخ العباسي**، مؤسسة شباب الجامعة مصر، ط1.

أبو عبيدة،(1401هـ-1981م) **الأموال**، تحقيق: محمد خليل هراس ،مكتبة كليات الأزهرية، دار الفكر، ط3.

العسقلاني، ابن حجر،(1407هـ - 1978) **لسان الميزان**، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1

علبــي، أحمد ،**(د.ت) ثورة الزنج وقائدها محمد علي (255 - 270 هـ)**، دار الفارابي - بيروت طبعة جديدة.

علــي، محمــد كرد (1355هــ -1939م) **أمراء البيان**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة القاهرة.

علــي، محمــد كــرد (1331هــ-1913م) **رسائل البلغاء**،دار الكتب العربيّة الكُبرى.

علي، محمد كرد (1440هـ-1984م) **كنوز الأجداد**، دار الفكر للطباعة والنشر - دمشق، ط3.

عمـــر، فايـــز طـــه،(2000م) **النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي**، دار الشؤون الثقافية العامة –بغداد،ط1.

أبو عوض، عاطف شكري، (د.ت) **الزندقة والزنادقة**، دار الفكر– عمان.

أبـــو العينين، سعيد،(1998م) **حكايـــات الجواري في قصور الخلافة**، دار أخبار اليوم، قطاع الثقافة، د.ن.

فـــروخ، عمـــر، (1983) **تـــاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون**، دار العلم للملايين، ط4.

أبـــو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمود، (د.ت) **المختصر في أخبار البشر**، المطبعة الحسينية المصرية، ط1.

فهـــد، بـــدري، (1378هـــ–1967م) **العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري**، مطبعة الإرشاد– بغداد.

ابن الفقيه" أبو بكر محمد الهمذاني" (1408 – 1988م) **مختصر كتاب البلدان**، دار أحياء التراث العربي، ط1.

الفيومـــي، محمد (1419م– 1998م) **الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسي**، دار الشروق، د.ن، ط1.

القاسمي، ظافر،(تشرين الأول 1962) الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي، **مجلّـــة المعـــرفة**،"7–12" ع5 ،دمشق تصدر عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ص38.

القاضـــي، وداد، (1970م) الركائـــز الفكريّة في نظرة أبي حيان التوحيدي إلى المجتمع، **مجلة الأبحاث الجامعة الإمريكية** ع(1–4)، ص15

ابـــن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، (د.ت) **عيون الأخبار**، دار الكتب العلمية – بيروت.

قـــدورة، زاهيّة ،(1972م) **الشعوبيّة في الحياة الاجتماعية والسياسيّة في الحياة الإسلاميّة في العصر العباسي الأول**، دار الكتب العلميّة –بيروت، ط1

القفطـــي "الوزيـــر جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف المتوفى646 هـــ" (1326هـ)، **كتاب أخبار العلماء بإخبار الحكماء**، عني بتصحيحه السيد محمد أمين الخانجي الكتبي، مطبعة السعادة مصر.

كـــار، مـــريم سلامة، (1998م) **الترجمة في العصر العباسي، مدرسة حنين بن أســحق، وأهميتها في الترجمة**، ترجمة: نجيب غزاوي، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية دمشق.

ابـــن كثير(عماد الدين أبو الفداء أسماعيل بن كثير القرشي المتوفى 774هـ)، (1405هـــ-1985م) **الـــبداية والنهاية**، تحقيق أحمد أبو ملحم علي نجيب عطوي، والأستاذ مهدي ناصر الدين، ط1،دار الكتب العلمية -بيروت.

الكروي، إبراهيم، (1989م) **طبقات المجتمع في العصر العباسي الأول**، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ط3.

كـــنار، مـــاريوس، (حزيران 1993م) بغداد في القرن الرابع الهجري، ترجمة: أكرم فاضل، **مجلة المورد**، م2،ع2،ص11.

الكيلاني، إبراهيم،(د.ت) **أبو حيان التوحيدي**، دار المعارف،د.ن، ط4.

المـــاوردي " ابـــو الحسن علي بن محمد حبيب المتوفى 450هـ"، (1409هـ- 1989م) **الأحكـــام الســـلطانيّة والولايـــات الديّنـــية**، تحقيق: خالد رشيد الجميلي.

الماوردي (1988م) **نصيحة الملوك**، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحد، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية.

مـــبارك، زكـــي،(1931م) **النـــثر الفني في القرن الرابع الهجري**، دار الجيل - بيروت.

متز، آدم،(د.ت) **الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجري**، ترجمة عبدالهادي أبو ريدة، دار الكتاب الإسلاميّة، د.ط.

محاســـنة، محمـــد حســـين، (2000-2001م) **أضـــواء علـــى تاريخ العلوم عند المسلمين**، دار الكتاب الجامعي - العين، ط1.

محي الدّين، عبد الرزاق (1949م) ، **أبو حيان التوحيدي، سيرته وآثاره**، الناشر مكتبة الخانجي، ط1.

مرجليوث(1930) **دائرة المعارف الإسلاميّة**، ترجمة: محمد مهدي وآخرون.

المسعودي" الحسن بن علي ابن الحسين بن علي المتوفى 346هـ"،(د.ت) **مروج الذهب ومعادن الجوهر**،الشركة العالميّة للكتاب ش.م.ل دار الكتاب العالمي الدار الإفريقية العربية، د.ن.

سكويه (أبو علي أحمد بن محمد)،(د.ت) **تجارب الأمم**، دار الكتاب الإسلامي – القاهرة.

المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد، (1411هـ-1991م) **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، مكتبة مدبولي- القاهرة، ط3.

المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي، (1359هـ -1940م) **إغاثة الأمّة في كشف الغمّة**، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة

المقريزي (د.ت) كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بخطط المقريزي، دار صادر بيروت،د.ت.

المقريزي (د.ت) كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، حققه وعلّق حواشيه د.حسين مؤنس، دار المعارف.

المكي "الشيخ أبي طالب محمد بن علي المتوفى 386هـ" (د.ت) **قوت القلوب في معاملة المحبوب**، دار الفكر.

مغنية، محمد جواد،(د.ت) الشيعة في الميزان، دار الشروق، د.ن.

ابن منظور، الإمام العلامة أبي الفضل جمال الدّين محمد ، (د.ت) **لسان العرب**، دار لسان العرب – بيروت.

مؤلف مجهول (1973م) **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، تحقيق عمر السعيدي، المعهد الفرنسي للدراسات العربيّة – دمشق.

منيمـــنة، حسن ، تاريخ الدولة البويهية السياسي والاقتصادي والاجتماعي"مقاطعة فــارس 334هـــــ - 447هــ/ 945- 1055م"، (1407هــ - 1987م) الدار الجامعية.

الـــنجار، محمـــد رجب (1400هــ- 1981م)، **حكايات الشطار والعيارين**، عالم المعرفة في التراث العربي،د.ن.

بـــن الـــنديم "ابـــو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحق المعروف بالوراق"،(د.ت) **الفهرست**، تحقيق: رضا-تجدد، حقوق الطبع محفوظة.

ابن الورد، عروة،(1418هــ -1998م) **الديـــوان**، تحقيق وشرح: أسماء أبو بكر، دار الكتب العلمية بيروت، د.ط.

هاشـــم، علـــي محمد ،(1402هــ-1982م) **الأنديّة الأدبية في العصر العباسي في العراق حتى نهاية القرن الثالث الهجري**، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط 1

هـــدارة، مصطفى،(1978) بائع الجواري صاحب الحكم والآداب، **مجلة العربي** (233-236) ص83.

اليعقوبـــي، أحمـــد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب،(د.ت) **تاريخ اليعقوبي**، دار صادر بيروت.

اليعقوبي (1408هــ -1988م) **كتاب البلدان**، دار إحياء التراث العربي، د.ن، ط1.